الكتاب: الملل والنحل
المؤلف: الشهرستاني
الجزء: ٢
الوفاة: ٥٤٨
المجموعة: من مصادر العقائد عند السنيين
تحقيق: محمد سيد كيلاني
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة: دار المعرفة
الناشر: دار المعرفة - بيروت - لبنان
ردمك:
ملاحظات: محمد سيد كيلاني ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة / دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - مستديرة المطار - تجاه بنك سبكو - شارع البرجاوي ص . ب ٧٨٧٦ تلفون : ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢ - برقيا معرفكار - بيروت - لبنان

الملل والنحل
تأليف
أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني
(٤٧٩ - ٥٤٨)
الجزء الثاني
تحقيق
محمد سيد گيلاني
ماچستر من كلية آداب جامعة القاهرة
دار المعرفة
بيروت - لبنان

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
مستديرة المطار – تجاه بنك مبكو – شارع البرجاوي ص. ب ٧٨٧٦ تلفون
٨٣٤٣٠١ – ٨٣٤٣٣٢ – برقيا معرفكار بيروت – لبنان

الباب الأول
أهل الأهواء والنحل
من الصابئة والفلاسفة وآراء العرب في الجاهلية وآراء الهند وهؤلاء يقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد كما ذكرنا واعتمادهم على الفطر السليمة والعقل الكامل والذهن الصافي
فمن معطل بطال لا يرد عليه فكره براد ولا يهديه عقله ونظره إلى اعتقاد ولا يرشده فكره وذهنه إلى معاد قد ألف المحسوس وركن إليه وظن انه لا عالم سوى ما هو فيه من مطعم شهي ومنظر بهي ولا عالم وراء هذا المحسوس وهؤلاء هم الطبيعيون الدهريون لا يثبتون معقولا
ومن محصل نوع تحصيل قد ترقى عن المحسوس وأثبت المعقول لكنه لا يقول بحدود وأحكام وشريعة وإسلام ويظن انه إذا حصل المعقول وأثبت للعالم مبدأ ومعادا وصل إلى الكمال المطلوب من جنسه فتكون سعادته على قدر إحاطته وعلمه وشقاوته بقدر سفاهته وجهله وعقله هو المستبد بتحصيل هذه السعادة ووضعه هو المستعد لقبول تلك الشقاوة وهؤلاء هم الفلاسفة الإلهيون قالوا الشرائع وأصحابها أمور مصلحية عامية والحدود والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية وأصحاب الشرائع

رجال لهم حكم عملية وربما يؤيدون من عند واهب الصور بإثبات أحكام ووضع حلال وحرام مصلحة للعباد وعمارة للبلاد وما يخبرون عنه من الأمور الكائنة في حال من أحوال عالم الروحانيين من الملائكة والعرش والكرسي واللوح والقلم فإنما هي أمور معقولة لهم قد عبروا عنها بصورة خيالية جسمانية وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد من الجنة والنار مثل قصور وأنهار وطيور وثمار في الجنة فترغيبات للعوام بما تميل إليه طباعهم وسلاسل وأغلال وخزي ونكال في النار فترهيبات للعوام بما تنزجر عنه طباعهم وإلا ففي العالم العلوي لا يتصور أشكال جسمانية وصور جرمانية
وهذا أحسن ما يعتقدونه في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لست أعني بهم الذين أخذوا علومهم من مشكاة النبوة وإنما أعني بهؤلاء الذين كانوا في الزمن الأول دهرية وحشيشية وطبيعية وإلهية قد اغتروا بحكمهم واستقلوا بأهوائهم وبدعهم
ثم يتلوهم ويقرب منهم قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية وربما أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحي إلا أنهم اقتصروا على الأول منهم وما نفذوا إلى الآخر وهؤلاء هم الصابئة الأولى الذين قالوا بعاذيمون وهرمس وهما شيث وإدريس عليهما السلام ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء عليهم السلام
والتقسيم الضابط أن نقول (١) من الناس من لا يقول بمحسوس ولا معقول وهم السوفسطائية (٢) ومنهم من يقول بالمحسوس ولا يقول بالمعقول وهم الطبيعية (٣) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول ولا يقول بحدود وأحكام وهم الفلاسفة الدهرية (٤) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام ولا يقول بالشريعة والإسلام وهم الصابئة

ومنهم من يقول بهذه كلها وبشريعة ما وإسلام ولا يقول بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهم المجوس واليهود والنصارى (٦) ومنهم من يقول بهذه كلها وهم المسلمون

ونحن قد فرغنا عمن يقول بالشرائع والأديان فنتكلم الآن فيمن لا يقول بها ويستبد برأيه وهواه في مقابلتهم

الفصل الأول

الصابئة

قد ذكرنا فيما تقدم أن الصبوة في مقابلة الحنفية وفي اللغة صبأ الرجل إذا مال وزاغ فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة

وقد يقال صبأ الرجل إذا عشق وهوى

وهم يقولون الصبوة هي الانحلال عن قيد الرجال

وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين

والصابئة تدعي أن مذهبها هو الاكتساب والحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ودعوة الحنفاء إلى الفطرة

الفصل الثاني
أصحاب الروحانيات
وفي العبارة لغتان
روحاني بالضم من الروح وروحاني بالفتح من الروح
والروح والروح متقاربان فكأن الروح جوهر والروح حالته الخاصة به
١ - مذهب أصحاب الروحانيات
ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة
أما الجوهر
فهم المقدسون عن المواد الجسمانية المبرءون عن القوى الجسدانية المنزهون عن الحركات المكانية والتغيرات الزمانية قد جبلوا على الطهارة وفطروا على التقديس والتسبيح * (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) * وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول عاذيمون وهرمس فنحن نتقرب إليهم ونتوكل عليهم وهم أربابنا وآلهتنا ووسائلنا وشفعاؤنا عند الله وهو رب الأرباب وأله الآلهة رب كل شيء ومليكه
فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات فحينئذ

نسأل حاجاتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبو في جميع أمورنا إليهم فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ورازقنا ورازقهم وهذا التطهير والتهذيب ليس يحصل إلا باكتسابنا ورياضتنا وفطامنا أنفسنا عن دنيات الشهوات باستمداد من جهة الروحانيات
والاستمداد هو التضرع والابتهال بالدعوات وإقامة الصلوات وبذل الزكوات والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح وتبخير البخورات وتعزيم العزائم فيحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة بل يكون حكمنا وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة
قالوا والأنبياء أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة يشاركوننا في المادة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا في الصورة أناس بشر مثلنا فمن أين لنا طاعتهم وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم * (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) *
مقالتهم
وأما الفعل
فقالوا الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال يستمدون القوة من الحضرة القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية
فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي هياكلها فلكل روحاني هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد فهو ربه ومدبره ومديره وكانوا يسمون الهياكل أربابا وربما يسمونها أباء والعناصر أمهات ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات

في المركبات فيتبعها قوى جسمانية وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي فمع جنس المطر ملك ومع كل قطرة ملك
ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجو
مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح
ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب
ومما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة
ومما يحدث في الأرض مثل الزلازل والمياه والأبخرة إلى غير ذلك
ومنها متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات حتى لا نرى موجودا ما خاليا عن قوة وهداية إذا كان قابلا لهما قالوا
وأما الحالة
فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والراحة والبهجة والسرور في جوار رب الأرباب كيفي يخفى
ثم طعامهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد والتحميد وأنسهم بذكر الله تعالى وطاعته فمن قائم ومن راكع ومن ساجد ومن قاعد لا يزيد تبديل حالته لما هو فيه من البهجة واللذة ومن خاشع بصره لا يرفع ومن ناظر لا يغمض ومن ساكن لا يتحرك ومن متحرك لا يسكن ومن كروبي في عالم القبض ومن روحاني في عالم البسط * (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) *

٢ – مناظرات بين الصابئة والحنفاء
وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحاني المحض وبين البشرية النبوية
ونحن أردنا أن نوردها على شكل سؤال وجواب وفيها فوائد لا تحصى
قالت الصابئة
الروحانيات أبدعت إبداعا لا من شيء لا مادة ولا هيولى وهي كلها جوهر واحد على سنخ واحد وجواهرها أنوار محضة لا ظلام فيها وهي من شدة ضيائها لا يدركها الحس ولا ينالها البصر ومن غاية لطافتها يحار فيها العقل ولا يجول فيها الخيال ونوع الإنسان مركب من العناصر الأربعة مؤلف من مادة وصورة والعناصر متضادة ومزدوجة بطباعها اثنان منها مزدوجان واثنان منها متضادان ومن التضاد يصدر الاختلاف والهرج ومن الازدواج يحصل الفساد والمرج فما هو مبدع لا من شيء لا يكون كمخترع من شيء
والمادة والهيولى سنخ الشر ومنبع الفساد فالمركب منها ومن الصورة كيف يكون كمحض الصورة والظلام كيف يساوي النور والمحتاج إلى الازدواج والمضطر في هوة الاختلاف كيف يرقى إلى درجة المستغنى عنهما
أجابت الحنفاء
بأن قالت من عرفتم معاشر الصابئة وجود هذه الروحانيات والحس ما دلكم عليه والدليل ما أرشدكم إليه قالوا عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من عاذيمون وهرمس شيث وإدريس عليهما السلام

قالت الحنفاء لقد ناقضتم وضع مذهبكم فإن غرضكم في ترجيح الروحاني على الجسماني نفى المتوسط البشري فصار نفيكم إثباتا وعاد إنكاركم إقرارا
ثم من الذي يسلم أن المبدع لا من شيء أشرف من المخترع من شيء بل وجانب الروحاني أمر واحد وجانب الجسماني أمران
أحدهما نفسه وروحه
والثاني حسه وجسده فهو من حيث الروح مبدع بأمر الله تعالى ومن حيث الجسد مخترع بخلقه ففيه أثران أمري وخلقي قولي وفعلي فساوى الروحاني بجهة وفضله بجهة خصوصا إذا كانت جهته الخلقية ما نقصت الجهة الأخرى بل كملت وطهرت وإنما الخطأ عرض لكم من وجهين
أحدهما أنكم فاضلتم بين الروحاني المجرد والجسماني المجرد فحكمتم بأن الفضل للروحاني وصدقتم لكن المفاضلة بين الروحاني المجرد والجسماني والروحاني المجتمع ولا يحكم عاقل بأن الفضل للروحاني المجرد فإنه بطرف ساواه وبطرف سبقه والفرض فيما إذا لم يدنس بالمادة ولوازمها ولم تؤثر فيه أحكام التضاد والازدواج بل كان مستخدما لها بحيث لا تنازعه في شيء يريده ويرضاه بل صارت معينات له على الغرض الذي لأجله حصل التركيب وعطلت الوحدة والبساطة وذلك تخليص النفوس التي تدنست بالمادة ولوازمها وصارت العلائق عوائق
وليت شعري ماذا يشين اللباس الحسن الشخص الجميل وكيف يزري اللفظ الرائق بالمعنى المستقيم ونعم ما قيل
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس إلى حسن الثناء سبيل
هذا كمن خاير بين اللفظ المجرد والمعنى المجرد اختار المعنى قيل له لا بل خاير

بين المعنى المجرد والعبارة والمعنى حتى لا يشكل إذ المعنى اللطيف في العبارة الرشيقة أشرف من المعنى المجرد
والوجه الثاني أنكم ما تصورتم من النبوة إلا كمالا وتماما فحسب ولم يقع بصركم على أنها كمال هو مكمل غيره ففاضلتم بين كمالين مطلقا وما حكمتم إلا بالتساوي وترجيح جانب الروحاني ونحن نقول ما قولكم في كمالين أحدهما كامل والثاني كامل ومكمل عالما أيهما أفضل
قالت الصابئة
نوع الإنسان ليس يخلو من قوتي الشهوة والغضب وهما ينزعان إلى البهيمية والسبعية وينازعان النفس الإنسانية إلى طباعها فيثور من الشهوية الحرص والأمل ومن الغضبية الكبر والحسد إلى غيرهما من الأخلاق الذميمة فكيف يماثل من هذه صفته نوع الملائكة المطهرين عنهما وعن لوازمهما ولواحقهما صافية أوضاعهم عن النوازع الحيوانية كلها خالية طباعهم عن القواطع البشرية بأسرها لم يحملهم الغضب على حب الجاه ولا حملتهم الشهوة على حب المال بل طباعهم مجبولة على المحبة والموافقة وجواهرهم مفطورة على الألفة والاتحاد
أجابت الحنفاء
بأن هذه المغالطة مثل الأولى حذو النعل بالنعل فإن في طرف البشرية نفسين نفس حيوانية لها قوتان قوة الغضب وقوة الشهوة ونفس إنسانية لها قوتان قوة علمية وقوة عملية وبتينك القوتين لها أن تجمع وتمنع وبهاتين القوتين لها أن تقسم الأمور وتفصل الأحوال ثم تعرض الأقسام والأحوال على العقل فيختار العقل الذي هو كالبصر النافذ له من العقائد الحق دون الباطل ومن الأقوال الصدق دون

الكذب ومن الأفعال الخير دون الشر ويختار بقوته العملية من لوازم القوة الغضبية الشدة والشجاعة والحمية دون الذلة والجبن والنذالة ويختار بها أيضا من لوازم القوة الشهوية التآلف والتودد والبذاذة دون الشره والمهانة والخساسة فيكون من أشد الناس حمية على خصمه وعدوه ومن أرحم الناس تذللا وتواضعا لوليه وصديقه وإذا بلغ هذا الكمال فقد استخدم القوتين واستعملهما في جانب الخير ثم يترقى منه إلى إرشاد الخلائق في تزكية النفوس عن العلائق وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب وإبلاغها إلى حد الكمال

ومن المعلوم أن كل نفس شريفة عالية زكية هذه حالها لا تكون كنفس لا تنازعها قوة أخرى على خلاف طباعها وحكم العنين العاجز في امتناعه عن تنفيذ الشهوة لا يكون كحكم المتصون الزاهد المتورع في إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه فإن الأول مضطر عاجز والثاني مختار قادر حسن الاختيار جميل التصرف وليس الكمال والشرف في فقدان القوتين وإنما الكمال كله في استخدام القوتين

فنفس النبي عليه الصلاة والسلام كنفوس الروحانيين فطرة ووضعا وبذلك الوجه وقعت الشركة وفضلها وتقدمها باستخدام القوتين اللتين دونها فلم تستخدمه واستعمالها في جانب الخير والنظام فلم تستعمله وهو الكمال

قالت الصابئة

الروحانيات صور مجردة عن المواد وإن قدر لها أشخاص تتعلق بها تصرفا وتدبيرا لا ممازجة ولا مخالطة فأشخاصها نورانية أو هياكل كما ذكرنا والفرض أنها إذا كانت صورا مجردة كانت موجودات بالفعل لا بالقوة كاملة لا ناقصة والمتوسط يجب أن يكون كاملا حتى يكمل غيره وإما الموجودات البشرية فصور في مواد وإن قدر لها نفوس فنفوسها إما مزاجية وإما خارجة عن المزاج والفرض أنها إذا كانت صورا

في مواد كانت موجودات بالقوة لا بالفعل ناقصة لا كاملة والمخرج من القوة إلى الفعل يجب أن يكون أمرا بالفعل ويجب أن يكون غير ذات ما يحتاج إلى الخروج فإن ما بالقوة لا يخرج بذاته من القوة إلى الفعل بل بغيره والروحانيات هي المحتاج إليها حتى تخرج الجسمانيات إلى الفعل والمحتاج إليه كيف يساوي المحتاج

أجابت الحنفاء

هذا الحكم الذي ذكرتموه وهو كون الروحانيات موجودات بالفعل غير مسلم على الإطلاق لأن من الروحانيات ما يكون وجوده بالقوة أو ما هو فيه وجود بالقوة ويحتاج إلى ما وجوده بالفعل حتى يخرجه من القوة إلى الفعل فإن النفس لها استعداد القبول من العقل عندكم والعقل له إعداد لكل شيء وفيض على كل شيء وأحدهما بالقوة والآخر بالفعل وهذا لضرورة الترتب في الموجودات العلوية فإن من لم يثبت الترتب فيها لم تتمش له قاعدة عقلية أصلا وإذا ثبت الترتب فقد ثبت الكمال في جانب والنقصان في جانب فليس كل روحاني كاملا من كل وجه ولا كل جسماني ناقصا من كل وجه فمن الجسمانيات أيضا ما وجوده كامل بالفعل وسائر النفوس أيضا محتاجة إليه وذلك أيضا لضرورة الترتب في الموجودات السفلية وإن من لم يثبت الترتب لم تستمر له قاعدة عقلية أصلا وإذا ثبت الترتب فقد ثبت الكمال في جانب والنقصان في جانب فليس كل جسماني ناقصا من كل وجه

قالت وإذا سلمتم لنا أن هذا العالم الجسماني في مقابلة ذلك العالم الروحاني وإنما يختلفان من حيث إن ما في هذا العالم من الأعيان فهو آثار ذلك العالم وما في ذلك العالم من الصور فهو مثل هذا العالم والعالمان متقابلان كالشخص والظل وإذا أثبتم في ذلك العالم موجودا ما بالفعل كاملا تاما حتى تصدر عنه سائر الموجودات وجودا

ووصولا إلى الكمال فيجب أن تثبتوا في هذا العالم أيضا موجودا ما بالفعل كاملا تاما حتى تصدر عنه سائر الموجودات تعلما ووصولا إلى الكمال
قالوا وإنما طريقنا إلى التعصب للرجال ونيابة الرسل في الصورة البشرية طريقكم في إثبات الأرباب عندكم وهي الروحانيات السماوية وذلك احتياج كل مربوب إلى رب يدبره ثم احتياج الأرباب إلى رب الأرباب
ومن العجب أن عند الصابئة أكثر الروحانيات قابلة منفعلة وإنما الفاعل الكامل واحد وعن هذا صار بعضهم إلى أن الملائكة إناث وقد أخبر التنزيل عنهم بذلك * (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) *
وإذا كان الفاعل الكامل المطلق واحد فما سواه قابل محتاج إلى مخرج يخرج ما فيه بالقوة إلى الفعل فكذلك نقول في الموجودات السفلية النفوس البشرية كلها قابلة للوصول إلى الكمال بالعلم والعمل فتحتاج إلى مخرج يخرج ما فيهما بالقوة إلى الفعل والمخرج هو النبي والرسول وما هو مخرج الشيء من القوة إلى الفعل لا يجوز أن يكون أمرا بالقوة محتاجا فإن ما لم يتحقق بالفعل وجودا لا يخرج غيره من القوة إلى الفعل فالبيض لا يخرج البيض من القوة إلى صورة الطير بل الطير يخرج البيض
وهذا الجواب يماثل الجواب الأول من وجه وفيه فائدة أخرى من وجه آخر وهي أن عند الحنفاء المعقول لا يكون معقولا حتى يثبت له مثال في المحسوس وإلا كان متخيلا موهوما والمحسوس لا يكون محسوسا حتى يثبت له مثال في المعقول وإلا كان سرابا معدوما وإذا ثبت هذه القاعدة فمن أثبت عالما روحانيا وأثبت فيه مدبرا كاملا من جنسه وجوده بالفعل وفعله إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل بفيض الصور عليها على قدر الاستحقاق فيلزمه ضرورة أن يثبت عالما جسمانيا ويثبت فيه مدبرا
كاملا من جنسه وجوده بالفعل وفعله إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل بفيض الصور عليها

على قدر الاستحقاق ويسمى المدبر في ذلك العالم الروح الأول على مذهب الصابئة والمدبر في هذا العالم الرسول على مذهب الحنفاء ثم يكون بين الرسول والروح مناسبة وملاقاة عقلية فيكون الروح الأول مصدرا والرسول مظهرا ويكون بين الرسول وسائر البشر مناسبة وملاقاة حسية فيكون الرسول مؤديا والبشر قابلا

قالت الصابئة

الجسمانيات مركبة من مادة وصورة والمادة لها طبيعة عدمية وإذا بحثنا عن أسباب الشر والفساد والسفه والجهل لم نجد لها سببا سوى المادة والعدم وهما منبعا الشر والروحانيات غير مركبة من المادة والصورة بل هي صورة مجردة والصورة لها طبيعة وجودية وإذا بحثنا عن أسباب الخير والصلاح والحكمة والعلم لم نجد لها سببا سوى الصورة وهي منبع الخير فنقول ما فيه أصل الخير أو ما هو أصل الخير كيف يماثل ما فيه أصل الشر

أجابت الحنفاء

بأن ما ذكرتم في المادة أنها سبب الشر فغير مسلم فإن من المواد ما هو سبب الصور كلها عند قوم وذلك هو الهيولى الأولى والعنصر الأول حتى صار كثير من قدماء الفلاسفة إلى أن وجودها قبل وجود العقل ثم إن سلم فالمركب من المادة والصورة كالمركب من الوجوب والجواز عندكم فإن الجواز له طبيعة عدمية وما من وجود سوى وجود الباري تعالى إلا وجوده جائز بذاته واجب بغيره فيجب أن يلازمه أصل الشر

قالوا وإن سلم لكم أيضا تلك المقدمة فعندنا صور النفوس البشرية وخصوصا

صور النفوس النبوية كانت موجودة قبل وجود المواد وهي المبادئ الأولى حتى صار كثير من الحكماء إلى إثبات أناس سرمديين وهي الصورة المجردة التي كانت موجودة قبل العقل كالظلال حول العرش * (يسبحون بحمد ربهم) * وكانت هي أصل الخير ومبدأ الوجود ولكن لما ألبست الصور البشرية لباس المادة تشبثت بالطبيعة وصارت المادة شبكة لها فساح عليها الواهب الأول فبعث إليها واحدا من عالمه وألبسه لباس المادة ليخلص الصور عن الشبكة لا ليكون هو المتشبث بها المنغمس فيها المتوسخ بأوضارها المتدنس بآثارها والى هذا المعنى أشار حكماء الهند رمزا بالحمامة المطوقة والحمامات الواقعة في الشبكة

ثم قالوا معاشر الصابئة أبدا تشنعون علينا بالمادة ولوازمها وما لم نفصل القول فيها لم ننج من تشنيعكم

فنقول النفوس البشرية وخصوصا النبوية من حيث إنها نفوس فهي مفارقة للمادة مشاركة لتلك النفوس الروحانية إما مشاركة في النوع بحيث يكون التمييز بالأعراض والأمور العرضية وإما مشاركة في الجنس بحيث يكون الفصل بالأمور الذاتية ثم زادت على تلك النفوس باقترانها بالجسد أو بالمادة والجسد لم ينتقص منها بل كملت هي لوازم الجسد وكملت بها حيث استفادت من الأمور الجسدانية ما تجسدت بها في ذلك العالم من العلوم الجزئية والأعمال الخلقية والروحانيات فقدت هذه الأبدان لفقدان هذا الاقتران فكان الاقتران خيرا لا شر فيه وصلاحا لا فساد معه ونظاما لا فسخ له فكيف يلزمنا ما ذكرتموه

قالت الصابئة
الروحانيات نورانية علوية لطيفة والجسمانيات ظلمانية سفلية كثيفة فكيف يتساويان والاعتبار في الشرف والفضيلة بذوات الأشياء وصفاتها ومراكزها ومحالها فعالم الروحانيات العلو لغاية النور واللطافة وعالم الجسمانيات السفل لغاية الكثافة والظلمة والعالمان متقابلان والكمال للعلوي لا للسفلي والصفتان متقابلتان والفضيلة للنور لا للظلمة
أجابت الحنفاء
قالوا لسنا نوافقكم أولا على أن الروحانيات كلها نورانية ولا نساعدكم ثانيا أن الشرف للعلو ولا نساهلكم أصلا أن الاعتبار في الشرف بذوات الأشياء
وعلينا بيان هذه المقدمات الثلاث فإن فيها فوائد كثيرة
أما الأولى فقالوا حكمتم على الروحانيات حكم التساوي وما اعتبرتم فيها التضاد والترتب وإذا كانت الموجودات كلها روحانيها وجسمانيها على قضية التضاد والترتب فلم أغفلتم الحكمين ههنا وذلك أن من قال الروحاني هو ما ليس بجسماني فقد أدخل جواهر الشياطين والأبالسة والأراكنة في جملة الروحانيات وكذلك من أثبت الجن أثبتها روحانية لا جسمانية ثم من الجن من هو مسلم ومنها من هو ظالم ومن قال الروحاني هو المخلوق روحا فمن الأرواح ما هو خير ومنها ما هو شرير والأرواح الخبيثة أضداد الأرواح الطيبة فلا بد إذن من إثبات تضاد بين الجنسين وتنافر بين الطرفين فلم تسلم دعواكم أنها كلها نورانية
بلى وعندنا معاشر الحنفاء الروح هو الحاصل بأمر الباري تعالى الباقي على مقتضى أمره فمن كان لأمره تعالى أطوع وبرسالات رسله أصدق كانت الروحانية فيه أكثر والروح عليه أغلب ومن كان لأمره تعالى أنكر وبشرائعه أكذب كانت الشيطنة عليه اغلب

هذه قاعدتنا في الروحانيات فلا روحاني أبلغ في الروحانية من ذوات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام
وأما قولكم إن الشرف للعلو إن عنيتم به علو الجهة فلا شرف فيه فكم من عال جهة سافل رتبة وعلما وذاتا وطبيعة وكم من سافل جهة عال على الأشياء كلها رتبة وفضيلة وذاتا وطبيعة
وأما قولكم إن الاعتبار في الشرف بذوات الأشياء وصفاتها ومحالها ومراكزها فليس بحق وهو مذهب اللعين الأول حيث نظر إلى ذاته وذات آدم عليه السلام ففضل ذاته إذ هي مخلوقة من النار وهي علوية نورانية على ذات آدم وهو مخلوق من الطين وهو سفلي ظلماني
بل عندنا الاعتبار في الشرف بالأمر وقبوله فمن كان أقبل لأمره وأطوع لحكمه وأرضى بقدره فهو أشرف ومن كان على خلاف ذلك فهو أبعد وأخس وأخبث فأمر الباري تعالى هو الذي يعطي الروح * (قل الروح من أمر ربي) * وبالروح يحيا الإنسان الحياة الحقيقية وبالحياة يستعد للعقل الغريزي وبالعقل يكتسب الفضائل ويجتنب الرذائل ومن لم يقبل أمر الباري تعالى فلا روح له ولا حياة ولا عقل له ولا فضيلة له ولا شرف عنده قالت الصابئة
الروحانيات فضلت الجسمانيات بقوتي العلم والعمل
أما العلم فلا ينكر إحاطتهم بمغيبات الأمور عنا وإطلاعهم على مستقبل الأحوال الجارية علينا ولأن علومهم كلية وعلوم الجسمانيات جزئية وعلومهم فعلية وعلوم

الجسمانيات انفعالية وعلومهم فطرية وعلوم الجسمانيات كسبية فمن هذه الوجوه تحقق لها الشرف على الجسمانيات
وأما العمل فلا ينكر أيضا عكوفهم على العبادة ودوامهم على الطاعة يسبحون الليل والنهار لا يفترون لا يلحقهم كلال ولا سآمة ولا يرهقهم ملال ولا ندامة فتحقق لها الشرف أيضا بهذا الطرف وكان أمر الجسمانيات بالخلاف من ذلك
أجابت الحنفاء عن هذا بجوابين
أحدهما التسوية بين الطرفين وإثبات زيادة في جانب الأنبياء عليهم السلام
والثاني بيان ثبوت الشرف في غير العلم والعمل
أما الأول فإنهم قالوا علوم الأنبياء عليهم السلام كلية وجزئية وفعلية وانفعالية وفطرية وكسبية فمن حيث تلاحظ عقولهم عالم الغيب منصرفة عن عالم الشهادة تحصل لهم العلوم الكلية فطرة ودفعة واحدة ثم إذا لاحظوا عالم الشهادة حصلت لهم العلوم الجزئية اكتسابا بالحواس على ترتيب وتدريج فكما أن للإنسان علوما نظرية هي المعقولات وعلوما حاصلة بالحواس عن المحسوسات فعالم المعقولات بالنسبة إلى الأنبياء كعالم المحسوسات بالنسبة إلى سائر الناس فنظرياتنا فطرية لهم ونظرياتهم لا نصل إليها قط بل ومحسوساتنا مكتسبة لهم ولنا بكواسب الجوارح جوارح الحواس فأمزجة الأنبياء عليهم السلام أمزجة نفسانية ونفوسهم نفوس عقلية وعقولهم عقول أمرية فطرية ولو وقع حجاب في بعض الأوقات فذاك لموافقتنا ومشاركتنا كي تزكى هذه العقول وتصفى هذه الأذهان والنفوس وإلا فدرجاتهم وراء ما يقدر
وأما الثاني فإنهم قالوا من العجب أنهم لا يعجبون بهذه العلوم بل ويؤثرون التسليم على البصيرة والعجز على القدرة والتبرؤ من الحول والقوة على الاستقلال والفطرة على الاكتساب * (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) * على * (إنما أوتيته على علم عندي) *

ويعلمون أن الملائكة والروحانيات بأسرها وإن علمت إلى غاية قوة نظرها وإدراكها ما أحاطت بما أحاط به علم الباري تعالى بل لكل منهم مطرح نظر ومسرح فكر ومجال عقل ومنتهى أمل ومطار وهم وخيال وأنهم إلى الحد الذي انتهى نظرهم إليه مستبصرون ومن ذلك الحد إلى ما وراءه مما لا يتناهى مسلمون مصدقون وإنما كمالهم في التسليم لما لا يعلمون والتصديق لما يجهلون * (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) * ليس كمال حالهم بل * (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) * هو الكمال

فمن أين لكم معاشر الصابئة أن الكمال والشرف في العلم والعمل لا في التسليم والتوكل

وإذا كانت غاية العلوم هذه الدرجة فجعلت نهاية أقدام الملائكة والروحانيين بداية أقدام السالكين من الأنبياء والمرسلين * (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) * فعالم الروحانيات بالنسبة إليهم شهادة وبالنسبة إلينا غيب وعالم البشر الجسمانيات بالنسبة إلينا شهادة وبالنسبة إليهم غيب والله تعالى هو الذي * (يعلم السر وأخفى) *

قالت الحنفاء من علم أنه لا يعلم فقد أحاط بكل العلم ومن اعترف بالعجز عن أداء الشكر فقد أدى كل الشكر

قالت الصابئة

الروحانيات لهم قوة تصريف الأجسام وتقليب الأجرام والقوة التي لهم ليست من جنس القوى المزاجية حتى يعرض لها كلال ولغوب فتنحسر ولكن القوى الروحانية بالخواص الجسمانية أشبه وإنك لترى الخامة اللطيفة من النبات في بدء نموها تفتق الحجر وتشق الصخر وما ذاك إلا لقوة نباتية فاضت عليها من القوى السماوية ولو كانت هي

قوى مزاجية لما بلغت إلى هذا المنتهى فالروحانيات هي التي تتصرف في الأجسام تقليبا وتصريفا لايثقلهم حمل الثقيل ولا يستخفهم تحريك الخفيف فالرياح تهب بتحريكها والسحاب يعرض ويزول بتصريفها وكذلك الزلازل تقع في الجبال بسبب من جهتها وكل هذه وإن استندت إلى أسباب جزئية فإنها تستند في الآخرة إلى أسباب من جهتها

ومثل هذه القوة عديم الوجود في الجسمانيات

أجابت الحنفاء

وقالوا منا يقتبس تفصيل القوى وتجنيسها

فإن القوى تنقسم إلى قوى معدنية وقوى نباتية وقوى حيوانية وقوى إنسانية وقوى ملكية وقوى روحانية وقوى نبوية ربانية والإنسان مجمع القوى بجملتها والإنسانية النبوية تفضلها بقوى ربانية ومعان إلهية

فنذكر أولا وجه تركيب الإنسان ووجه ترتيب القوى فيه ثم نذكر تركيب البشرية النبوية وترتيب القوى فيها ثم نخاير بين الوضعين الروحاني منهما والجسماني وإليك الاختيار

أما شخص الإنسان فمركب من الأركان الأربعة التراب والماء والهواء والنار التي لها الطبائع الأربعة اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة ثم مركب فيه نفوس ثلاثة إحداها نفس نباتية تنمو وتتغذى وتولد المثل والثانية نفس حيوانية تحس وتتحرك بالإرادة والثالثة نفس إنسانية بها يميز ويفكر ويعبر عما يفكر

ووجود النفس الأولى من الأركان وطبائعها وبقاؤها بها واستمدادها منها ووجود النفس الثانية من الأفلاك وحركاتها وبقاؤها بها واستمدادها منها ووجود النفس الثالثة من العقول البحتة والروحانيات الصرفة وبقاؤها بها واستمدادها منها

ثم إن النباتية تطلب الغذاء طبعا والحيوانية تطلب الغذاء حسا والإنسانية تطلب الغذاء اختيارا وعقلا ولكل نفس منها محل فمحل النباتية الكبد ومنه مبدأ النمو والنشوء وعن هذا جعل فيه عروق دقاق ينفذ فيها الغذاء إلى الأطراف ومحل الحيوانية القلب ومنه مبدأ تدبير الحس والحركة وعن هذا فتح منه عروق إلى الدماغ فيصعد إلى الدماغ من حرارته ما يعدل تلك البرودة وينزل منه من آثاره ما يدبر به الحركة ومحل الإنسانية تصريفا وتدبيرا الدماغ ومنه مبدأ الفكر والتعبير عن الفكر وعن هذا فتحت إليه أبواب الحواس مما يلي هذا العالم وفتحت إليه أبواب المشاعر مما يلي ذلك العالم وههنا ثلاثة أعضاء ممدات لا بد منها المعدة التي تمد الكبد بالغذاء والرئة التي تمد القلب بترويح الهواء والعروق التي تمد الدماغ بالحرارة

فإذن التركيب الإنساني أشرف التراكيب فإن فيه جميع آثار العالم الجسماني والروحاني وتركيب القوى فيه أكمل التراتيب فهو مجمع آثار الكونين والعالمين فكل ما هو في العالم منتشر ففيه مجتمع وكل ما هو فيه من خواص الاجتماع فليس للعالم البتة لأن للاجتماع والتركيب خاصية لا توجد في حال الافتراق والانحلال واعتبر فيه حال السكر والخل وحال السكنجبين وكذلك الحكم في كل مزاج

هذا وجه تركيب البدن وترتيب القوى الخاصة به

وأما وجه اتصال النفس به وترتيب القوى الخاصة بها مما يلي هذا العالم ومما يلي ذلك العالم فاعلم أن النفس الإنسانية جوهر هو أصل القوى المحركة والمدركة والحافظة للمزاج تحرك الشخص بالإرادة لا في جهات ميله الطبيعي وتتصرف في أجزائه ثم في جملته وتحفظ مزاجه عن الانحلال وتدرك بالمشاعر المركوزة فيه وهي الحواس الخمس فبالقوة الباصرة تدرك الألوان والأشكال وبالقوة السامعة تدرك الأصوات والكلمات وبالقوة الشامة تدرك الروائح وبالقوة الذائقة تدرك المطعومات وبالقوة اللامسة تدرك

الملموسات وله فروع من قوى منبثة في أعضاء البدن حتى إذا أحس بشيء من أعضائه أو تخيل أو توهم أو اشتهى أو غضب ألفى العلاقة التي بينه وبين تلك الفروع هيئة فيه حتى يفعل وله إدراك وقوى تحريك

أما الإدراك فهو أن يكون مثال حقيقة المدرك متمثلا مرتسما في ذات المدرك غير مباين له ثم المثال قد يكون مثال صورة الشيء وقد يكون مثال حقيقته ومثال صورة الشيء هو ما يكون محسوسا فيرتسم في القوة الباصرة وقد غشيته غواش غريبة عن ماهيته لو أزيلت عنه لم تؤثر في كنه ماهيته مثل أين وكيف ووضع وكم معينة لو توهم بدلها غيرها لم يؤثر في ماهية ذلك المدرك والحس يناله من حيث هو مغمور في هذه العوارض التي تلحقه بسبب المادة لا يجردها عنه ولا يناله إلا بعلاقة وضيعة بين حسه ومادته

ثم الخيال الباطن يتخيله مع تلك العوارض التي لا يقدر على تجريده المطلق عنها لكنه يجرده عن تلك العلائق الوضيعة التي تعلق بها الحس فهو يتمثل صورة مع غيبوبة حاملها وعنده مثال العوارض لا نفس العوارض ثم الفكر العقلي يجرده عن تلك العوارض فيعرض ماهيته وحقيقته على العقل فيرتسم فيه مثال حقيقته حتى كأنه عمل بالمحسوس عملا جعله معقولا وأما ما هو بريء في ذاته عن الشوائب المادية منزه عن العوارض الغريبة فهو معقول لذاته ليس يحتاج إلى عمل يعمل فيه فيعقله ما من شأنه أن يعقله فلا مثال له يتمثل في العقل ولا ماهية له فيجرد له ولا وصول إليه بالإحاطة والفكرة إلا أن البرهان يدلنا عليه ويرشدنا إليه

وكثيرا ما يلاحظ العقل الإنساني عالم العقل الفعال فيرتسم فيه من الصور المجردة المعقولة ارتساما بريئا عن العلائق المادية والعوارض الغريبة فيبتدر الخيال إلى تمثله فيمثله في صورة خيالية مما يناسب عالم الحس فينحدر إلى الحس المشترك ذلك المثال فيبصره كأنه يراه معاينا مشاهدا يناجيه ويشاهده حتى كأن العقل عمل بالمعقول عملا جعله محسوسا وذلك إنما يكون عند اشتغال الحواس كلها عن أشغالها وسكون المشاعر عن حركاتها في النوم لجماعة وفي اليقظة للأبرار

يا عجبا كل العجب من تركيب على هذا النمط ومن أين لغيره مثله
ونعود إلى ترتيب القوى وتعيين محالها
أما القوى المتعلقة بالبدن التي ذكرناها آلات ومشاعر للجوهر الإنساني
فالأولى منها الحس المشترك المعروف ببنطاسيا الذي هو مجمع الحواس ومورد المحسوسات وآلتها الروح المصبوب في مبادىء عصب الحس لا سيما في مقدم الدماغ
والثانية الخيال والمصورة وآلتها الروح المصبوب في البطن المقدم من الدماغ لا سيما في الجانب الآخر
والثالثة الوهم الذي هو لكثير من الحيوان وهو ما به تدرك الشاة معنى في الذئب فتفر منه وبه تدرك معنى في النوع فتنفر إليه وتزدوج به وآلته الدماغ كله لكن الأخص منه هو التجويف الأوسط
والرابعة المفكرة وهي قوة لها أن تركب وتفصل ما يليها من الصور المأخوذة عن الحس المشترك والمعاني الوهمية المدركة بالوهم فتارة تجمع وتارة تفصل وتارة تلاحظ
العقل فتعرض عليه وتارة تلاحظ الحس فتأخذ منه وسلطانها في الجزء الأول من وسط الدماغ وكأنها قوة ما للوهم وتتوسط بين الوهم والعقل
والخامسة القوة الحافظة وهي التي كالخزانة لهذه المدركات الحسية والوهمية والخيالية دون العقلية الصرفة فإن المعقول البحت لا يرتسم في جسم ولا في قوة جسم والحافظة قوة في جسم وآلتها الروح المصبوب في أول البطن المؤخر من الدماغ
والسادسة القوة الذاكرة وهي التي تستعرض ما في الخزانة على جانب العقل أو على الخيال والوهم وآلتها الروح المصبوب في آخر البطن المؤخر من الدماغ
وأما المعقول الصرف المبرأ عن الشوائب المادية فلا يحل في قوة جسمانية وآلة جسدانية حتى يقال ينقسم بانقسامها ويتحقق لها وضع ومثال ولهذا لم تكن القوة الحافظة خزانة

لها بل المصدر الأول الذي أفاض عليها تلك الصورة صار خازنا لها فحيثما طالعته النفس الإنسانية بقوتها العقلية المناسبة لواهب الصور نوعا من المناسبة فاضت منه عليها تلك الصور المستحفظة له حتى كأنه ذكرها بعد ما نسيت ووجدها بعد ما ضلت عنه وغريزة النفس الصافية تنزع إلى جانب القدس في تذكار الأمور الغائبة عن حضرة العقل نزاعا طبيعيا فتستحضر ما غاب عنها ولهذا السر أخبر الكتاب الإلهي * (واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) * حتى صار كثير من الحكماء إلى أن العلوم كلها تذكار وذلك أن النفوس كانت في البدء الأول في عالم الذكر ثم هبطت إلى عالم النسيان فاحتاجت إلى مذكرات لما قد نسيت معيدات إلى ما كانت قد ابتدأت * (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) * * (وذكرهم بأيام الله) *

ثم للنفس الانسانية قوى عقلية لا جسمانية وكمالات نفسانية روحانية لا جسدانية فمن قواها مالها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن وهي القوة التي تختص باسم العقل العملي وذلك أن تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل ولايفعل ومن قواها ما لها بحسب حاجتها إلى تكميل جوهرها عقلا بالفعل وإنما يخرج من القوة إلى الفعل بمخرج غير ذاتها لا محالة فيجب أن يكون لها قوة استعدادية تسمى عقلا هيولانيا حتى يقبل من غيرها ما به يخرجها من الاستعداد إلى الكمال فأول خروج لها إلى الفعل حصول قوة أخرى من واهب الصور يحصل لها عند استحضارها المعقولات الأول فيتهيأ بها لاكتساب الثواني إما بالفكر وإما بالحدس فيتدرج قليلا قليلا إلى أن يحصل لها ما قدر لها من المعقولات ولكل نفس استعداد إلى حد ما لا يتعداه ولكل عقل حد ما لا يتخطاه فيبلغ إلى كماله المقدر له ويقتصر على قوته المركوزة فيه ولا يتبين ههنا وجود التضاد بين النفوس والعقول ووجوب الترتب فيها

وإنما يعرف مقادير العقول ومراتب النفوس الأنبياء والمرسلون الذين اطلعوا على الموجودات كلها روحانيتها وجسمانيتها معقولاتها ومحسوساتها كلياتها وجزئياتها علوياتها وسفلياتها فعرفوا مقاديرها وعينوا موازينها ومعاييرها

وكل ما ذكرناه من القوى الانسانية فهي حاصلة لهم مركبة فيهم منصرفة كلها عن جانب الغرور إلى جانب القدس مستديمة الشروق بنور الحق فيها حتى كأن كل قوة من القوى الجسدانية والنفسانية ملك روحاني موكل بحفظ ما وجه إليه واستتمام ما رشح له بل ومجموع جسده ونفسه مجمع آثار العالمين من الروحانيات والجسمانيات وزيادة أمرين أحدهما ما حصل له من فائدة التركيب والترتيب كما بينا من مثال السكر والخل والثاني ما أشرق عليه من الانوار القدسية وحيا والهاما ومناجاة وإكراما

فأين للروحاني هذه الدرجة الرفيعة والمقام المحمود والكمال الموجود

بل ومن أين للروحانيات كلها هذا التركيب الذي خص نوع الانسان به وما تعلقوا به من القوة البالغة على تحريك الاجسام وتصريف الأجرام فليس يقتضي شرفا فإن ما يثبت لشيء ويثبت لهذه مثله لم يتضمن شرفا ومن المعلوم أن الجن والشياطين قد ثبت لهم من القوة البالغة والقدرة الشاملة ما يعجز كثير من الموجودات عن ذلك وليس ذلك ما يوجب شرفا وكمالا وانما الشرف في استعمال كل قوة فيما خلقت له وأمرت به وقدرت عليه

قالت الصابئة

الروحانيات لها اختيارات صادرة من الأمر متوجهة إلى الخير مقصورة على نظام العالم وقوام الكل لا يشوبها البتة شائبة الشر وشائبة الفساد بخلاف اختيار البشر فإنه متردد بين طرفي الخير والشر لولا رحمة الله في حق البعض وإلا فوضع اختيارهم

كان ينزع إلى جانب الشر والفساد إذ كانت الشهوة والغضب المركوزتان فيهم يجرانهم إلى جانبهما وأما الروحانيات فلا ينازع احتيارهم الا التوجه إلى وجه الله تعالى وطلب رضاه وامتثال أمره فلا جرم كل اختيار هذا حاله لا يتعذر عليه ما يختاره فكما أراد واختار وجد المراد وحصل المختار وكل اختيار ذلك حاله تعذر عليه ما يختاره فلا يوجد المراد ولا يحصل المختار

أجابت الحنفاء بجوابين

أحدهما نيابة عن جنس البشر والثاني نيابة عن الأنبياء عليهم السلام

أما الأول فنقول اختيار الروحانيات إذا كان مقصورا على أحد الطرفين محصورا مني كان وضعه مجبورا ولا شرف في الجبر واختيار البشر تردد بين طرفي الخير والشر فمن جانب يرى آيات الرحمن ومن طرف يسمع وساوس الشيطان فتميل به تارة دعوة الحق إلى امتثال الأمر وتميل به طورا داعية الشهوة إلى اتباع الهوى فإذا أقر طوعا وطبعا بوحدانية الله تعالى واختار من غير جبر وإكراه طاعته وصير اختياره المتردد بين الطرفين مجبورا تحت أمره تعالى باختيار من جهته من غير اجبار صار هذا الاختيار أفضل وأشرف من الاختيار المجبور فطرة كالمكره فعله كسبا الممنوع عما لا يجب جبرا ومن لا شهوة له فلا يميل إلى المشتهى كيف يمدح عليه وإنما المدح كل المدح لمن زين له المشتهى فنهى النفس عن الهوى فتبين أن اختيار البشر أفضل من اختيار الروحانيات

واما الثاني فنقول أن اختيار الأنبياء عليهم السلام مع ما أنه ليس من جنس اختيار البشر من وجه فهو متوجه إلى الخير مقصور على الصلاح الذي به نظام العالم وقوام الكل صادر عن الأمر صائر إلى الأمر لا يتطرق إلى اختيارهم ميل إلى الفساد بل ودرجتهم فوق ما يبتدر إلى الأوهام فإن العالي لا يريد أمرا لأجل السافل من حيث

هو سافل بل إنما يختار ما يختار لنظام كلي وأمر أعلى من الجزئي ثم يتضمن ذلك حصول نظام في الجزئي تبعا لا مقصودا وهذا الاختيار والإرادة على جهة سنة الله تعالى في اختياره ومشيئته للكائنات لأن مشيئته تعالى كلية متعلقة بنظام الكل غير معللة بعلة حتى لا يقال إنما اختار هذا لكذا وإنما فعل هذا لكذا فلكل شئ علة ولا علة لصنعه تعالى بل لا يريد إلا كما علم وذلك أيضا ليس بتعليل لكنه بيان أن إرادته أعلى من أن تتعلق بشيء لعلة دونها وإلا لكان ذلك الشيء حاملا له على ما يريد وخالق العلل والمعلولات لا يكون محمولا على شيء فاختياره لا يكون معللا بشيء واختيار الرسول المبعوث من جهته ينوب عن اختياره كما أن أمره ينوب عن أمره فيسلك سبل ربه ذللا ثم يخرج من قضية اختياره نظام حال وقوام أمر مختلف ألوانه فيه شفاء للناس فمن أين للروحانيات هذه المنزلة وكيف يصلون إلى هذه الدرجة

كيف وكل ما يذكرونه فموهوم وكل ما يذكره النبي فمحقق مشاهدة وعيانا بل وكل ما يحكي عن الروحانيات من كمال علمهم وقدرتهم ونفوذ اختيارهم واستطاعتهم فإنما أخبرنا بذلك الأنبياء والمرسلون عليهم السلام وإلا فأي دليل أرشدنا إلى ذلك ونحن لم نشاهدهم ولم نستدل بفعل من أفعالهم على صفاتهم وأحوالهم

قالت الصابئة

الروحانيون متخصصون بالهياكل العلوية مثل زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر وهذه السيارات كالأبدان والأشخاص بالنسبة إليها وكل ما يحدث من الموجودات ويعرض من الحوادث فكلها مسببات هذه الأسباب وآثار هذه العلويات فيفيض على هذه العلويات من الروحانيات تصريفات وتحريكات إلى جهات الخير والنظام ويحصل من حركاتها واتصالاتها تركيبات وتأليفات في هذه العالم ويحدث في المركبات أحوال ومناسبات فهم الأسباب الأول والكل مسبباتها

والمسبب لا يساوي السبب والجسمانيون متشخصون بالأشخاص السفلية والمتشخص كيف يماثل غير المتشخص
وإنما يجب على الأشخاص في أفعالهم وحركاتهم اقتفاء آثار الروحانيات في أفعالها وحركاتها حتى يراعى أحوال الهياكل وحركات أفلاكها زمانا ومكانا وجوهرا وهيئة ولباسا وبخورا وتعزيما وتنجيما ودعاء وحاجة خاصة بكل هيكل فيكون تقربا إلى الهيكل تقربا إلى الروحاني الخاص به فيكون تقربا إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب حتى يقضي حاجته ويتم مسألته
وسيأتي تفصيل ما أجملوه من أمر الهياكل عند ذكر أصحابها إن شاء الله تعالى
أجابت الحنفاء
بأن قالوا الآن نزلتم عن نيابة الروحانيات الصرفة إلى نيابة هياكلها وتركتم مذهب الصبوة الصرفة فإن الهياكل أشخاص الروحانيين والأشخاص هياكل الربانيين غير أنكم أثبتم لكل روحاني هيكلا خاصا له فعل خاص لا يشاركه فيه غيره
ونحن نثبت أشخاصا رسلا كراما تقع أوضاعهم وأشخاصهم في مقابلة كل الكون الروحاني منهم في مقابلة الروحاني منها والأشخاص منهم في مقابلة الهياكل منها وحركاتهم في مقابلة حركات جميع الكواكب والأفلاك وشرائعهم مراعاة حركات استندت إلى تأييد إلهي ووحي سماوي موزونة بميزان العدل مقدرة على مقادير الكتاب الأول * (ليقوم الناس بالقسط) * ليست مستخرجة بالآراء المظلمة ولا مستنبطة بالظنون الكاذبة إن طابقتها على المعقولات تطابقتا وإن وافقتها بالمحسوسات توافقتا
كيف ونحن ندعي أن الدين الإلهي هو الموجود الأول والكائنات تقدرت عليه

وأن المناهج التقديرية هي الأقدم ثم المسالك الخلقية والسنن الطبيعية توجهت إلينا ولله تعالى سنتان في خلقه وأمره والسنة الأمرية أقدم وأسبق من السنة الخلقية وقد أطلع خواص عباده من البشر على السنتين * (ولن تجد لسنة الله تحويلا) * هذا من جهة الخلق * (ولن تجد لسنة الله تبديلا) * هذا من جهة الأمر

فالأنبياء عليهم السلام متوسطون في تقرير سنة الأمر والملائكة متوسطون في تقرير سنة الخلق والأمر أشرف من الخلق فمتوسط الأمر أشرف من متوسط الخلق فالأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة

وهذا عجب حيث صارت الروحانيات الأمرية متوسطات في الخلق وصارت الأشخاص الخلقية متوسطين في الأمر ليعلم أن الشرف والكمال في التركيب لا في البساطة واليد للجسماني لا للروحاني والتوجه إلى التراب أولى من التوجه إلى السماء والسجود لآدم عليه السلام أفضل من التسبيح والتحميد والتقديس

وليعلم أن الكمال في إثبات الرجال لا في تعيين الهياكل والظلال وأنهم هم الآخرون وجودا السابقون فضلا وأن آخر العمل أول الفكرة وأن الفطرة لمن له الحجة وأن المخلوق بيديه لا يكون كالمكون بحرفيه قال عز وجل فوعزتي وجلالي لا أجعل من خلقته بيدي كمن قلت له كن فكان

قالت الصابئة

الروحانيات مبادئ الموجودات وعالمها معاد الأرواح والمبادئ أشرف ذاتا وأسبق وجودا وأعلى رتبة ودرجة من سائر الموجودات التي حصلت بتوسطها وكذلك عالمها عالم المعاد والمعاد كمال فعالمها عالم الكمال

فالمبدأ منها والمعاد إليها والمصدر عنها والمرجع إليها بخلاف الجسمانيات وأيضا فإن الأرواح إنما نزلت من عالمها حتى اتصلت بالأبدان فتوسخت بأوضار الأجسام ثم تطهرت عنها بالأخلاق الزكية والأعمال المرضية حتى انفصلت عنها فصعدت إلى عالمها الأول والنزول هو النشأة الأولى والصعود هو النشأة الأخرى فعرف أنهم أصحاب الكمال لا أشخاص الرجال

أجابت الحنفاء

قالوا من أين سلمتم هذا التسليم أن المبادئ هي الروحانيات وأي برهان أقمتم وقد نقل عن كثير من قدماء الحكماء أن المبادئ هي الجسمانيات على اختلاف منهم في الأول منها أنه نار أو هواء أو ماء أو أرض واختلاف آخر أنه مركب أو بسيط واختلاف آخر انه إنسان أو غيره حتى صارت جماعة إلى إثبات أناس سرمديين

ثم منهم من يقول إنهم كانوا كالظلال حول العرش ومنهم من يقول إن الآخر وجودا من حيث الشخص في هذا العالم هو الأول وجودا من حيث الروح في ذلك العالم وعليه خرج أن أول الموجودات نور محمد عليه الصلاة والسلام فإذا كان شخصه هو الآخر من جملة الأشخاص النبوية فروحه هو الأول من جملة الأرواح الربانية وإنما حضر هذا العالم ليخلص الأرواح المدنسة بالأوضار الطبيعية فيعيدها إلى مبدئها وإذا كان هو المبدأ فهو المعاد أيضا فهو النعمة والنعيم وهو الرحمة وهو الرحيم

قالوا ونحن إذا أثبتنا أن الكمال في التركيب لا في البساطة والتحليل فيجب أن يكون المعاد بالأشخاص والأجساد لا بالنفوس والأرواح والمعاد كمال لا محالة غير أن الفرق بين المبدأ والمعاد هو أن الأرواح في المبدأ مستورة بالأجساد وأحكام الأجساد غالبة وأحوالها ظاهرة للحس والأجساد في المعاد مغمورة بالأرواح وأحكام النفوس غالبة وأحوالها ظاهرة للعقل وإلا فلو كانت الأجساد تبطل رأسا وتضمحل أصلا

وتعود الأرواح إلى مبدئها الأول ما كان للاتصال بالأبدان والعمل بالمشاركة فائدة ولبطل تقدير الثواب والعقاب على فعل العباد ومن الدليل القاطع على ذلك أن النفوس الإنسانية في حال اتصالها بالبدن اكتسبت أخلاقا نفسانية صارت هيئات متمكنة فيها تمكن الملكات حتى قيل إنها نزلت منزلة الفصول اللازمة التي تميزها عن غيرها ولولاها لبطل التمييز وتلك الهيئات إنما حصلت بمشاركات من القوى الجسمانية بحيث لن يتصور وجودها إلا مع تلك المشاركة وتلك القوى لن تتصور إلا في أجسام مزاجية فإذا كانت النفوس لن تتصور إلا معها وهي المعينة المخصصة وتلك لن تتصور إلا مع الأجسام فلا بد من حشر الأجسام والمعاد بالأجسام

قالت الصابئة

طريقنا في التوسل إلى حضرة القدس ظاهر وشرعنا معقول فإن قدماءنا من الزمان الأول لما أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصا في مقابلة الهياكل العلوية على نسب وإضافات راعوا فيها جوهرا وصورة وعلى أوقات وأحوال وهيئات أوجبوا على من يتقرب بها إلى ما يقابلها من العلويات تختم ولباسا وتبخرا ودعاء وتعزيما فتقربوا إلى الروحانيات فتقربوا إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب وهو طريق متبع وشرع ممهد لا يختلف بالأمصار والمدن ولا يتسخ بالأدوار والأكوار ونحن تلقينا مبدأه من عاذيمون وهرمس العظيمين فعكفنا على ذلك دائمين

وأنتم معاشر الحنفاء تعصبتم للرجال وقلتم بأن الوحي والرسالة ينزل عليهم من عند الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة فما الوحي أولا وهل يجوز أن يكلم الله بشرا وهل يكون كلامه من جنس كلامنا وكيف ينزل ملك من السماء وهو ليس بجسماني أبصورته أم بصورة البشر وما معنى تصوره بصورة الغير أفيخلع صورته ويلبس لباسا آخر أم يتبدل وضعه وحقيقته ثم ما البرهان أولا على جواز انبعاث الرسل في صورة البشر

وما دليل كل مدع منهم أفنأخذ بمجرد دعواه أم لا بد من دليل خارق للعادة وإن أظهر ذلك أفهو من خواص النفوس أم من خواص الأجسام أم من فعل الباري تعالى ثم ما الكتاب الذي جاء به أفهو كلام الباري تعالى وكيف يتصور في حقه كلام أم هو كلام الروحاني ثم هذه الحدود والأحكام أكثرها غير معقولة فكيف يسمح عقل الإنسان بقبول أمر لا يعقله وكيف تطاوعه نفسه بتقليد شخص هو مثله أبأن يريد أن يتفضل عليه * (ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) *

أجابت الحنفاء

بأن المتكلمين منا يكفوننا جواب هذا الفصل بطريقين أحدهما الإلزام تعرضا لإبطال مذهبكم والثاني الحجة تعرضا لإثبات مذهبنا

أما الإلزام فقالوا إنكم ناقضتم مذهبكم حيث قلتم بتوسط عاذيمون وهرمس وأخذتم طريقتكم منهما ومن أثبت المتوسط في إنكار المتوسط فقد ناقض كلامه وتخلف مرامه

وزادوا هذا تقريرا بأنكم معاشر الصابئة أيضا متوسطون يحتاج إليكم في التزام مذهبكم إذ من المعلوم أن كل من دب ودرج منكم ليس يعرف طريقتكم ولا يقف على صنعتكم من علم وعمل أما العلم فالإحاطة بحركات الكواكب والأفلاك وكيفية تصرف الروحانيات فيها وأما العمل فصنعة الأشخاص في مقابلة الهياكل على النسب بل قوم مخصوصون أو واحد في كل زمان يحيط بذلك علما ويتيسر له عملا فقد أثبتم متوسطا عالما من جنس البشر وقد ناقض آخر كلامكم أوله

وزادوا هذا تقريرا آخر بإلزام الشرك عليهم إما الشرك في أفعال الباري تعالى وإما الشرك في أوامره
أما الشرك في الأفعال فهو إثبات تأثيرات الهياكل والأفلاك فإن عندهم الإبداع الخاص بالرب تعالى هو اختراع الروحانيات ثم تفويض أمور العالم العلوي إليها والفعل الخاص بالروحانيات هو تحريك الهياكل ثم تفويض أمور العالم السفلي إليها كمن يبني معملة وينصب أركانا للعمل من الفاعل والمادة والآلة والصورة ويفوض العمل إلى التلامذة فهؤلاء اعتقدوا أن الروحانيات آلهة والهياكل أرباب والأصنام في مقابلة الهياكل باتخاذ وتصنع من كسبهم وفعلهم فألزم أصحاب الأصنام أنكم تكلفتم كل التكلف حتى توقعوا حجرا جمادا في مقابلة هيكل وما بلغت صنعتكم إلى إحداث حياة فيه وسمع وبصر ونطق وكلام * (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) * أو ليست أوضاعكم الفطرية وأشخاصكم الخلقية أفضل منها وأشرف أو ليست النسب والإضافات النجومية المرعية في خلقتكم أشرف وأكمل مما راعيتموها في صنعتكم * (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) * أو لستم تحتاجون إلى المتوسط المعمول لقضاء حاجة إما جلب نفع أو دفع ضر فهذا العامل الصانع أقدر إذ فيه من القوة العلمية والعملية ما يستعمل به الهياكل العلوية ويستخدم الأشخاص الروحانية فهلا ادعى لنفسه ما يثبت بفعله في جماد ولهذا الإلزام تفطن اللعين فرعون حيث ادعى الإلهية والربوبية لنفسه وكان في الأصل على مذهب الصابئة فصبأ عن ذلك ودعا إلى نفسه فقال * (أنا ربكم الأعلى) * * (ما علمت لكم من إله غيري) * إذ رأى في نفسه قوة الاستعمال والاستخدام

واستظهر بوزيره هامان وكان صاحب الصنعة فقال * (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى) * وكان يريد أن يبني صرحا مثل الرصد فيبلغ به إلى حركات الأفلاك والكواكب وكيفية تركيبها وهيئاتها وكمية أدوارها وأكوارها فلربما يطلع على سر التقدير في الصنعة ومآل الأمر في الخلقة والفطرة ومن أين له هذه القوة والبصيرة ولكن اعتزاز بنوع فطنة وكياسة في جبلته واغترار بضرب إهمال في مهلته فما تمت لهم الصنعة حتى * (أغرقوا فأدخلوا نارا) *

فحدث بعده السامري وقد نسج على منواله في الصنعة حتى أخذ قبضة من أثر الروحاني وأراد أن يرقى الشخص الجمادي عن درجته إلى درجة الحيواني * (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) * وما أمكنه أن يحدث فيه ما هو أخص أوصاف المتوسط من الكلام والهداية * (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) * فانحسر في الطريق حتى كان من الأمر ما كان وقيل * (لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا) *

ويا عجبا من هذا السر

حيث أغرق فرعون فأدخل النار مكافأة على دعوى الإلهية لنفسه وأحرق العجل ثم نسف في اليم مكافأة على إثبات الإلهية له وما كان للنار والماء على الحنفاء يد الاستيلاء * (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) * * (فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك) *

هذه مراتب الشرك في الفعل والخلق

ويشبه أن يكون دعوى اللعينين نمرود وفرعون أنهما إلهان أرضيان كالآلهة السماوية الروحانية دعوى الإلهية من حيث الأمر لا من حيث الفعل والخلق وإلا ففي زمان كل واحد منهما من هو أكبر منه سنا وأقدم في الوجود عليه فلما ظهر من دعواهما أن الأمر كله لهما فقد ادعيا الإلهية لنفسهما

وهذا هو الشرك الذي ألزمه المتكلم هلى الصابئ فإنه لما ادعى أنه أثبت في الأشخاص ما يقضي به حاجة الخلق فقد عاد بالتقدير إلى صنعته ووقف بالتدبير إلى معاملته فكان الأمر بأن هذا الفعل واجب الإقدام عليه وهذا واجب الإحجام عنه أمرا في مقابلة أمر الباري تعالى والمتوسط فيه متوسط الأمر وكان شركا إذ لم ينزل الله به سلطانا ولا أقام عليه حجة وبرهانا

كيف وما يتمسك به من الأحكام مرتبة على هيئات فلكية لم تبلغ قوة البشر قط إلى مراعاتها ولا يشك أن الفلك كله يتغير لحظة فلحظة بتغير جزء من أجزائه تغير الوضع والهيئة بحيث لم يكن على تلك الهيئة فيما سبق ولا يرجع إلى تلك الحالة فيما يستقبل ومتى يقف الحاكم على تغيرات الأوضاع حتى تكون صنعته في الأشخاص والأصنام مستقيمة وإذا لم تستقم الصنعة فكيف تكون الحاجة مقضية ومن رفع الحاجة إلى من لا ترفع الحوائج إليه فقد أشرك كل الشرك

وأما الطريق الثاني فإقامة الحجة على إثبات المذهب ولمتكلمي الحنفاء فيه مسلكان أحدهما أن يسلك الطريق نزولا من أمر الباري تعالى إلى سد حاجات الخلق والثاني أن يسلك الطريق صعودا من حاجات الخلق إلى إثبات أمر الباري تعالى ثم تخرج الإشكالات عليهما

أما الأول فقال المتكلم الحنيف قد قامت الحجة على أن الباري تعالى خالق الخلائق ورازق العباد وأنه المالك الذي له الملك والملك والمالك هو أن يكون له على عباده أمر

وتصريف وذلك أن حركات العباد قد انقسمت إلى اختيارية وغير اختيارية فما كان منها باختيار من جهتهم فيجب أن يكون للمالك فيها حكم وأمر وما كان منها بلا اختيار فيجب أن يكون له فيها تصريف وتقدير ومن المعلوم أن ليس كل أحد يعرف حكم الباري تعالى وأمره فلا بد إذن من واحد يستأثره بتعريف حكمه وأمره في عباده وذلك الواحد يجب أن يكون من جنس البشر حتى يعرفهم أحكامه وأوامره ويجب أن يكون مخصوصا من عند الله عز وجل بآيات خلقية هي حركات تصريفية وتقديرية يجريها الله على يده عند التحدي بما يدعيه تدل تلك الآيات على صدقه نازلة منزلة التصديق بالقول ثم إذا ثبت صدقه وجب اتباعه في جميع ما يقول ويفعل وليس يجب الوقوف على كل ما يأمر به وينهى عنه إذ ليس كل علم تبلغ إليه قوة البشر

ثم الوحي من عند الله العزيز يمد حركاته الفكرية والقولية والعملية بالحق في الأفكار والصدق في الأقوال والخير في الأفعال فبطرف يماثل البشر وهو طرف الصورة وبطرف يوحى إليه وهو طرف المعنى والحقيقة * (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) * فبطرف يشابه نوع الإنسان وبطرف يماثل نوع الملائكة وبمجموعهما يفضل النوعين حتى تكون بشريته فوق بشرية النوع مزاجا واستعدادا وملكيته فوق ملكية النوع الآخر قبولا وأداء فلا يضل ولا يغوى بطرف البشرية ولا يزيغ ولا يطغى بطرف الروحانية فيقرر أن أمر الباري تعالى واحد لا كثرة فيه ولا انقسام له * (وما أمرنا إلا واحدة) * غير أنه يلبس تارة عبارة العربية وتارة عبارة العبرية والمصدر يكون واحدا والمظهر متعددا

والوحي إلقاء الشيء الى الشيء بسرعة فيلقي الروح الأمر إليه دفعة واحدة بلا زمان * (كلمح بالبصر) * فيتصور في نفسه الصافية صورة الملقي كما يتمثل في المرآة المجلوة

صورة المقابل فيعبر عنه إما بعبارة قد اقترنت بنفس التصور وذلك هو * (آيات الكتاب) * أو بعبارة نفسه وذلك هو أخبار النبوة وهذا كله بطرفه الروحاني
وقد يتمثل الملك الروحاني له بمثال صورة البشر تمثل المعنى الواحد بالعبارات المختلفة أو تمثل الصورة الواحدة في المرايا المتعددة أو الظلال المتكثرة للشخص الواحد فيكالمه مكالمة حسية ويشاهده مشاهدة عينية ويكون ذلك بطرفه الجسماني وإن انقطع الوحي عنه لم ينقطع عنه التأييد والعصمة حتى يقومه في أفكاره ويسدده في أقواله ويوفقه في أفعاله
ولا تستبعدوا معاشر الصابئة تلقي الوحي على الوجه المذكور ونزول الملك على النسق المعقود وعندكم أن هرمس العظيم صعد إلى العالم الروحاني فانخرط في سلكهم فإذا تصور صعود البشر فلم لا يتصور نزول الملك وإذا تحقق أنه خلع لباس البشرية فلم لا يجوز أن يلبس الملك لباس البشرية فالحنيفية إثبات الكمال في هذا اللباس أعني لباس الناس والصبوة إثبات الكمال في خلع كل لباس ثم لا يتطرق ذلك لهم حتى يثبتوا لباس الهياكل أولا ثم لباس الأشخاص والأوثان ثانيا ولقد قال لهم رأس الحنفاء متبرئا عن الهياكل والأشخاص * (إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) *
وأما الثاني فهو الصعود من حاجة الناس إلى إثبات أمر الباري تعالى قال المتكلم الحنيف لما كان نوع الإنسان محتاجا إلى اجتماع على نظام وذلك الاجتماع لن يتحقق إلا بحدود وأحكام في حركاته ومعاملاته يقف كل منهم عند حده المقدر له لا يتعداه وجب أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يبين فيه أحكام الله تعالى في الحركات وحدوده في المعاملات فيرتفع به الاختلاف والفرقة ويحصل به الاجتماع والألفة وهذا

الاحتياج لما كان لازما لنوع الإنسان ضرورة يجب أن يكون المحتاج إليه قائما ضرورة بحيث تكون نسبته إليه نسبة الغني والفقير والمعطي والسائل والملك والرعية فإن الناس لو كانوا كلهم ملوكا لم يكن ملك أصلا كما لو كانوا كلهم رعايا لم تكن رعية أصلا ثم لا يبقى ذلك الشخص ببقاء الزمان وعمره لا يساوي عمر العالم فينوب منابه علماء أمته ويرث علمه أمناء شريعته فتبقى سنته ومنهاجه ويضيء على البرية مدى الدهر سراجه والعلم بالتوارث وليست النبوة بالتوارث والشريعة تركة الأنبياء والعلماء ورثة الأنبياء

قالت الصابئة

الناس متماثلة في حقيقة الإنسانية والبشرية ويشملهم حد واحد وهو الحيوان الناطق المائت والنفوس والعقول متساوية في الجوهرية فحد النفس بالمعنى الذي يشترك فيه الإنسان والحيوان والنبات أنه كمال جسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة وبالمعنى الذي يشترك فيه الإنسان والملك أنه جوهر غير جسم هو كمال الجسم محرك له بالاختيار عن مبدأ نطقي أي عقلي بالفعل أو بالقوة فالذي بالفعل هو خاصة النفس الملكية والذي بالقوة هو فصل النفس الإنسانية

وأما العقل فقوة أو هيئة لهذه النفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن المواد والناس في ذلك على استواء من القدم وإنما الاختلاف يرجع إلى أحد أمرين أحدهما اضطراري وذلك من حيث المزاج المستمد لقبول النفس والثاني اختياري وذلك من حيث الاجتهاد المؤثر في رفع الحجب المادية وتصقيل النفس عن الصدأة المانعة لارتسام الصور المعقولة حتى لو بلغ الاجتهاد إلى غاية الكمال تساوت الأقدام وتشابهت الأحكام فلا يتفضل بشر على بشر بالنبوة ولا يتحكم أحد على أحد بالاستتباع

أجابت الحنفاء
بأن التماثل والتشابه في الصور البشرية والإنسانية مسلم لا مرية فيه وإنما التنازع بيننا في النفس والعقل قائم فإن عندنا النفوس والعقول على التضاد والترتب وعلينا بيان ذلك على مساق حدودكم ومساق أصولنا
فقولكم إن النفس جوهر غير جسم هو كمال الجسم محرك له بالاختيار وذلك إذا أطلق النفس على الإنسان والملك وهو كمال جسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة وإذا أطلق على الإنسان والحيوان فقد جعلتم لفظ النفس من الأسماء المشتركة وميزتم بين النفس الحيواني والنفس الإنساني والنفس الملكي فهلا زدتم فيه قسما ثالثا وهو النفس النبوي حتى يتميز عن الملكي كما تميز الملكي عن الإنساني فإن عندكم المبدأ النطقي للإنسان بالقوة والمبدأ العقلي للملك بالفعل فقد تغايرا من هذا الوجه ومن حيث إن الموت الطبيعي يطرأ على الإنسان ولا يطرأ على الملك وذلك تمييز آخر فليكن في النفس النبوي مثل هذا الترتيب
وأما الكمال الذي تعرضتم له فإنما يكون كمالا للجسم إذا كان اختيار المحرك محمودا فأما إذا كان اختياره مذموما من كل وجه صار الكمال نقصانا وحينئذ يقع التضاد بين النفس الخيرة والنفس الشريرة حتى تكون إحداهما في جانب الملكية والثانية في جانب الشيطانية فيحصل التضاد المذكور كما حصل الترتب المذكور فإن الاختلاف بالقوة والفعل اختلاف بالترتب والاختلاف بالكمال والنقص والخير والشر اختلاف بالتضاد فبطل التماثل
ولا تظنن أن الاختلاف بين النفسين الخيرة والشريرة اختلاف بالعوارض فان الاختلاف بين النفس الملكية والشيطانية بالنوع كما أن الاختلاف بين النفس الإنسانية والملكية بالنوع وكيف لا يكون كذلك والاختلاف ههنا بالقوة والفعل

والاختلاف ثم بالخير والشر وهذا لسر وهو أن الخير غريزة هي هيئة متمكنة في النفس بأصل الفطرة وكذلك الشر طبيعة غريزية لست أقول فعل الخير وفعل الشر فإن الغريزة غير الفعل المترتب عليها فتحقق أن ههنا نفسا محركة للبدن اختيارا نحو الخير عن مبدأ عقلي أما بالقوة أو بالفعل وهو كمال للجسم وليس بجسم وههنا نفسا محركة للبدن اختيارا نحو الشر عن مبدأ نطقي إما بالقوة أو بالفعل وهو نقص للجسم وليس بجسم

ولا ينبون طبعك عن أمثال ما يورد عليك المتكلم الحنيف فإنما يغترفه من بحر وليس ينحته من صخر فلربما لا يساعدك على أن الإنسان نوع الأنواع وأن الاختلاف فيه يقع في العوارض واللوازم بل يثبت في النفوس الانسانية اختلافا جوهريا فيفصل بعضها على بعض بالفصول الذاتية لا باللوازم العرضية فكما أن الاختلاف بالقوة والفعل في النفس الإنسانية والملكية اختلاف جوهري أوجب اختلاف النوع والنوع وإن شملهما اسم النفس الناطقة والفصل الذاتي هو القوة والفعل كذلك نقول في نفس لها قوة علم خاص وقوة عمل خاص وقوة خير وقوة شر وكمال مطلق هو أصل الخير ونقص مطلق هو أصل الشر

وأما ما ذكره المتكلم الصابي من حد العقل أنه قوة أو هيئة للنفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء المجردة عن المواد فغير شامل لجميع العقول عنده ولا عند الحنيف بل هو تعرض للعقل الهيولاني فقط فأين العقل النظري وحده أنه قوة للنفس تقبل ماهيات الأمور الكلية من جهة ما هي كلية وأين العقل العملي وحده أنه قوة للنفس هي مبدأ لتحريك القوة الشوقية إلى ما يختار من الجزئيات لأجل غاية مظنونة وأين العقل بالملكة وهو استكمال القوة الهيولانية حتى تصير قريبة من الفعل وأين العقل بالفعل وهو استكمال النفس بصورة أو صورة معقولة حتى متى شاء عقلها وأحضرها بالفعل وأين العقل المستفاد وهو ماهية مجردة عن المادة مرتسمة في النفس على سبيل الحصول من خارج

وأين العقول المفارقة فإنها ماهيات مجردة عن المادة وأين العقل الفعال فإنه من جهة ما هو عقل فإنه جوهري صوري ذاته ماهية مجردة في ذاتها لا بتجريدها غيرها عن المادة وعن علائق المادة وهي ماهية كل موجود ومن جهة ما هو فعال فإنه جوهر بالصفة المذكورة من شأنه أن يخرج العقل الهيولاني من القوة إلى الفعل بإشراقة عليه فقد تعرض لنوع واحد من العقول ولا خلاف أن هذه العقول قد اختلفت حدودها وتباينت فصولها كما سمعت

فأخبرني أيها المتكلم الحكيم من أي عقل تعد عقلك أولا وهل ترضى أن يقال لك تساوت الأقدام في العقول حتى يكون عقلك بالفعل والإفادة كعقل غيرك بالقوة والاستعداد بل واستعداد عقلك لقبول المعقولات كاستعداد عقل غبي غوي لا يرد عليه الفكر برادة ولا ينفك الخيال عن عقله كما لا ينفك الحس عن خياله وإذا كانت الأقدام متساوية فما هذا الترتيب في الأقسام وإذا أثبت ترتبا في العقول فبالضرورة أن ترتقي في الصعود إلى درجة الاستقلال والإفادة وتنزل في الهبوط إلى درجة الاستعداد والاستفادة ثم هل في نوعه ما هو عديم الاستعداد أصلا حتى يشبه أن يكون عقلا وليس عقلا وما النوع الذي تثبته الشياطين أهو من عداد ما ذكرنا أم خارج عن ذلك فإنك إذا ذكرت حد الملك وأنه جوهر بسيط ذو حياة ونطق عقلي غير مائت هو واسطة بين الباري تعالى والأجسام السماوية والأرضية وعددت أقسامه أن منه ما هو عقلي وما هو نفسي ومنه ما هو حسي فيلزمك من حيث التضاد أن تذكر حد الشيطان على الضد مما ذكرته من حد الملك وتعد أقسامه وأنواعه أيضا ويلزمك من حيث الترتب أن تذكر حد الإنسان على التضاد مما ذكرته من حد الملك وتعد أقسامه وأنواعه كذلك حتى يكون من الإنسان ما هو محسوس فقط ومنه ما هو مع كونه محسوسا روحاني نفساني عقلي وذلك هو درجة النبوة فمن عقل عمل من حس ومن حس عمل من عقل ومن نفس مزاجي ومن مزاج نفسي ومن روح جسماني ومن جسم روحاني دع عنك كلام العامة ولا تظنن هذه الطامة

قالت الصابئة
لقد حصرتمونا بإبطال تساوي العقول والنفوس وإثبات الترتب والتضاد فيهما ولا شك أن من سلم الترتب فقد لزمه الاتباع فأخبرونا ما رتبة الأنبياء بالنسبة إلى نوع الإنسان وما رتبتهم بالإضافة إلى الملك والجن وسائر الموجودات ثم ما مرتبة النبي عند الباري تعالى فإن عندنا الروحانيات أعلى مرتبة من جميع الموجودات وهم المقربون في الحضرة الإلهية والمكرمون لديه ونراكم تارة تقولون إن النبي يتعلم من الروحاني ونراكم تارة تقولون إن الروحاني يتعلم من النبي
أجابت الحنفاء
بأن الكلام في المراتب صعب ومن لم يصل إلى رتبة من المراتب كيف يمكنه أن يستوفي بيانها
لكنا نعرف أن رتبته بالنسبة الينا رتبتنا بالنسبة إلى من هو دوننا في الجنس من الحيوان فكما أن نعرف أسامي الموجودات ولا يعرفها الحيوان كذلك هم يعرفون خواص الأشياء وحقائقها ومنافعها ومضارها ووجوه المصالح في الحركات وحدودها وأقسامها ونحن لا نعرفها
وكما أن نوع الإنسان ملك الحيوان بالتسخير فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ملوك الناس بالتدبير وكما أن حركات الناس معجزات الحيوان كذلك حركات الأنبياء معجزات الناس لأن الحيوانات لا يمكنها أن تبلغ إلى الحركات الفكرية حتى تميز الحق من الباطل ولا أن تبلغ إلى الحركات القولية حتى تميز الصدق من الكذب ولا أن تبلغ إلى الحركات الفعلية حتى تميز الخير من الشر فلا التمييز العقلي لها بالوجود ولا مثل هذه الحركات لها بالفعل وكذلك حركات الأنبياء لأن منتهى فكرهم لا غاية له وحركات أفكارهم

في مجالي القدس مما تعجز عنها قوة البشر حتى يسلم لهم لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل وكذلك حركاتهم القولية والفعلية لا تبلغ إلى غاية انتظامها وجريانها على سنن الفطرة حركة كل البشر وهم في الرتبة العليا والدرجة الأولى من درجات الموجودات كلها فقد أحاطوا علما بما أطلعهم الرب تعالى على ذلك دون غيرهم من الملائكة والروحانيين ففي الأول تكون حالة حال التعلم * (علمه شديد القوى) * وفي الأخير حاله حال التعليم وذلك في حق آدم عليه السلام * (أنبئهم بأسمائهم) * حين كان الأمر على بدء الظهور والكشف فانظر كيف تكون الحال في نهاية الظهور

وأما إضافتهم إلى جناب القدس فالعبودية الخاصة * (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) * قولوا إنا عباد مربوبون وقولوا في فضلنا ما شئتم أحق الأسماء لهم وأخص الأحوال بهم عبده ورسوله لا جرم كان أخص التعريفات لجلاله تعالى بأشخاصهم إله ابراهيم إله اسماعيل وإسحاق إله موسى وهرون إله عيسى إله محمد عليهم الصلاة والسلام فكما أن من العبودية ما هو عام الإضافة ومنها ما هو خاص الإضافة كذلك التعريف إلى الخلق بالإلهية والربوبية والتجلي للعباد بالخصوصية منه ما له عموم رب العالمين ومنه ما له خصوص رب موسى وهرون

فهذه نهاية مذهبي الصابئة والحنفاء وفي الفصول التي جرت بين الفريقين فوائد لا تحصى

وكان في الخاطر بعد زوايا نريد نمليها وفي القلم خفايا أكاد أخفيها فعدلت عنها إلى ذكر حكيم هرمس العظيم لا على أنه من حملة فرق الصابئة حاشاه بل على أن حكمه مما تدل على تقرير مذهب الحنفاء في اثبات الكمال في الأشخاص البشرية وإيجاب القول باتباع النواميس الإلهية على خلاف مذاهب الصابئة

حكم هرمس العظيم
المحمودة آثاره المرضية أقواله وأفعاله الذي يعد من الأنبياء الكبار ويقال هو إدريس النبي عليه السلام وهو الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجعة والاستقامة وبين تعديل الكواكب وتقويمها وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع
وللهند والعرب طريقة أخرى في الأحكام أخذوها من خواص الكواكب لا من طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات
ويقال أن عاذيمون وهرمس هما شيث وإدريس عليهما السلام ونقلت الفلاسفة عن عاذيمون أنه قال المبادىء الأول خمسة الباري تعالى والعقل والنفس والمكان والخلاء وبعدها وجود المركبات ولم ينقل هذا عن هرمس
ومن حكم هرمس
قوله أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المحمود بسنخه المرضي في عادته المرجو في عاقبته تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة له والاعتراف بمنزلته وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ولنفسه عليه حق الاجتهاد والدأب في فتح باب السعادة ولخلصائه عليه حق التحلي لهم بالود والتسارع اليهم بالبذل فإذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة وحسن المعاشرة وسهولة الخلق
أنظروا معاشر الصابئة كيف عظم أمر الرسالة حتى قرن طاعة الرسول الذي عبر عنه بالناموس بمعرفة الله تعالى ولم يذكر ههنا تعظيم الروحانيات ولا تعرض لها وإن كانت هي من الواجبات

وسئل بماذا يحسن رأي الناس في الإنسان قال بأن يكون لقاؤه لهم لقاء جميلا ومعاملته إياهم معاملة حسنة
وقال مودة الاخوان أن لا تكون لرجاء منفعة أو لدفع مضرة ولكن لصلاح فيه وطباع له
وقال أفضل ما في الإنسان من الخير العقل وأجدر الأشياء أن لا يندم عليه صاحبه العمل الصالح وأفضل ما يحتاج اليه في تدبير الأمور الاجتهاد وأظلم الظلمات الجهل وأوثق الإسار الحرص
وقال من أفضل البر ثلاثة الصدق في الغضب والجود في العسرة والعفو عند المقدرة
وقال من لم يعرف عيب نفسه فلا قدر لنفسه عنده
وقال الفصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطقه له والجاهل منطقه عليه
وقال لا ينبغي للعاقل أن يستخف بثلاثة أقوام السلطان والعلماء والإخوان فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ومن استخف بالعلماء أفسد علبه دينه ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مرؤته
وقال الاستخفاف بالموت أحد فضائل النفس
وقال المرء حقيق له أن يطلب الحكمة ويثبتها في نفسه أولا بأن لا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف ولا يعير أحدا بما هو فيه ولا يغيره الغنى والسلطان وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت وتكون سنته ما لا عيب فيه ودينه ما لا يختلف فيه وحجته ما لا ينتقض
وقال أنفع الأمور للناس القناعة والرضى وأضرها الشره والسخط وإنما يكون كل السرور بالقناعة والرضي وكل الحزن بالشره والسخط
ويحكى عنه فيما كتبه أن أصل الضلال والهلكة لأهله أن يعد ما في العالم من الخير

من عطية الله عز وجل ومواهبه ولا يعد ما فيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكايده ومن افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعتها حتى يجازى بها فكيف يخلص من أعظم الفرية على الله عز وجل أن يجعله سببا للشرور وهو معدن الخير

وقال الخير والشر واصلان إلى أهلهما لا محالة فطوبى لمن جرى وصول الخير اليه وعلى يديه والويل لمن جرى وصول الشر اليه وعلى يديه

وقال الإخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء اثنان أحدهما محبة المرء نفسه في أمر معاده وتهذيبه إياها في العلم الصحيح والعمل الصالح والآخر مودته لأخيه في دين الحق فإن ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده وفي الآخرة بروحه

وقال الغضب سلطان الفظاظة والحرص سلطان الفاقة وهما منشآ كل سيئة ومفسدا كل جسد ومهلكا كل روح

وقال كل شيء يطاق تغييره الا الطباع وكل شيء يقدر على اصلاحه غير الخلق السوء وكل شيء يستطاع دفعه إلا القضاء

وقال الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن لأن هذين خلاء النفس وهذين خلاء البدن

وقال أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة

وقال أدحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجته

وقال من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى فدينه دين الله عز وجل وخصمه شاهد له بفلج حجته ومن كان دينه الإهلاك والفظاظة والأذى فدينه دين الشيطان وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه

وقال الملوك تحتمل الأشياء كلها إلا ثلاثة قدح في الملك وإفشاء للسر وتعرض للحرمة

وقال لا تكن أيها الإنسان كالصبي إذا جاع ضغا ولا كالعبد إذا شبع طغى ولا كالجاهل إذا ملك بغى

وقال لاتشيرن على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة فأما الصديق فتقضي بذلك من واجبه حقه وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك إياه هابك وحسدك وإن صح عقله استحى منك وراجعك

وقال يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة وعلى غريزة الورع الصدق عند الشره وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب

وقال من سره مودة الناس له ومعونتهم إياه وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم

وقال لا يستطيع احد أن يحوز الخير والحكمة ولا أن يخلص نفسه من المعايب إلا أن يكون له ثلاثة أشياء وزير وولي وصديق فوزيره عقله ووليه عفته وصديقه عمله الصالح

وقال كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض فإنه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها وإذا أضاعه أضاع الجميع وقدر ذلك نفسه

وقال لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله

وقال من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء أن يبدلوا العدو صديقا والجاهل عالما والفاجر برا

وقال الصالح من خيره خير لكل أحد ومن يعد خير كل أحد لنفسه خيرا

وقال ليس بحكيم ما لم يعاد الجهل ولا بنور ما لم يمحق الظلمة ولا بطيب ما لم يدفع النتن ولا بصدق ما لم يدحض الكذب ولا بصالح ما لم يخالف الطالح

الفصل الثالث
أصحاب الهياكل والأشخاص
وهؤلاء من فرق الصابئة وقد أدرجنا مقالتهم في المناظرات جملة ونذكرها ههنا تفصيلا
١ – أصحاب الهياكل
اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ولا بد للمتوسط من أن يرى فيتوجه اليه ويتقرب به ويستفاد منه فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع فتعرفوا أولا بيوتها ومنازلها وثانيا مطالعها ومغاربها وثالثا اتصالاتها على اشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها ورابعا تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها وخامسا تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها
فعملوا الخواتيم وتعلموا العزائم والدعوات وعينوا ليوم زحل مثلا يوم السبت وراعوا فيه ساعته الأولى وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصنعته ولبسو اللباس الخاص به وتبخروا ببخوره الخاص ودعوا بدعواته الخاصة به وسألوا حاجتهم منه الحاجة التي تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به فكان يقضي حاجتهم ويحصل في الأكثر مرامهم وكذلك رفع الحاجة التي تختص بالمشترى في يومه وساعته وجميع الإضافات التي ذكرنا اليه وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب وكانوا يسمونها أربابا آلهة والله تعالى هو رب الأرباب وإله الآلهة ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب

وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيات ويتقربون إلى الروحانيات تقربا إلى الباري تعالى لاعتقادهم بأن الهياكل أبدان الروحانيات ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات وهي تتصرف في أبدانها تدبيرا وتصريفا وتحريكا كما نتصرف في أبداننا ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه

ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب وهذه الطلسمات المذكورة في الكتب والسحر والكهانة والتنجيم والتعزيم والخواتيم والصور كلها من علومهم

٢ – أصحاب الأشخاص

وأما أصحاب الأشخاص فقالوا إذا كان لا بد من متوسط يتوسل به وشفيع يتشفع إليه والروحانيات وإن كانت هي الوسائل لكنا إذا لم نرها بالأبصار ولم نخاطبها بالألسن لم يتحقق التقرب إليها إلا بهياكلها ولكن الهياكل قد ترى في وقت ولا ترى في وقت لأن لها طلوعا وأفولا وظهورا بالليل وخفاء بالنهار فلم يصف لنا التقرب بها والتوجه إليها فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا نعكف عليها ونتوسل بها إلى الهياكل فنتقرب بها إلى الروحانيات ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى فنعبدهم * (ليقربونا إلى الله زلفى) *

فاتخذوا أصناما أشخاصا على مثال الهياكل السبعة كل شخص في مقابلة هيكل وراعوا في ذلك جوهر الهيكل أعني الجوهر الخاص به من الحديد وغيره وصوروه بصورته على الهيئة التي تصدر أفعاله عنه وراعوا في ذلك الزمان والوقت والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية من اتصال محمود يؤثر في نجاح المطالب التي تستدعي

منه فتقربوا إليه في يومه وساعته وتبخروا بالبخور الخاص به وتختموا بخاتمه ولبسوا لباسه وتضرعوا بدعائه وعزموا بعزائمه وسألوا حاجتهم منه فيقولون إنه كان يقضي حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب والأوثان

فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب إذ قالوا بإلهيتها كما شرحنا وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان إذ سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية وقالوا * (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) *

٣ – مناظرات إبراهيم الخليل لأصحاب الهياكل وأصحاب الأشخاص وكسره مذاهبهما

وقد ناظر الخليل عليه السلام هؤلاء الفريقين

فابتدأ بكسر مذاهب أصحاب الأشخاص وذلك قوله تعالى * (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) * وتلك الحجة أن كسرهم قولا بقوله * (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) *

ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام لا من غيره كان أكثر الحجج معه وأقوى الإلزامات عليه إذ قال عليه السلام لأبيه آزر * (أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) * وقال * (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع

ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) *
لأنك جهدت كل الجهد واستعملت كل العلم حتى عملت أصناما في مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعا وبصرا وأن تغني عنك وتضر وتنفع وأنت بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها لأنك خلقت سميعا بصيرا نافعا ضارا والآثار السماوية فيك أظهر منها في هذا المتخذ تكلفا والمعمول تصنعا فيالها من حيرة إذ صار المصنوع بيديك معبودا لك والصانع أشرف من المصنوع * (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) *
ثم دعاه إلى الحنيفية الحقة قال * (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا) * * (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) * فلم تقبل حجته القولية فعدل عليه السلام عن القول إلى الكسر للأصنام بالفعل * (فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم) * فقالوا من فعل هذا بآلهتنا قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم كما أفحمهم حيث أحال الفعل منهم وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم وإلا فما كان الخليل كاذبا قط
ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل وكما أراه الله تعالى الحجة على قومه قال * (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) * فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفا له على الروحانيات وهياكلها وترجيحا لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة وتقريرا أن الكمال في الرجال فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل * (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي) * على

ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام * (بل فعله كبيرهم هذا) * وإلا فما كان الخليل عليه السلام كاذبا في هذا القول ولا مشركا في تلك الإشارة
ثم استدل بالأفول الزوال والتغير والانتقال على أنه لا يصلح أن يكون ربا إلها فإن الإله القديم لا يتغير وإذا تغير احتاج إلى مغير هذا لو اعتقدتموه ربا قديما وإلها أزليا ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعا ووسيلة فإن الأفول الزوال يخرجه أيضا عن حد الكمال وعن هذا ما استدل عليهم بالطلوع وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول فأتاهم الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته وذلك أبلغ في الاحتجاج
ثم لما * (رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) * فيا عجبا ممن لا يعرف ربا كيف يقول * (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) * رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون في مدارج البداية
دع هذا كله خلف قاف وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج وعن هذا قال * (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر) * لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك هو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار ويقبلون منه الآثار * (فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) *
قرر مذهب الحنفاء وأبطل مذاهب الصابئة وبين أن الفطرة هي الحنيفية وأن الطهارة فيها وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والخلاص متعلقة بها

وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها وأن الفاتحة والخاتمة والمبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها * (ذلك الدين القيم) * والصراط المستقيم والمنهج الواضح والمسلك اللائح قال الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم * (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) *

الفصل الرابع

الحرنانية

وهم جماعة من الصابئة

١ - مقالات الحرنانية

قالوا إن الصانع المعبود واحد وكثير أما واحد ففي الذات والأول والأصل والأزل وأما كثير فلأنه يتكسر بالأشخاص في رأي العين وهي المدبرات السبعة والأشخاص الأرضية الخيرة العالمة الفاضلة فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته

وقالوا هو أبدع الفلك وجميع ما فيه من الأجرام والكواكب وجعلها مدبرات هذا العالم وهم الآباء والعناصر أمهات والمركبات مواليد والآباء أحياء ناطقون

يؤدون الآثار إلى العناصر فتقبلها العناصر في أرحامها فيحصل من ذلك المواليد ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها ويحصل له مزاج كامل الاستعداد فيتشخص الإله به في العالم

ثم إن طبيعة الكل تحدث في كل إقليم من الأقاليم المسكونة على رأس كل ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة زوجين من كل نوع من أجناس الحيوانات ذكرا وأنثى من الإنسان وغيره فيبقى ذلك النوع تلك المدة ثم إذا انقضى الدور بتمامه انقطعت الأنواع نسلها وتوالدها فيبتدىء دور آخر ويحدث قرن آخر من الإنسان والحيوان والنبات وكذلك أبد الدهر قالوا وهذه هي القيامة الموعودة على لسان الأنبياء عليهم السلام وإلا فلا دار سوى هذه الدار * (وما يهلكنا إلا الدهر) * ولا يتصور إحياء الموتى وبعث من في القبور * (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون) *

وهم الذين أخبر التنزيل عنهم بهذه المقالة

١ - نشأة التناسخ والحلول منهم

وإنما نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم

فإن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية فالراحة والسرور والفرح والدعة التي نجدها هي مرتبة على أعمال البر التي سلفت منا

في الأدوار الماضية والغم والحزن والضنك والكلفة التي نجدها هي مرتبة على أعمال الفجور التي سبقت منا
وكذا كان في الأول وكذا يكون في الآخر والانصرام من كل وجه غير متصور من الحكيم
وأما الحلول فهو التشخص الذي ذكرناه وربما يكون ذلك بحلول ذاته وربما يكون بحلول جزء من ذاته على قدر استعداد مزاج الشخص
وربما قالوا إنما تشخص بالهياكل السماوية كلها وهو واحد وإنما يظهر فعله في واحد واحد بقدر آثاره فيه وتشخصه به
فكأن الهياكل السبعة أعضاؤها السبعة وكأن أعضاءنا السبعة هياكله السبعة فيها يظهر فينطق بلساننا ويبصر بأعيننا ويسمع بآذاننا ويقبض ويبسط بأيدينا ويجيء ويذهب بأرجلنا ويفعل بجوارحنا
٣ – مزاعم الحرنانية
وزعموا أن الله تعالى أجل من أن يخلق الشرور والقبائح والأقذار والخنافس والحيات والعقارب بل هي كلها واقعة ضرورة عن اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة
واجتماعات العناصر صفوة وكدورة فما كان من سعد وخير وصفو فهو المقصود من الفطرة فينسب إلى الباري تعالى وما كان من نحوسة وشر وكدر فهو الواقع ضرورة فلا ينسب إليه بل هي إما اتفاقيات وضروريات وإما مستندة إلى أصل الشرور والاتصال المذموم
والحرنانية ينسبون مقالهتم إلى عاذيمون وهرمس وأعيانا وأواذي أربعة أنبياء

ومنهم من ينتسب إلى سولون جد أفلاطون لأمه ويزعم أنه كان نبيا وزعموا ان أواذي حرم عليهم البصل والكراث والباقلا
والصابئون كلهم يصلون ثلاث صلوات ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت وحرموا أكل الجزور والخنزير والكلب ومن الطير كل ما له مخلب والحمام
ونهوا عن السكر في الشراب وعن الاختتان وأمروا بالتزويج بولي وشهود ولا يجوزون الطلاق إلا بحكم حاكم ولا يجمعون بين امرأتين
وأما الهياكل التي بناها الصابئة على أسماء الجواهر العقلية الروحانية وأشكال الكواكب السماوية
فمنها هيكل العلة الأولى ودونها هيكل العقل وهيكل السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس مدورات الشكل
وهيكل زحل مسدس وهيكل المشتري مثلث وهيكل المريخ مربع مستطيل وهيكل الشمس مربع وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع وهيكل عطارد مثلث في جوفه مربع مستطيل وهيكل القمر مثمن

الباب الثاني
الفلاسفة
الفلسفة باليونانية محبة الحكمة والفيلسوف هو فيلاوسوفا وفيلا هو المحب وسوفا الحكمة أي هو محب الحكمة
والحكمة قولية وفعلية
أما الحكمة القولية وهي العقلية أيضا فهي كل ما يعقله العاقل بالحد وما يجري مجراه مثل الرسم والبرهان وما يجري مجراه مثل الاستقراء فيعبر عنه بهما
وأما الحكمة الفعلية فكل ما يفعله الحكيم لغاية كمالية
فالأول الأزلي لما كان هو الغاية والكمال فلا يفعل فعلا لغاية دون ذاته وإلا فيكون الغاية والكمال هو الحامل والأول محمول وذلك محال
فالحكمة في فعله وقعت تبعا لكمال ذاته وذلك هو الكمال المطلق في الحكمة وفي فعل غيره من المتوسطات وقعت مقصودا للكمال المطلوب وكذلك في أفعالنا
ثم إن الفلاسفة اختلفوا في الحكمة القولية العقلية اختلافا لا يحصى كثرة والمتأخرون منهم خالفوا الأوائل في أكثر المسائل وكانت مسائل الأولين محصورة في الطبيعيات والإلهيات وذلك هو الكلام في الباري تعالى والعالم ثم زادوا فيها الرياضيات
وقالوا العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام علم ما وعلم كيف وعلم كم فالعلم الذي يطلب فيه ماهيات الأشياء هو العلم الإلهي والعلم الذي يطلب فيه كيفيات الأشياء هو العلم

الطبيعي والعلم الذي يطلب فيه كميات الأشياء هو العلم الرياضي سواء كانت الكميات مجردة عن المادة أو كانت مخالطة بعد فأحدث بعدهم أرسطوطاليس الحكيم علم المنطق وسماه تعليمات وإنما هو جرده من كلام القدماء وإلا فلم تخل الحكمة عن قوانين المنطق قط وربما عدها آلة العلوم لا من جملة العلوم فقال

الموضوع في العلم الإلهي هو الوجود المطلق ومسائله البحث عن أحوال الوجود من حيث هو وجود

والموضوع في العلم الطبيعي هو الجسم ومسائله البحث عن أحوال الجسم من حيث هو جسم

والموضوع في العلم الرياضي هو الأبعاد والمقادير وبالجملة الكمية من حيث أنها مجردة عن المادة ومسائله البحث عن أحوال الكمية من حيث هي كمية

والموضوع في العلم المنطقي هو المعاني التي في ذهن الإنسان من حيث يتأدى بها إلى غيرها من العلوم ومسائله البحث عن أحوال تلك المعاني من حيث هي كذلك

قالت الفلاسفة ولما كانت السعادة هي المطلوبة لذاتها وإنما يكدح الإنسان لنيلها والوصول اليها وهي لا تنال الا بالحكمة فالحكمة تطلب إما ليعمل بها وإما لتعلم فقط فانقسمت الحكمة إلى قسمين عملي وعلمي

ثم منهم من قدم العملي على العلمي ومنهم من أخر كما سيأتي فالقسم العملي هو عمل الخير والقسم العلمي هو علم الحق قالوا وهذان القسمان مما يوصل اليه بالعقل الكامل والراي الراجح غير أن الاستعانة في القسم العملي منه بغيره أكثر والانبياء عليهم السلام أيدوا بأمداد روحانية تقريرا للقسم العملي ولطرف ما من القسم العلمي والحكماء تعرضوا لأمداد عقلية تقريرا للقسم العلمي ولطرف ما من القسم العملي فغاية الحكيم هو أن يتجلى لعقله كل الكون ويتشبه بالإله الحق تعالى وتقدس بغاية الإمكان وغاية النبي أن يتجلى له نظام الكون فيقدر على ذلك مصالح العامة حتى يبقى نظام العالم وتنتظم مصالح العباد وذلك لا يتأتى الا بترغيب وترهيب وتشكيل وتخييل

فكل ما ورد به أصحاب الشرائع والملل مقدر على ما ذكرناه عند الفلاسفة الا من أخذ علمه من مشكاة النبوة فإنه ربما بلغ إلى حد التعظيم لهم وحسن الاعتقاد في كمال درجاتهم

فمن الفلاسفة

حكماء الهند من البراهمة لا يقولون بالنبوات أصلا

ومنهم حكماء العرب وهم شرذمة قليلون لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر وربما قالوا بالنبوات

ومنهم حكماء الروم وهم منقسمون إلى القدماء الذين هم أساطين الحكمة والى المتأخرين وهم المشاءون وأصحاب الرواق وأصحاب أرسطوطاليس وإلى فلاسفة الإسلام الذين هم حكماء العجم وإلا فلم ينقل عن العجم قبل الإسلام مقالة في الفلسفة إذ حكمهم كلها كانت متلقاة من النبوات إما من الملة القديمة وإما من سائر الملل غير أن الصابئة كانوا يخلطون الحكمة بالصبوة

فنحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم واليونانيين على الترتيب الذي نقل في كتبهم ونعقب ذلك بذكر سائر الحكماء إن شاء الله تعالى

فإن الأصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم وغيرهم كالعيال لهم

الفصل الأول
الحكماء السبعة
الذين هم أساطين الحكمة من الملطية وساميا وأثينة وهي بلادهم
وأما أسماؤهم فهي تاليس الملطي وأنكساغورس وأنكسيمانس وأنبادقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون
وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس وبقراط وديمقريطيس والشعراء والنساك
وإنما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى وإحاطته علما بالكائنات كيف هي وفي الإبداع وتكوين العالم وأن المبادئ الأول ما هي وكم هي وأن المعاد ما هو ومتى هو وربما تكلموا في الباري تعالى بنوع حركة وسكون
وقد أغفل المتأخرون من فلاسفة الإسلام ذكرهم وذكر مقالاتهم رأسا إلا نكتة شاذة نادرة ربما اعترت على أبصارهم وأفكارهم وإشاروا إليها تزييفا ونحن تتبعناها وتعقبناها نقدا وألقينا زمام الاختيار إليك في المطالعة والمناظرة بين كلام الأوائل والأواخر
١ – رأي تاليس
وهو أول من تفلسف في ملطية قال إن للعالم مبدعا لا تدرك صفته العقول من جهة هويته وإنما يدرك من جهة آثاره وهو الذي لا يعرف أسمه فضلا عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء فلسنا ندرك له إسما من نحو ذاته بل من نحو ذاتنا

ثم قال إن القول الذي لا مرد له هو أن المبدع كان ولا شيء مبدع فأبدع الذي أبدع ولا صورة له عنده في الذات لأن قبل الإبداع إنما هو فقط وإذا كان هو فقط فليس يقال حينئذ جهة وجهة حتى يكون هو وصورة أو حيث وحيث حتى يكون هو وذو صورة والوحدة الخالصة تنافى هذين الوجهين

والإبداع هو تأييس ماليس بأيس وإذا كان هو مؤيس الأيسيات والتأييس لا من شيء متقادم فمؤيس الأشياء لا يحتاج إلى أن يكون عنده صورة الأيس بالأيسية وإلا فقد لزمه إن كانت الصورة عنده أن يكون منفردا عن الصورة التي عنده فيكون هو وصورة وقد بينا انه قبل الإبداع إنما هو فقط

وأيضا فلو كانت الصورة عنده أكانت مطابقة للموجود الخارج أم غير مطابقة فإن كانت مطابقة فلتتعدد الصور بعدد الموجودات ولتكن كلياتها مطابقة للكليات وجزئياتها مطابقة للجزئيات ولتتغير بتغيرها كما تكترث بتكثرها وكل ذلك محال لأنه ينافي الوحدة الخالصة وإن لم تطابق الموجود الخارج فليست إذن صورة عنه بل إنما هي شيء آخر

وقال لكنه أبدع العنصر الذي فيه صور الموجودات والمعلومات كلها فانبعث من كل صورة موجود في العالم على المثال الذي في العنصر الأول فمحل الصور ومنبع الموجودات كلها هو ذات العنصر

وما من موجود في العالم العقلي والعالم الحسي إلا وفي ذات العنصر صورة له ومثال عنه

قال ومن كمال ذات الأول الحق أنه ابدع مثل هذا العنصر فما يتصوره العامة في ذاته تعالى أن فيها الصور يعني صور المعلومات فهو في مبدعه ويتعالى الأول الحق بوحدانيته وهويته عن أن يوصف بما يوصف به مبدعه ومن العجب أنه نقل عنه أن

المبدع الأول هو الماء قال الماء قابل لكل صوره ومنه ابدع الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما وهو علة كل مبدع وعلة كل مركب من العنصر الجسماني فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض ومن انحلاله تكون الهواء ومن صفوة الهواء تكونت النار ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه بالشوق الحاصل اليه قال والماء ذكر والأرض أنثى وهما يكونان سفلا والنار ذكر والهواء انثى وهما يكونان علوا

وكان يقول إن هذا العنصر الذي هو أول وهو آخر أي هو المبدأ وهو الكمال هو عنصر الجسمانيات والجرميات لا أنه عنصر الروحانيات البسيطة ثم إن هذا العنصر له صفو وكدر فما كان من صفوه فإنه يكون جسما وما كان من كدره فإنه يكون جرما فالجرم يدثر والجسم لا يدثر والجرم كثيف ظاهر والجسم لطيف باطن وفي النشأة الثانية يظهر الجسم ويدثر الجرم ويكون الجسم اللطيف ظاهرا والجرم الكثيف داثرا

وكان يقول إن فوق السماء عوالم مبدعة لا يقدر المنطق أن يصف تلك الأنوار ولا يقدر العقل أن يقف على إدراك ذلك الحس والبهاء وهي مبدعة من عنصر لا يدرك غوره ولا يبصر نوره والمنطق والنفس والطبيعة تحته ودونه وهو الدهر المحض من نحو آخره لا من نحو اوله وإليه تشتاق العقول والأنفس وهو الذي سميناه الديمومة والسرمد والبقاء في حد النشأة الثانية

فظهر بهذه الإشارات أنه إنما أراد بقوله الماء هو المبدع الأول أي هو مبدأ التركيبات الجسمانية لا المبدأ الأول في الموجودات العلوية لكنه لما أعتقد أن العنصر الأول هو قابل

كل صورة أي منبع الصور كلها فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلها ولم يجد عنصرا على هذا النهج مثل الماء فجعله المبدع الأول في المركبات وأنشأ منه الأجسام والأجرام السماوية والأرضية

وقال في التوراة في السفر الأول منها أن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ثم نظر إليه نظرة الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السموات وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال وكأن تاليس الملطي إنما تلقى مذهبه من هذه المشكاة النبوية

والذي أثبته من العنصر الأول الذي هو منبع الصور شديد الشبه باللوح المحفوظ المذكور في الكتب الإلهية إذ فيه جميع أحكام المعلومات وصور جميع الموجودات والخبر عن الكائنات

والماء على القول الثاني شديد الشبه بالماء الذي عليه العرش * (وكان عرشه على الماء) *

٢ - رأي أنكساغورس

وهو أيضا من أهل ملطية رأى في الوحدانية مثل ما رأى تاليس وخالفه في المبدأ

الأول قال إن مبدأ الموجودات هو جسم أول متشابه الأجزاء وهي أجزاء لطيفة لا يدركها الحس ولا ينالها العقل منها كون الكون كله العلوي منه والسفلي لأن المركبات مسبوقة بالبسائط والمختلفات أيضا مسبوقة بالمشابهات أليست المركبات كلها إنما امتزجت وتركبت من العناصر وهي بسائط متشابهة الأجزاء وأليس الحيوان والنبات وكل ما يغتذي فإنما يغتذي من أجزاء متشابهة أو غير متشابهة فتجتمع في المعدة فتصير متشابهة ثم تجري في العروق والشرايين فتستحيل أجزاء مختلفة مثل الدم واللحم والعظم

وحكى عنه أيضا أنه وافق سائر الحكماء في المبدأ الأول إنه العقل الفعال غير أنه خالفهم في قوله إن الأول الحق تعالى ساكن غير متحرك وسنشرح القول في السكون والحركة له تعالى ونبين اصطلاحهم في ذلك

وحكى فرفوريوس عنه أنه قال إن أصل الأشياء جسم واحد موضوع الكل لا نهاية له ولم نبين ما ذلك الجسم أهو من العناصر أم خارج عن ذلك قال ومنه تخرج جميع الأجسام والقوة الجسمانية والأنواع والأصناف

وهو أول من قال بالكمون والظهور حيث قدر الأشياء كلها كامنة في الجسم الأول وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم نوعا وصنفا ومقدارا وشكلا وتكاثفا وتخلخلا كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة والإنسان الكامل الصورة من النطفة المهينة والطير من البيض فكل ذلك ظهور عن كمون وفعل عن قوة وصورة عن استعداد مادة وإنما الإبداع واحد ولم يكن بشيء آخر سوى ذلك الجسم الأول

وحكي عنه أنه قال كانت الأشياء ساكنة ثم إن العقل رتبها ترتيبا على أحسن نظام فوضعها مواضعها من عال ومن سافل ومن متوسط ثم من متحرك ومن ساكن ومن مستقيم في الحركة ومن دائر ومن أفلاك متحركة على الدوران ومن

عناصر متحركة على الاستقامة وهذه كلها بهذا الترتيب مظهرات لما في الجسم الأول من الموجودات

ويحكى عنه أن المرتب هو الطبيعة وربما يقول المرتب هو الباري تعالى وإذا كان المبدأ الأول عنده ذلك الجسم فمقتضى مذهبه أن يكون المعاد إلى ذلك الجسم وإذا كانت النشأة الأولى هي الظهور فيقتضي أن تكون النشأة الثانية هي الكمون وذلك قريب من مذهب من يقول بالهيولى الأولى التي حدثت فيها الصور إلا أنه أثبت جسما غير متناه بالفعل هو متشابه الأجزاء وأصحاب الهيولى لا يثبتون جسما بالفعل وقد رد عليه الحكماء المتأخرون في إثباته جسما مطلقا لم يعين له صورة سماوية أو عنصرية وفي نفيه النهاية عنه وفي قوله بالكمون والظهور وفي بيانه سبب الترتيب وتعيينه المرتب وإنما عقب مذهبه برأي تاليس لأنهما من أهل ملطية ومتقاربان في إثبات العنصر الأول والصور فيه متمثلة والجسم الأول والموجودات فيه كامنة

وحكى أرسطو طاليس عنه أن الجسم الذي تكون منه الأشياء غير قابل للكثرة قال وأومأ إلى أن الكثرة جاءت من قبل الباري تعالى وتقدس

٣ – رأي أنكسيمانس

وهو من الملطيين المعروف بالحكمة المذكور بالخير عندهم قال إن الباري تعالى أزلي لا أول له ولا آخر

هو مبدأ الأشياء ولا بدء له هو المدرك من خلقه أنه هو فقط وأنه لا هوية تشبهه وكل هوية فمبدعة منه هو الواحد ليس كواحد الأعداد لأن واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر وكل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورته في علمه الأول والصور عنده بلا نهاية

قال ولا يجوز في الباري تعالى إلا أحد قولين إما أن نقول إنه أبدع ما في علمه وإما أن نقول إنما أبدع أشياء لا يعلمها وهذا من القول المستشنع وإن قلنا أبدع ما في علمه فالصور أزلية بأزليته وليس تتكثر ذاته بتكثر المعلومات ولا تتغير بتغيرها قال أبدع بوحدانيته صورة العنصر ثم صورة العقل انبعث عنها ببدعة الباري تعالى فرتب العنصر في العقل ألوان الصور على قدر ما فيها من طبقات الأنوار وأصناف الآثار وصارت تلك الطبقات صورا كثيرة دفعة واحدة كما تحدث الصور في المرآة الصقيلة بلا زمان ولا ترتيب بعض على بعض غير أن الهيولى لا تحمل القبول دفعة واحدة إلا بترتيب وزمان فحدثت تلك الصور فيها على الترتيب ولم يزل الأمر كذلك في العالم بعد العالم على قدر طبقات تلك العوالم حتى قلت أنوار الصور في الهيولى وقلت الهيولى وصارت منها هذه الصورة الرذلة الكثيفة التي لم تقبل نفسا روحانية ولا نفسا حيوانية ولا نباتية وكل ما هو على قبول حياة وحس فهو يعد في آثار تلك الأنوار

وكان يقول إن هذا العالم يدثر ويدخله الفساد والعدم من أجل أنه سفل تلك العوالم وثقلها ونسبتها إليه نسبة اللب إلى القشر والقشر يرمى قال وإنما ثبات هذا العالم بقدر ما فيه من قليل نور ذلك العالم وإلا لما ثبت طرفة عين ويبقى ثباته إلى أن يصفي العقل جزأه الممتزج به وإلى أن تصفي النفس جزأها المختلط فيه فإذا صفي الجزآن عنه دثرت أجزاء هذا العالم وفسدت وبقيت مظلمة قد عدمت ذلك القليل من النور فيها وبقيت الأنفس الدنسة الخبيثة في هذه الظلمة بلا نور ولا سرور ولا روح ولا راحة ولا سكون ولا سلوة

ونقل عنه أيضا أن أول الأوائل من المبدعات هو الهواء ومنه تكون جميع ما تكون في العالم من الأجرام العلوية والسفلية

قال ما كون من صفو الهواء المحض لطيف روحاني لا يدثر ولا يدخل عليه الفساد

ولا يقبل الدنس والخبث وما كون من كدر الهواء كثيف جسماني يدثر ويدخله الفساد ويقبل الدنس والخبث فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه وذلك عالم الروحانيات وما دون الهواء من العوالم فهو من كدره وذلك عالم الجسمانيات وهو كثير الأوساخ والأوضار يتشبث به من سكن إليه فيمنعه من أن يرتفع علوا ويتخلص منه من لم يسكن إليه فيصعد إلى عالم كثير اللطافة دائم السرور ولعله جعل الهواء أول الأوائل لموجودات العالم الجسماني كما جعل العنصر أول الأوائل لموجودات العالم الروحاني

وهو على مثال مذهب تاليس إذ أثبت العنصر والماء في مقابلته وهو قد أثبت العنصر والهواء في مقابلته ونزل العنصر منزلة القلم الأول والعقل منزلة اللوح القابل لنقش الصور ورتب الموجودات على ذلك الترتيب وهو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس وبعبارات القوم التبس

٤ – رأي أنبادقليس

وهو من الكبار عند الجماعة دقيق النظر في العلوم رقيق الحال في الأعمال وكان في زمن داود النبي عليه السلام مضى إليه وتلقى منه العلم واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ثم عاد إلى يونان وأفاد قال إن الباري تعالى لم تزل هويته فقط وهو العلم المحض وهو الإرادة المحضة وهو الجود والعزة والقدرة والعدل والخير والحق لا أن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء بل هي هو وهو هذه كلها مبدع فقط لا أنه أبدع من شيء ولا أن شيئا كان معه فأبدع الشيء البسيط الذي هو أول البسائط المعقول وهو العنصر الأول ثم كسر الأشياء المبسوطة من ذلك المبدع البسيط الواحد الأول ثم كون المركبات من المبسوطات

وهو مبدع الشيء واللاشيء العقلي والفكري والوهمي أي مبدع المتضادات

والمتقابلات المعقولة والخيالية والحسية وقال إن الباري تعالى أبدع الصور لا بنوع إرادة مستأنفة بل بنوع أنه علة فقط وهو العلم والإرادة فإذا كان المبدع إنما أبدع الصور بنوع أنه علة لها فالعلة ولا معلول وإلا فالمعلول مع العلة معية بالذات فإن جاز أن يقال إن معلولا مع العلة فالمعلول حينئذ ليس هو غير العلة وأن يكون المعلول ليس أولى بكونه معلولا من العلة ولا العلة بكونها علة أولى من المعلول فالمعلول إذن تحت العلة وبعدها والعلة علة العلل كلها أي علة كل معلول تحتها فلا محالة أن المعلول لم يكن مع العلة بجهة من الجهات البتة وإلا فقد بطل اسم العلة والمعلول فالمعلول الأول هو العنصر والمعلول الثاني هو بتوسطه العقل والثالث بتوسطهما النفس وهذه بسائط ومتوسطات وما بعدها مركبات

وذكر أن المنطق لا يعبر عما عند العقل لأن العقل أكبر من المنطق من أجل أنه بسيط والمنطق مركب والمنطق يتجزأ والعقل يتحد ويحد فيجمع المتجزئات فليس للمنطق إذن أن يصف الباري تعالى إلا صفة واحدة وذلك أنه هو ولا شيء من هذه العوالم بسيط ولا مركب فإذا كان هو ولا شيء فقد كان الشيء واللاشيء مبدعين

ثم قال أنبادقليس العنصر الأول بسيط من نحو ذات العقل الذي هو دونه وليس هو بسيطا مطلقا أي واحدا بحتا من نحو ذات العلة فلا معلول إلا وهو مركب تركيبا عقليا أو حسيا فالعنصر في ذاته مركب من المحبة والغلبة وعنهما أبدعت الجواهر البسيطة الروحانية والجواهر المركبة الجسمانية فصارت المحبة والغلبة صفتين أو صورتين للعنصر مبدأين لجميع الموجودات فانطبعت الروحانيات كلها على المحبة الخالصة والجسمانيات كلها على الغلبة والمركبات منهما على طبيعتي المحبة والغلبة والازدواج والتضاد وبمقدارهما في المركبات تعرف مقادير الروحانيات في الجسمانيات قال ولهذا المعنى ائتلفت المزدوجات بعضها ببعض نوعا بنوع وصنفا بصنف واختلفت المتضادات فتنافر بعضها عن بعض نوعا عن نوع وصنفا عن صنف

فما كان فيها من الائتلاف والمحبة فمن الروحانيات وما كان فيها من الاختلاف والغلبة فمن الجسمانيات وقد يجتمعان في نفس واحدة بإضافتين مختلفتين

وربما أضاف المحبة إلى المشتري والزهرة والغلبة إلى زحل والمريخ فكأنهما تشخصتا بالسعدين والنحسين
ولكلام أنبادقليس مساق آخر قال إن النفس النامية قشر للنفس البهيمية الحيوانية والنفس الحيوانية قشر للنفس المنطقية والمنطقية قشر للعقلية وكل ما هو أسفل فهو قشر لما هو أعلى والأعلى لبه وربما يعبر عن القشر واللب بالجسد والروح فيجعل النفس النامية جسدا للنفس الحيوانية وهذه روحا لها وعلى ذلك حتى ينتهي إلى العقل
قال لما صور العنصر الأول في العقل ما عنده من الصور المعقولة الروحانية وصور العقل في النفس ما استفاد من العنصر صورت النفس الكلية في الطبيعة الكلية ما استفادت من العقل فحصلت قشور في الطبيعة لا تشبهها ولا هي شبيهة بالعقل الروحاني اللطيف فلما نظر العقل إليها وأبصر الأرواح واللبوب في الأجسام والقشور ساح عليها من الصور الحسنة الشريفة البهية وهي صور النفوس المشاكلة للصور العقلية اللطيفة الروحانية حتى يدبرها ويتصرف فيها بالتمييز بين القشور واللبوب فيصعد باللبوب إلى عالمها فكانت النفوس الجزئية أجزاء للنفس الكلية كأجزاء الشمس المشرقة على منافذ البيت والطبيعة الكلية معلولة للنفس وفرق بين الجزء وبين الطبيعة فالجزء غير المعلول
ثم قال وخاصية النفس الكلية المحبة لأنها لما نظرت إلى العقل وحسنه وبهائه أحبته حب وامق عاشق لمعشوقه فطلبت الاتحاد به وتحركت نحوه
وخاصية الطبيعة الكلية الغلبة لأنها لما توحدت لم يكن لها نظر وبصر تدرك بهما النفس والعقل وتعشقهما بل انبجست منهما قوى متضادة أما في بسائطها فمتضادات الأركان وأما في مركباتها فمتضادات القوى المزاجية والطبيعية والنباتية والحيوانية والطبيعية تمردت عليها لبعدها من العلة بكونها معلولة عن كليتها وطاوعتها الأجزاء النفسانية مغترة بعالمها الغرار الغدار فركنت إلى لذات حسية من مطعم مرى ومشرب هنى وملبس طري ومنكح شهي ونسيت ما قد طبعت عليه من ذلك البهاء والحسن والكمال

الروحاني النفساني العقلي فلما رأت النفس الكلية تمردها واغترارها أهبطت إليها جزءا من أجزائها هو أزكى وألطف وأشرف من هاتين النفسين البهيمية والنباتية ومن تلك النفوس المغترة بهما فيكسر النفسين عن تمردهما ويجبب إلى النفوس المغترة عالمها ويذكرها بما نسيت ويعلمها ما جهلت ويطهرها مما تدنست فيه ويزكيها عما تنجست به وذلك الجزء الشريف هو النبي المبعوث في كل دور من الأدوار فيجري على سنن العقل والعنصر الأول من رعاية المحبة والغلبة فيتألف بعض النفوس بالحكمة والموعظة الحسنة ويشدد على بعضها بالقهر والغلبة

فتارة يدعو باللسان من جهة المحبة لطفا وتارة يدعو بالسيف من جهة الغلبة عنفا فيخلص النفوس الجزئية الشريفة التي اغترت بتمويهات النفسين المزاجيتين عن التمويه الباطل والتسويل الزائل الفائل وربما يكسو النفسين السافلتين كسوة النفس الشريفة فتنقلب الصفة الشهوية إلى المحبة فتغلب محبة الخير والحق والصدق وتنقلب الصفة الغضيبة إلى الغلبة فتغلب الشر والباطل والكذب فتصعد النفس الجزئية الشريفة إلى عالم الروحانيين بهما جميعا فكونان جسدا لها في ذلك العالم كما كانتا جسدا لها في هذا العالم وقد قيل إذا كانت الدولة والجد لأحد أحبه أشكاله فيغلب بمحبتهم له أضداده ومما نقل عن أنبادقليس أنه قال العالم مركب من الأسطقسات الأربعة فإنه

ليس وراءها شيء أبسط منها وأن الأشياء كامنة بعضها في بعض وأبطل الكون والاستحالة والنمو وقال الهواء لا يستحيل نارا ولا الماء هواء ولكن ذلك بتكاثف وتخلخل وبكمون وظهور وتركب وتحلل وإنما التركب في المركبات بالمحبة يكون والتحلل في المتحللات بالغلبة يكون

ومما نقل عنه أيضا أنه تكلم في الباري تعالى بنوع حركة وسكون فقال إنه متحرك بنوع سكون لأن العقل والعنصر متحركان بنوع سكون وهو مبدعهما ولا محالة أن المبدع أكبر لأنه علة كل متحرك وساكن وشايعه على هذا الرأي فيثاغورس ومن بعده من الحكماء إلى أفلاطون وأما زينون الأكبر وديمقريط والشاعريون فصاروا إلى أنه تعالى متحرك وقد سبق النقل عن أنكساغورس أنه قال هو ساكن لا يتحرك لأن الحركة لا تكون إلا محدثة ثم قال إلا أن تقولوا إن تلك الحركة فوق هذه الحركة كما أن ذلك السكون فوق هذا السكون

وهؤلاء ما عنوا بالحركة والسكون النقلة عن مكان واللبث في مكان ولا بالحركة التغير والاستحالة ولا بالسكون ثبات الجوهر والدوام على حالة واحدة فإن الأزلية والقدم تنافي هذه المعاني كلها

ومن يحترز ذلك الاحتراز عن التكثير فكيف يجازف هذه المجازفة في التغير فأما الحركة والسكون في العقل والنفس فإنما عنوا بهما الفعل والانفعال وذلك أن العقل لما كان موجودا كاملا بالفعل قالوا هو ساكن واحد مستغن عن حركة يصير بها فاعلا والنفس لما كانت ناقصة متوجهة إلى الكمال قالوا هي متحركة طالبة درجة العقل ثم قالوا العقل ساكن بنوع حركة أي هو في ذاته كامل بالفعل فاعل يخرج النفس من القوة إلى الفعل والفعل نوع حركة في سكون والكمال نوع سكون في حركة أي هو كامل ومكمل غيره فعلى هذا المعنى يجوز على قضية مذهبهم إضافة الحركة والسكون إلى الباري تعالى

ومن العجب أن مثل هذا الاختلاف قد وجد في أرباب الملل حتى صار بعض إلى أنه تعالى مستقر في مكان ومستو على مكان وذلك إشارة إلى السكون وصار بعض إلى أنه يجيء ويذهب وينزل ويصعد وذلك عبارة عن الحركة إلا أن يحمل على معنى صحيح لائق بجناب القدس حقيق بجلال الحق

ومما نقل عن أبناد قليس في أمر المعاد أنه قال يبقى هذا العالم على الوجه الذي عهدناه من النفوس التي تشبثت بالطبائع والأرواح التي تعلقت بالشباك حتى تستغيث في آخر الأمر إلى النفس الكلية التي هي كلها فتتضرع النفس إلى العقل ويتضرع العقل إلى الباري تعالى فيسيح الباري تعالى على العقل ويسيح العقل على النفس وتسيح النفس على هذا العالم بكل نورها فتستضيء الأنفس الجزئية وتشرق الأرض بنور ربها حتى تعاين الجزئيات كلياتها فتتخلص من الشبكة فتتصل بكلياتها وتستقر في عالمها مسرورة محبورة * (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) *

٥ – رأي فيثاغورس
ابن منسارخس من أهل ساميا وكان في زمان سليمان النبي ابن داود عليهما السلام قد أخذ الحكمة من معدن النبوة وهو الحكيم الفاضل ذو الرأي المتين والعقل الرصين يدعى أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحدسه وبلغ في الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ووصل إلى مقام الملك وقال ما سمعت شيئا قط ألذ من حركاتها ولا رأيت أبهى من صورها وهيئاتها
قوله في الالهيات
قال إن الباري تعالى واحد لا كالآحاد ولا يدخل في العدد ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس فلا الفكر العقلي يدركه ولا المنطق النفسي يصفه فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله وكل عالم من العوالم يدركه بقدر الآثار التي تظهر فيه صنعته فينعته ويصفه بذلك القدر الذي يخصه من صنعته فالموجودات في العالم الروحاني قد خصت بآثار خاصة روحانية فتنعته من حيث تلك الآثار والموجودات في العالم الجسماني قد خصت بآثار خاصة جسمانية فتنعته من حيث تلك الآثار ولا نشك أن هداية الحيوان مقدرة على الآثار التي جبل الحيوان عليها وهداية الإنسان مقدرة على الآثار التي فطر الإنسان عليها فكل يصفه من نحو ذاته ويقدسه عن خصائص صفاته
ثم قال الوحدة تنقسم إلى وحدة غير مستفادة من الغير وهي وحدة الباري تعالى وحدة الإحاطة بكل شيء وحدة الحكم على كل شيء وحدة تصدر عنها الآحاد في الموجودات والكثرة فيها وإلى وحدة مستفادة من الغير وذلك وحدة المخلوقات

وربما يقول الوحدة على الإطلاق تنقسم إلى وحدة قبل الدهر ووحدة مع الدهر ووحدة بعد الدهر وقبل الزمان ووحدة مع الزمان فالوحدة التي هي قبل الدهر هي وحدة الباري تعالى والوحدة التي هي مع الدهر هي وحدة العقل الأول والوحدة التي هي بعد الدهر وقبل الزمان هي وحدة النفس والوحدة التي هي مع الزمان هي وحدة العناصر والمركبات

وربما يقسم الوحدة قسمة أخرى فيقول الوحدة تنقسم إلى وحدة بالذات وإلى وحدة بالعرض فالوحدة بالذات ليست إلا للمبدع للكل الذي منه تصدر الوحدانيات في العدد والمعدود والوحدة بالعرض تنقسم إلى ما هو مبدأ العدد وليس داخلا في العدد وإلى ما هو مبدأ للعدد وهو داخل فيه فالأول كالواحدية للعقل الفعال لأنه لا يدخل في العدد والمعدود والثاني ينقسم إلى ما يدخل فيه كالجزء له فإن الاثنين إنما هو مركب من واحدين وكذلك كل عدد فهو مركب من آحاد لا محالة وحيثما ارتقى العدد إلى أكثر نزلت نسبة الوحدة إليه إلى أقل وإلى ما يدخل فيه كاللازم له لا كالجزء فيه وذلك لأن كل عدد أو معدود لن يخلو قط عن وحدة تلازمه فإن الاثنين والثلاثة في كونهما اثنين وثلاثة واحدة وكذلك المعدودات من المركبات والبسائط واحدة إما في الجنس أو في النوع أو في الشخص كالجوهر في أنه جوهر على الإطلاق والإنسان في أنه إنسان والشخص المعين مثل زيد في أنه ذلك الشخص بعينه واحد فلم تنفك الوحدة من الموجودات قط وهذه وحدة مستفادة من وحدة الباري تعالى تلزم الموجودات كلها وإن كانت في ذواتها متكثرة وإنما شرف كل موجود بغلبة الوحدة فيه فكل ما هو أبعد من الكثرة فهو أشرف وأكمل

ثم إن لفيثاغورس رأيا في العدد والمعدود قد خالف فيه جميع الحكماء قبله وخالفه فيه من بعده وهو أنه جرد العدد عن المعدود تجريد الصورة عن المادة وتصوره موجودا محققا وجرد الصورة وتحققها وقال مبدأ الموجودات هو العدد وهو أول مبدع أبدعه

الباري تعالى فأول العدد هو الواحد وله اختلاف رأي في أنه هل يدخل في العدد أم لا كما سبق وميله الأكثر إلى أنه لا يدخل في العدد فيبتدىء العدد من اثنين
ويقول هو منقسم إلى زوج وفرد فالعدد البسيط الأول اثنان والزوج البسيط الأول أربعة وهو المنقسم بمتساويين ولم يجعل الاثنين زوجا فإنه لو انقسم لكان إلى واحدين وكان الواحد داخلا في العدد ونحن ابتدأنا في العدد من اثنين والزوج قسم من أقسامه فكيف يكون نفسه والفرد البسيط الأول ثلاثة قال وتتم القسمة بذلك وما وراءه فهو
قسمة القسمة فالأربعة هي نهاية العدد وهي الكمال وعن هذا كان يقسم بالرباعية لا وحق الرباعية التي هي تدبر أنفسنا التي هي أصل الكمال وما وراء ذلك فهو زوج الفرد وزوج الزوج وزوج الزوج والفرد
ويسمى الخمسة عددا دائرا فإنها اذا ضربت في نفسها ابداعات الخمسة من الرأس
ويسمى الستة عددا تاما فإن أجزاءها مساوية لجملتها
والسبعة عددا كاملا فإنها مجموع الزوج والفرد وهي نهاية أخرى
والثمانية مبتدأة مركبة من زوجين
والتسعة من ثلاثة أفراد وهي نهاية أخرى
والعشرة من مجموع العدد من الواحد إلى الأربعة وهي نهاية أخرى
فللعدد أربع نهايات أربعة وسبعة وتسعة وعشرة ثم يعود إلى الواحد فيقول أحد عشر ويعد والتركيبات فيما وراء الأربعة على أنحاء ستة
فالخمسة على مذهب من لا يرى الواحد داخلا في العدد فهي مركبة من عدد وفرد وعلى مذهب من يرى ذلك فهي مركبة من فرد وزوجين
وكذلك الستة على الأول فمركبة من فردين أو عدد وزوج وعلى الثاني فمركبة من ثلاثة أزواج
والسبعة على الأول فمركبة من فرد وزوج وعلى الثاني فمركبة من فرد وثلاثة أزواج

والثمانية على الأول فمركبة من زوجين وعلى الثاني فمركبة من أربعة أزواج
والتسعة على الأول فمركبة من ثلاثة أفراد وعلى الثاني فمركبة من فرد وأربعة أزواج
والعشرة على الأول فمركبة من عدد وزوجين أو زوج وفردين وعلى الثاني فما يحسب
من الواحد إلى الأربعة وهو النهاية والكمال ثم الأعداد الأخرى فقياسها هذا القياس قال
وهذه هي أصول الموجودات
ثم إنه ركب العدد على المعدود والمقدار على المقدور فقال المعدود الذي فيه اثنينية
وهو أصل المعدودات ومبدؤها هو العقل باعتبار أن فيه اعتبارين اعتبارا من حيث ذاته
وأنه ممكن الوجود بذاته واعتبارا من حيث مبدعه وأنه واجب الوجود به فقابله الاثنان
والمعدود لذي فيه ثلاثية هو النفس إذ زاد على الإعتبارين إعتبارا ثالثا والمعدود الذي
فيه أربعية هو الطبيعة إذا زاد على الثلاثة رابعا وثم النهاية أعني نهاية المبادىء وما بعدها
المركبات فما من موجود مركب إلا وفيه من العناصر والنفس والعقل شيء إما عين أو
أثر حتى ينتهي إلى السبعة فيقدر المعدودات على ذلك وينتهي إلى العشرة ويعد العقل
والنفوس التسعة بأفلاكها التي هي أبدانها وعقولها المفارقة كالجوهر وتسعة أعراض
وبالجملة إنما يتعرف حال الموجودات من العدد والمقادير الأول ويقول الباري تعالى
عالم بجميع المعلومات على طريق الإحاطة بالأسباب التي هي الأعداد والمقادير وهي
لا تختلف فعلمه لا يختلف
وربما يقول المقابل للواحد هو العنصر الأول كما قال أنكسيمانس ويسميه الهيولي
الأولى وذلك هو الواحد المستفاد لا الواحد الذي هو كالأحاد وهو واحد كل تصدر
عنه كل كثرة وتستفيد الكثرة منه الوحدة التي تلازم الموجودات ولا تفارقها البتة كما
قررنا وذكر أن العنصر انفرد بوحدته ثم أفاضها على الموجودات فلا يوجد موجود إلا
وفيه من وحدته حظ على قدر استعداده ثم من هداية العقل حظ على قدر قبوله ثم من
قوة النفس حظ على قدر تهيئته وعلى ذلك آثار المبادىء في المركبات فإن

كل مركب لا يخلو عن مزاج ما وكل مزاج لا يعزى عن إعتدال ما وكل إعتدال عن كمال أو قوة كمال إما طبيعي آلي وهو مبدأ الحركة وإما عن كمال نفساني هو مبدأ الحس فإذا بلغ المزاج الإنساني إلى حد قبول هذا الكمال أفاض عليه العنصر وحدته والعقل هدايته والنفس نطقه وحكمته

قال ولما كانت التأليفات الهندسية مرتبة على المعادلات العددية عددناها أيضا من المبادىء فصارت طائفة من الفيثاغوريين إلى أن المبادىء هي التأليفات الهندسية على مناسبات عددية ولهذا صارت المتحركات السماوية ذات حركات متناسبة لحينه هي أشرف الحركات وألطف التأليفات ثم تعدوا من ذلك إلى الأقوال حتى صارت طائفة منهم إلى أن المبادىء هي الحروف والحدود المجردة عن المادة وأوقعوا الألف في مقابلة الواحد والباء في مقابلة الاثنين إلى غير ذلك من المتقابلان

ولست أدري على أي لسان ولغة قدروها فإن الألسن تختلف باختلاف الأمصار والمدن أو على أي وجه من التركيب فإن التركيبات أيضا مختلفة فالبسائط من الحروف مختلف فيها والمركبات كذلك ولا كذلك العدد فإنه لا يختلف أصلا

وصارت جماعة منهم إلى أن مبدأ الجسم هو الأبعاد الثلاثة والجسم مركب عنها وأوقعوا النقطة في مقابلة الواحد والخط في مقابلة الاثنين والسطح في مقابلة الثلاثة والجسم في مقابلة الأربعة وراعوا هذه المقابلات في تراكيب الأجسام وتضاعيف الأعداد

ومما ينقل عن فيثاغورس أن الطبائع أربعة والنفوس التي فينا أيضا أربعة العقل والعلم والرأي والحواس ثم ركب فيه العدد على المعدود والروحاني على الجسماني

قال الرئيس أبو علي الحسين بن سينا وأمثل ما يحمل عليه هذا القول أن يقال كون الشيء واحدا غير كونه موجودا أو إنسانا وهو في ذاته أقدم منهما فالحيوان الواحد لا يحصل واحدا إلا وقد تقدمه معنى الوحدة الذي صار به واحدا ولولاه لم يصح وجوده

فإذن هو الأشرف الأبسط الأول وهذه صورة العقل فالعقل يجب أن يكون الواحد من هذه الجهة والعلم دون ذلك في الرتبة لأنه بالعقل ومن العقل فهو كالاثنين الذي يفتقر إلى الواحد ويصدر منه وكذلك العلم يئول إلى العقل ومعنى الظن والرأي عدد السطح والحس عدد المصمت أن السطح لكونه ذا ثلاث جهات هو طبيعة الظن الذي هو أعم من العلم مرتبة وذلك لأن العلم يتعلق بمعلوم معين والظن والرأي ينجذب إلى الشيء ونقيضه والحس أعم من الظن فهو المصمت أي الجسم له أربع جهات

ومما نقل عن فيثاغورس أن العالم إنما ألف من اللحون البسيطة الروحانية ويذكر أن الأعداد الروحانية غير منقطعة بل أعداد متحدة تتجزأ من نحو العقل ولا تتجزأ من نحو الحواس وعد عوالم كثيرة فمنه عالم هو سرور محض في أصل الإبداع وابتهاج وروح في وضع الفطرة ومنه عالم هو دونه ومنطقها ليس مثل منطق العوالم العالية فإن المنطق قد يكون باللحون الروحانية البسيطة وقد يكون باللحون الروحانية المركبة

والأول يكون سرورها دائما غير منقطع ومن اللحون ما هو بعد ناقص في التركيب لأن المنطق بعد لم يخرج إلى الفعل فلا يكون السرور بغاية الكمال لأن اللحن ليس بغاية الإتفاق

وكل عالم فهو دون الأول بالرتبة وتتفاضل العوالم بالحسن والبهاء والرتبة والأخير ثقل العوالم وثقلها وسفلها ولذلك لم يجتمع كل الإجتماع ولم تتحد الصورة بالمادة كل الإتحاد وجاز على كل جزء منه الإنفكاك عن الجزء الآخر إلا أن فيه نورا قليلا من النور الأول فلذلك النور وجد فيه نوع ثبات ولولا ذلك لم يثبت طرفة عين وذلك النور القليل جسم النفس والعقل الحامل لهما في هذا العالم

وذكر أن الإنسان بحكم الفطرة واقع في مقابلة العالم كله وهو عالم صغير والعالم إنسان كبير ولذلك صار حظه من النفس والعقل أوفر فمن أحسن تقويم نفسه وتهذيب أخلاقه وتزكية أحواله أمكنه أن يصل إلى معرفة العالم وكيفية تأليفه ومن ضيع نفسه ولم يقم

بمصالحها من التهذيب والتقويم خرج من عداد العدد والمعدود وانحل عن رباط القدر والمقدور وصار ضياعا هملا

وربما يقول النفس الإنسانية تأليفات عددية أو لحنية ولهذا ناسبت النفس مناسبات الألحان والتذت بسماعها وطاشت وتواجدت باستماعها وجاشت ولقد كانت قبل اتصالها بالأبدان قد أبدعت من تلك التأليفات العددية الأولى ثم اتصلت بالأبدان فإن كانت التهذيبات الخلقية على تناسب الفطرة وتجردت النفوس عن المناسبات الخارجة اتصلت بعالمها وانخرطت في سلكها على هيئة أجمل وأكمل من الأول فإن التأليفات الأولى قد كانت ناقصة من وجه حيث كانت بالقوة وبالرياضة والمجاهدة في هذا العالم بلغت إلى حد الكمال خارجة من حد القوة إلى حد الفعل قال والشرائع التي وردت بمقادير الصلوات والزكوات وسائر العبادات هي لإيقاع هذه المناسبات في مقابلة تلك التأليفات الروحانية وربما يبالغ في تقرير التأليف حتى يكاد يقول ليس في العالم سوى التأليف والأجسام والأعراض تأليفات والنفوس والعقول تأليفات

ويعسر كل العسر تقرير ذلك نعم تقدير التأليف على المؤلف والتقدير على المقدر أمر يهتدى إليه ويعول عليه

وكان خرينوس وزينون الشاعر متابعين لفيثاغورس على رأيه في المبدع والمبدع إلا أنهما قالا الباري تعالى أبدع النفس والعقل دفعة واحدة ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسطهما وفي بدء ما أبدعهما أبدعهما لا يموتان ولا يجوز عليهما الدثور والفناء وذكرا أن النفس إذا كانت طاهرة زكية من كل دنس صارت في العالم الأعلى إلى مسكنها الذي يشاكلها ويجانسها وكان الجسم الذي هو من النار والهواء جسمها في ذلك العالم مهذبا من كل ثقل وكدر

فأما الجرم الذي من الماء والأرض فإن ذلك يدثر ويفنى لأنه غير مشاكل للجسم السماوي لأن الجسم السماوي لطيف لا وزن له ولا يلمس فالجسم في هذا العالم مستبطن في الجرم لأنه أشد روحانية وهذا العالم لا يشاكل الجسم بل الجرم يشاكله

فكل ما هو مركب والأجزاء النارية والهوائية عليه أغلب كانت الجسمية أغلب وكل ما هو مركب والأجزاء المائية والأرضية عليه أغلب كانت الجرمية أغلب وهذا العالم عالم الجرم وذلك العالم عالم الجسم فالنفس في ذلك العالم تحشر في بدن جسماني لا جرماني دائما لا يجوز عليه الفناء والدثور ولذته تكون دائمة لا تملها الطباع والنفوس وقيل لفيثاغورس لم قلت بإبطال العالم قال لأنه يبلغ العلة التي من أجلها كان فإذا بلغها سكنت حركته وأكثر اللذات العلوية هي التأليفات اللحنية وذلك كما يقال التسبيح والتقديس غذاء الروحانيين وغذاء كل موجود هو مما خلق منه ذلك الموجود

وأما هيراقليطس وأباسيس قد كانا من الفيثاغوريين وقالا إن مبدأ الموجودات هو النار فما تكاثف منها ة وتحجر فهو الأرض وما تحلل من الأرض بالنار صار ماء وما تخلخل من الماء بالنار صار هواء وما تخلخل من الهواء بحرارة النار صار نارا فالنار مبدأ وبعدها الأرض وبعدها الماء وبعدها الهواء وبعدها النار والنار هي المبدأ وإليها المنتهى فمنها التكون وإليها الفساد

وأما أبيقورس الذي تفلسف في أيام ديقريطيس فكان يرى أن مبادىء الموجودات أجسام تدرك عقلا وهي كانت تتحرك من الخلاء في الخلاء وزعم أن الخلاء لا نهاية له وكذلك الأجسام لا نهاية لها إلا أن لها ثلاثة أشياء الشكل والعظم والثقل

وديمقرايطس كان يرى أن لها شيئين الشكل والعظم فقط وذكر أن تلك الأجسام لا تتجزأ أي لا تنفعل ولا تثكثر وهي معقولة أو متوهمة غير محسوسة فاصطكت تلك الأجزاء في حركاتها اضطرارا واتفاقا فحصل من اصطكاكها صور هذا العالم وأشكالها وتحركت على أنحاء من جهات التحرك وذلك هو الذي يحكي عنهم أنهم قالوا بالإتفاق فلم يثبتوا لها صانعا أوجب الاصطكاك وأوجد هذه الصور وهؤلاء

قد أثبتوا الصانع وأثبتوا سبب حركات تلك الجواهر وأما اصطكاكها فقد قالوا فيها بالإتفاق فلزمهم حصول العالم بالإتفاق والخبط

وكان لفيثاغورس تلميذان رشيدان

يدعى أحدهما فلنكس ويعرف بمرزنزش قد دخل فارس ودعا الناس إلى حكمة فيثاغورس وأضاف حكمته إلى مجوسية القوم ويدعى الآخر قلانوس دخل الهند ودعا الناس إلى حكمة فيثاغورس أيضا وأضاف حكمته إلى برهمية القوم إلا أن المجوس كما يقال أخذوا جسمانية قوله والهند أخذوا روحانية قوله

ومما أخبر عنه فيثاغورس وأوصى به

قال إني عاينت هذه العوالم العلوية بالحس بعد الرياضة البالغة وارتفعت عن عالم الطبائع إلى عالم النفس وعالم العقل فنظرت إلى ما فيها من الصور المجردة وما لها من الحسن والبهاء والنور وسمعت ما لها من اللحون الشريفة والأصوات الشجية الروحانية

وقال إن ما في هذا العالم يشتمل على مقدار يسير من الحسن لكونه معلول الطبيعة وما فوقه من العوالم أبهى وأشرف وأحسن إلى أن يصل الوصف إلى عالم النفس والعقل فيقف فلا يمكن المنطق وصف ما فيها من الشرف والكرم والحسن والبهاء فليكن حرصكم واجتهادكم على الإتصال بذلك العالم حتى يكون بقاؤكم ودوامكم طويلا بعد ما نالكم من الفساد والدثور وتصيرون إلى عالم هو حسن كله وبهاء كله وسرور كله وعز وحق كله ويكون سروركم ولذتكم دائمة غير منقطعة

وقال من كانت الوسائط بينه وبين مولاه أكثر فهو في رتبة العبودية أنقص وإذا كان البدن مفتقرا في مصالحه إلى تدبير الطبيعة وكانت الطبيعة مفتقرة في تأدية أفعالها إلى تدبير النفس وكانت النفس مفتقرة في إختيارها الأفضل إلى إرشاد العقل ولم يكن فوق العقل فاتح إلا الهداية الإلهية فبالحرى أن يكون المستعين بصريح العقل في كافة المصارف

مشهودا له بفطنه إلاكتفاء بمولاه وأن يكون التابع لشهوة البدن المنقاد لدواعي الطبيعة المواتى لهوى النفس بعيدا عن مولاه ناقصا في رتبته

٦ – رأي سقراط

سقراط بن سفرنيسقوس الحكيم الفاضل الزاهد من أهل أثينية وكان قد اقتبس الحكمة من فيثاغورس وأرسالاوس واقتصر من اصنافها على الإلهيات والأخلاقيات واشتغل بالزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملذات الدنيا واعتزل إلى الجبل وأقام في غاربه

ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان فثوروا عليه الغاغة وألجأوا ملكهم إلى قتله فحبسه الملك ثم سقاه السم وقضيته معروفة

قال سقراط إن الباري تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا والمسمى لكل موجود إسما فكيف يقدر المسمى أن يسميه إسما وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله وهي أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته وذلك مثل قولنا إله أي واضع كل شيء وخالق أي مقدر كل شيء وعزيز أي ممتنع أن يضام وحكيم أي محكم أفعاله على النظام وكذلك سائر الصفات

وقال إن علمه وقدرته وجوده وحكمته بلا نهاية ولا يبلغ العقل أن يصفها ولو وصفها لكانت متناهية فألزم عليه إنك تقول إنها بلا نهاية ولا غاية وقد نرى الموجودات متناهية فقال إنما تناهيها بحسب إحتمال القوابل لا بحسب القدرة والحكمة والجود ولما كانت المادة لم تحتمل صورا بلا نهاية فتناهت الصور لا من جهة بخل في الواهب بل لقصوره في المادة وعن هذا اقتضت الحكمة الإلهية أنها وإن تناهت ذاتا وصورة وحيزا ومكانا إلا أنها لا تتناهى زمانا في آخرها إلا من نحو أولها وإن لم يتصور بقاء شخص فاقتضت الحكمة استبقاء الأشخاص ببقاء الأنواع وذلك بتجدد أمثالها ليستحفظ الشخص ببقاء النوع ويستبقي النوع بتجدد الأشخاص فلا تبلغ القدرة إلى حد النهاية ولا الحكمة تقف على غاية

ثم إن من مذهب سقراط أن أخص ما يوصف به الباري تعالى هو كونه حيا قيوما لأن العلم والقدرة والجود والحكمة تندرج تحت كونه حيا والحياة صفة جامعة للكل والبقاء والسرمد والدوام وحفظ النظام في العالم تندرج تحت كونه قيوما والقيومية

صفة جامعة للكل وربما يقول هو حي ناطق من جوهره أي من ذاته وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد ولا يتطرق إلى حياته ونطقه تعالى وتقدس

وحكى فلوطرخيس في المبادىء أنه قال أصول الأشياء ثلاثة وهي العلة الفاعلة والعنصر والصورة فالله تعالى هو الفاعل والعنصر هو الموضوع الأول للكون والفساد والصورة جوهر لا جسم وقال الطبيعة أمة للنفس والنفس أمة للعقل والعقل أمة للمبدع الأول من أجل أن أول مبدع أبدعه المبدع الأول صورة العقل وقال المبدع لا غاية له ولا نهاية وما ليس له نهاية ليس له شخص وصورة وقال اللانهاية في سائر الموجودات لو تحققت لكان لها صورة واقعة ووضع وترتيب

وما تحقق له صورة ووضع وترتيب صار متناهيا فالموجودات ليست بلا نهاية والمبدع الأول ليس بذي نهاية ليس على أنه ذاهب في الجهات بلا نهاية كما يتخيله الخيال والوهم بل لا يرتقي إليه الخيال حتى يصفه بنهاية ولا نهاية فلا نهاية له من جهة العقل إذ ليس يحده ولا من جهة الحس فليس يحده فهو ليس له نهاية فليس له شخص وصورة خيالية أو وجودية حسية أو عقلية تعالى وتقدس

ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود إما متصلة بكلها وإما متمايزة بذواتها وخواصها فاتصلت بالأبدان استكمالا وإستدامة والأبدان قوالبها وآلاتها فتبطل الأبدان وترجع النفوس إلى كليتها وعن هذا كان يخوف بالملك الذي حبسه أنه يريد قتله قال إن سقراط في حب والملك لا يقدر إلا على كسر الحب فالحب يكسر ويرجع الماء إلى البحر

ولسقراط أقاويل في مسائل الحكمة العلمية والعملية

ومما اختلف فيه فيثاغورث وسقراط أن الحكمة قبل الحق أم الحق قبل الحكمة وأوضح القول فيه بأن الحق أعم من الحكمة إلا أنه قد يكون جليا وقد يكون خفيا وأما الحكمة فهي أخص من الحق إلا أنها لا تكون إلا جلية فإذن الحق مبسوط في العالم مشتمل على الحكمة المستفيضة في العالم والحكمة موضحة للحق المبسوط في العالم والحق ما به الشيء والحكمة ما لأجله الشيء

ولسقراط أيضا ألغاز ورموز إلى تلميذه أرسجانس وجلها في كتاب فاذن ونحن نوردها مرسلة معقودة

منها قوله عندما فتشت عن علة الحياة ألفيت الموت وعندما وجدت الموت ألفيت الحياة الدائمة

ومنها اسكت عن الضوضاء التي في الهواء وتكلم بالليالي حيث لا تكون أعشاش الخفافيش واسدد الخمس الكوى ليضيء مسكن العلة واملأ الوعاء طيبا وأفرغ الحوض المثلث من القلال الفارغة واحبس على باب الكلام وأمسك مع الحضرة اللجام الرخو لئلا تغضب فترى نظام الكواكب ولا تؤكل الأسود الذئب ولا تجاوز الميزان ولا تسوطن النار بالسكين ولا تجلس على المكيال ولا تشم التفاحة وأمت الحي تحي بموته وكن قاتله بالسكين المزينة لوالديه واحذر الأسود ذا الأربع ومن جهة العلة كن أرنبا وعند الموت لا تكن نملة وعندما تذكر دوران الحياة أمت الميت لتكون ذاكرا وكن صديق مفضض ولا تكن صديق شرطي ولا تكن مع أصدقائك قوسا ولا تنعس على أبواب أعدائك واثبت على ينبوع واحد متكئا على يمينك وينبغي أن تعلم أنه ليس زمان من الأزمنة يفقد فيه زمان الربيع وافحص عن ثلاث سبل فإذا لم تجدها فارض بأن تنام لها نوم المستغرق واضرب الأترجة بالرمانة واقتل العقرب بالصوم وإن أحببت أن تكون ملكا فكن حمار وحش وليست السبعة بأكمل من الواحد وبالأثني عشر اقتن اثني عشر وازرع بالأسود واحصد بالأبيض ولا تسلبن إلا كليل

ولا تهتكه ولا تقفن راضيا بعدمك للخير وأنت موجود ذلك لك في أربعة وعشرين مكانا وإن سألك سائل أن تعطيه من هذا الغذاء فميزه وإن كان مستحقا للغذاء المرىء فأعطه وإن احتاج إلى غذاء يمينك فاصنعه لأن اللون الذي يطلب كذلك من كمال الغذاء فهو للبالغين

وقال يكفي من تأجج النار نورها

وقال له رجل من أين لك أن هذا المشار إليه واحد فقال إني لا أعلم أن الواحد بالإطلاق غير محتاج إلى الثاني فمتى فرضته قرينا للواحد كنت كواضع مالا يحتاج إليه البتة إلى جانب ما لا بد منه البتة

وقال الإنسان له مرتبة واحدة من جهة حده وثلاث مراتب من جهة هيئته

وقال للقلب آفتان الغم والهم فالغم يعرض منه النوم والهم يعرض منه السهر

وقال الحكمة إذا أقبلت خدمت الشهوات والعقول وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات

وقال لا تكرهوا أولادكم على آثاركم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم

وقال ينبغي أن تغتم بالحياة وتفرح بالموت لأنا نحيا لنموت ونموت لنحيا

وقال قلوب المغرقين في المعرفة بالحقائق منابر الملائكة وبطون الملذذين بالشهوات قبور الحيوانات الهالكة

وقال للحياة حدان أحدهما الأمل والثاني الأجل فبالأول بقاؤها وبالأخر فناؤها

وقال النفس الناطقة جوهر بسيط ذو سبع قوى يتحرك بها حركة مفردة وحركات مختلفة

فأما حركتها المفردة فإذا تحركت نحو ذاتها ونحو العقل وأما حركاتها المختلفة فإذا تحركت نحو الحواس الخمس

واليونانيون بنوا ثلاثة أبيات على طوالع مقبولة
أحدها بيت بأنطاكية على جبلها وكانوا يعظمونه ويقربون القرابين فيه وقد خرب
والثاني من جملة الأهرام التي بمصر بيت كانت فيه أصنام تعبد وهي التي نهاهم سقراط عن عبادتها
والثالث بيت المقدس الذي بناه داود وأتمه سليمان عليهما السلام ويقال إن سليمان هو الذي بناه والمجوس يقولون إن الضحاك بناه وقد عظمه اليونانيون تعظيم أهل الكتاب إياه.
٧ – رأي أفلاطون الإلهي
أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية وهو آخر المتقدمين الأوائل الأساطين معروف بالتوحيد والحكمة ولد في زمان أردشير بن دارا في سنة ست عشرة من ملكه وفي سنة ست وعشرين من ملكه كان حدثا متعلما يتلمذ لسقراط ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه وجلس على كرسيه
وقد أخذ العلم من سقراط وطيماوس والغريبين غريب أثينية وغريب الناطس وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضية
وحكى عنه قوم ممن شاهده وتلمذ له مثل أرسطو طاليس وطيماوس وثاوفرسطيس أنه قال إن للعالم محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا طلل إلا مثالا عند الباري تعالى ربما يعبر عنه بالهيولى وربما يعبر عنه بالعنصر ولعله يشير إلى صور المعلومات

في علمه تعالى قال فأبدع العقل الأول وبتوسطه النفس الكلية وقد انبعث عن العقل انبعاث الصورة في المرآة وبتوسطهما العنصر
ويحكى عنه أن الهيولى التي هي موضوع الصور الحسية غير ذلك العنصر
ويحكى عنه أنه أدرج الزمان في المبادىء وهو الدهر وأثبت لكل موجود مشخص في العالم الحسي مثالا غير مشخص في العالم العقلي ويسمى ذلك المثل الأفلاطونية فالمبادىء الأول بسائط والمثل مبسوطات والأشخاص مركبات فالإنسان المركب المحسوس جزئيء ذلك الإنسان المبسوط المعقول وكذلك كل نوع من الحيوان والنبات والمعادن
قال والموجودات في هذا العالم آثار الموجودات في ذلك العالم ولا بد لكل أثر من مؤثر يشابهه نوعا من المشابهة قال ولما كان العقل الإنساني من ذلك العالم أدرك من المحسوس مثالا منتزعا من المادة معقولا يطابق المثال الذي في عالم العقل بكليته ويطابق الموجود الذي في عالم الحس بجزئيته ولولا ذلك لما كان يدركه العقل مطابقا مقابلا من خارج فما يكون مدركا لشيء يوافق إدراكه حقيقة المدرك
قال والعالم عالمان عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية كالمرآة المجلوة التي تنطبع فيها صور المحسوسات فإن الصور فيها مثل الأشخاص وكذلك العنصر في ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها غير أن الفرق المنطبع في المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس في الحقيقة كذلك وأن المتمثل في المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هي موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور في المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات القائم وهي تتمايز في حقائقها تمايز الأشخاص في ذواتها قال وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية لأن كل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورته

في علم الأول الحق والصور عنده بلا نهاية ولو لم تكن الصور معه في أزليته في علمه لم تكن لتبقى ولو لم تكن دائمة بدوامها لكانت تدثر بدثور الهيولى ولو كانت تدثر مع دثور الهيولى لما كانت على رجاء ولا خوف ولكن لما صارت الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها وإنما تبقى إذا كانت لها صور عقلية في ذلك العالم ترجو اللحوق بها وتخاف التخلف عنها

قال وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا وعقلا ومعقولا وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهي محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات وهي غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فتكون مثلا عقلية

ومما يثبته أفلاطون موجودات محققة بهذا التقسيم قال إنا نجد النفس تدرك أمور البسائط والمركبات ومن المركبات أنواعها وأشخاصها ومن البسائط ما هي هيولانية وهي التي تعرى عن الموضوع وهي رسوم الجزئيات مثل النقطة والخط والسطح والجسم التعليمي

قال وهذه الأشياء أشياء موجودة بذواتها وكذلك توابع الجسم مفردة مثل الحركة والزمان والمكان والأشكال فإنا نلحظها بأذهاننا بسائط مرة ومركبة مرة أخرى ولها حقائق في ذواتها من غير حوامل ولا موضوعات ومن البسائط ما ليست هي هيولانية مثل الوجود والوحدة والجوهر والعقل يدرك القسمين جميعا متطابقين عالمين متقابلين عالم العقل وفيه المثل العقلية التي تطابقها الأشخاص الحسية وعالم الحس وفيه المتمثلات الحسية التي تطابقها المثل العقلية فأعيان ذلك العالم آثار في هذا العالم وأعيان هذا العالم آثار في ذلك العالم وعليه وضع الفطرة والتقدير ولهذا الفصل شرح وتقرير

وجماعة المشائين وأرسطو طاليس لا يخالفونه في إثبات هذا المعنى الكلي إلا أنهم

يقولون هو معنى في العقل موجود في الذهن والكلي من حيث هو كلي لا وجود له في الخارج عن الذهن إذ لا يتصور أن يكون شيء واحد ينطبق على زيد وعلى عمرو وهو في نفسه واحد

وأفلاطون يقول ذلك المعنى الذي أثبته في العقل يجب أن يكون له شيء يطابقه في الخارج فينطبق عليه وذلك هو المثال الذي في العقل وهو جوهر لا عرض إذ تصور وجوده لا في موضوع وهو متقدم على الأشخاص الجزئية تقدم العقل على الحس وهو تقدم ذاتي وشرفي معا

وتلك المثل هي مبادىء الموجودات الحسية منها بدأت وإليها تعود

ويتفرع على ذلك أن النفوس الإنسانية التي هي متصلة بالأبدان إتصال تدبير وتصرف كانت موجودة قبل وجود الأبدان وكان لها نحو من أنحاء الوجود العقلي وتمايز بعضها عن بعض تمايز الصور المجردة عن المادة بعضها عن بعض وخالفه في ذلك تلميذه أرسطو طاليس ومن بعده من الحكماء وقالوا إن النفوس حدثت مع حدوث الأبدان

وقد رأيت في كلام أرسطوطاليس كما ستأتي حكايته أنه ربما يميل إلى مذهب أفلاطون في كون النفس موجودة قبل وجود الأبدان إلا أن نقل المتأخرين ما قدمنا ذكره

وخالفه أيضا في حدوث العالم إن أفلاطون يحيل وجود حوادث لا أول لها لأنك إذا قلت حادث فقد أثبت سبق الأزلية لكل واحد وما ثبت لكل واحد يجب أن يثبت للكل قال وإن صورها لا بد وأن تكون حادثة لكن الكلام في هيولاها وعنصرها فأثبت عنصرا قبل وجودها فظن بعض العقلاء أنه حكم عليه بالأزلية والقدم وهو إذ أثبت واجب الوجود لذاته وأطلق لفظ الإبداع على العنصر فقد أخرجه عن الأزلية بذاته بل يكون وجوده بوجود واجب الوجود كسائر المبادىء التي ليست زمانية

ولا وجودها ولا حدوثها حدوث زماني فالبسائط حدوثها إبداعي غير زماني والمركبات حدوثها بوسائط البسائط حدوث زماني

وقال إن العالم لا يفسد فسادا كليا ويحكى عنه في سؤاله عن طيماوس ما الشيء الذي لا حدوث له وما الشيء الحادث وليس بباق وما الشيء الموجود بالفعل وهو أبدأ بحال واحدة وإنما يعني بالأول وجود الباري تعالى وبالثاني وجود الكائنات الفاسدات التي لا تثبت على حالة واحدة وبالثالث وجود المبادىء والبسائط التي لا تتغير ومن أسئلته ما الشيء الكائن ولا وجود له وما الشيء الموجود ولا كون له وإنما يعني بالأول الحركة المكانية والزمان لأنه لم يؤهله لإسم الوجود ويعني بالثاني الجواهر العقلية التي هي فوق الزمان والحركة والطبيعة وحق لها اسم الوجود إذ لها السرمد والبقاء والدهر

ويحكى عنه أنه قال إن الاسطقسات لم تزل تتحرك حركة مشوهة مضطربة غير ذات نظام وأن الباري تعالى نظمها ورتبها فكان هذا العالم وربما عبر عن الأسطقسات بالأجزاء اللطيفة وقيل إنه عني بها الهيولى الأزلية العارية عن الصور حتى إتصلت الصور والأشكال بها فترتبت وانتظمت

ورأيت في راموز له أنه قال إن النفوس كانت في عالم الذكر مغتبطة مبتهجة بعالمها وما فيه من الروح والبهجة والسرور فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات وتستفيد ما ليس لها بذاتها بواسطة القوى الحسية فسقطت رياشها قبل الهبوط فهبطت حتى يستوي ريشها وتطير إلى عالمها بأجنحة مستفادة من هذا العالم

وحكى أرسطوطاليس عنه أنه أثبت المبادىء خمسة أجناس الجوهر والاتفاق والإختلاف والحركة والسكون ثم فسر كلامه فقال أما الجوهر فنعني به الوجود وأما الإتفاق فلأن الأشياء متفقة بأنها من الله تعالى وأما الإختلاف فلأنها مختلفة في صورها واما الحركة فلأن لكل شيء من الأشياء فعلا خاصا

وذلك نوع من الحركة لا حركة النقلة وإذا تحرك نحو العقل وفعل فله سكون بعد ذلك لا محالة قال وأثبت البخت أيضا مبدأ سادسا وهو نطق عقلي وناموس لطبيعة الكل وقال جرجيس إنه قوة روحانية مدبرة للكل وبعض الناس يسميه جدا وزعم الرواقيون أنه نظام لعلل الأشياء وللأشياء المعلولة

وزعم بعضهم أن علل الأشياء ثلاثة المشتري والطبيعة والبخت

وقال أفلاطون إن في العالم طبيعة عامة تجمع الكل وفي كل واحد من المركبات طبيعة خاصة وحد الطبيعة بأنها مبدأ الحركة والسكون في الأشياء أي مبدأ التغير وهي قوة سارية في الموجودات كلها تكون السكنات والحركات بها فطبيعة الكل محركة للكل والمحرك الأول يجب أن يكون ساكنا وإلا تسلسل القول فيه إلى ما لا نهاية له

وحكى أرسطو طاليس في مقالة الألف الكبرى من كتاب ما بعد الطبيعة أن أفلاطون كان يختلف في حداثته إلى أقراطيلوس فكتب عنه ما روى عن هرقليطس أن جميع الأشياء المحسوسة فاسدة وأن العلم لا يحيط بها ثم اختلف بعده إلى سقراط وكان من مذهبه طلب الحدود دون النظر في طبائع المحسوسات وغيرها فظن أفلاطون أن نظر سقراط في غير الأشياء المحسوسة لأن الحدود ليست للمحسوسات لأنها إنما تقع على أشياء دائمة كلية أعني الأجناس والأنواع فعند ذلك سمى أفلاطون الأشياء الكلية صورا لأنها واحدة ورأى أن المحسوسات لا تكون إلا بمشاركة الصور إذن كانت الصور رسوما ومثالات لها متقدمة عليها وإنما وضع سقراط الحدود مطلقا لا بإعتبار المحسوس وغير المحسوس وأفلاطون ظن أنه وضعها لغير المحسوسات فأثبتها مثلا عامة

وقال أفلاطون في كتاب النواميس إن الأشياء التي لا ينبغي للإنسان لأن يجهلها منها أن له صانعا وأن صانعه يعلم أفعاله وذكر أن الله تعالى إنما يعرف

بالسلب أي لا شبيه له ولا مثال وأنه أبدع العالم من لا نظام إلى نظام وأن كل مركب فهو إلى الإنحلال وأنه لم يسبق العالم زمان ولم يبدع عن شيء

اختلاف الأوائل في الإبداع والمبدع والإرادة

ثم إن الأوائل اختلفوا في الإبداع والمبدع هل هما عبارتان عن معبر واحد أم للإبداع نسبة إلى المبدع ونسبة إلى المبدع وكذلك الإرادة إنها المراد أم المريد على حسب إختلاف متكلمي الإسلام في الخلق والمخلوق والإرادة إنها خلق أم مخلوقة أم صفة في الخالق

قال أنكساغورس بمذهب فلوطرخيس إن الإرادة ليست هي غير المراد ولا غير المريد وكذلك الفعل لأنهما لا صورة لهما ذاتية وإنما يقومان بغيرهما فالإرادة مرة تكون مستبطنة في المريد ومرة ظاهرة في المراد وكذلك الفعل

وأما أفلاطون وأرسطو طاليس فلا يقبلان هذا القول وقالا إن صورة الإرادة وصورة الفعل قائمتان وهما أبسط من صورة المراد كالقاطع للشيء وهو المؤثر وأثره في الشيء والمقطوع هو المؤثر فيه القابل للأثر

فالأثر ليس هو المؤثر ولا المؤثر فيه وإلا انعكس حتى يكون المؤثر هو الأثر والمؤثر فيه هو الأثر وهو محال فصورة المبدع فاعلة وصورة المبدع مفعولة وصورة الإبداع متوسطة بين الفاعل والمفعول

فللفعل صورة وأثر فصورته من جهة المبدع وأثره من جهة المبدع والصورة من جهة المبدع في حق الباري تعالى ليست زائدة على ذاته حتى يقال صورة ارادة وصورة باري مفترقتان بل هي حقيقة واحدة

وأما برمنيدس الأصغر فإنه أجاز قولهم في الإرادة ولم يجزه في الفعل وقال إن الإرادة

تكون بلا توسط من الباري تعالى فجائز ما وصفوه وأما الفعل فيكون بتوسط منه وليس ما هو بلا توسط كالذي يكون بتوسط بل الفعل قط لن يتحقق إلا بتوسط الإرادة ولا ينعكس

واما الأولون مثل تاليس وأنبدقليس فقد قالوا الإرادة من جهة المبدع هي المبدع ومن جهة المبدع هي المبدع وفسروا هذا بأن الإرادة من جهة الصورة هي المبدع ومن جهة الأثر هي المبدع ولا يجوز أن يقال إنها من جهة الصورة هي المبدع لأن صورة الإرادة عند المبدع قبل أن يبدع فغير جائز أن تكون ذات صورة الشيء الفاعل هي المفعول بل من جهة أثر ذات الصورة هي المفعول ومذهب أفلاطون وأرسطو طاليس هذا بعينه وفي الفصل انغلاق

الفصل الثاني

الحكماء الأصول

الحكماء الأصول الذين هم من القدماء إلا أنا لم نجد لهم رأيا في المسائل المذكورة غير حكم مرسلة عملية أوردناها لئلا تشذ مذاهبهم عن القسمة ولا يخلو الكتاب عن تلك الفوائد

فمنهم الشعراء الذين يستدلون بشعرهم وليس شعرهم على وزن وقافية ولا الوزن والقافية ركن في الشعر عندهم بل الركن في الشعر عندهم إيراد المقدمات المخيلة فحسب

ثم قد يكون الوزن والقافية معينين في التخيل فإن كانت المقدمة التي توردها في القياس الشعري مخيلة فقط تمحض القياس شعريا وإن إنضم إليها قول إقناعي تركبت المقدمة من معنيين شعري وإقناعي وإن كان الضميم إليه قولا يقينيا تركبت المقدمة من شعري وبرهاني

ومنهم النساك ونسكهم وعبادتهم عقلية لا شرعية ويقتصر ذلك على تهذيب نفس عن الأخلاق الذميمة وسياسة المدينة الفاضلة التي هي الجنة الإنسانية
وربما وجدنا لبعضهم رأيا في بعض المسائل المذكورة أعني المبدع والإبداع وأنه عالم وأن أول ما ابدعه ماذا وان المبادىء كم هي وأن المعاد كيف يكون وصاحب الرأي الموافق للأوائل المذكورين أوردنا اسمه وذكرنا مقالته وإن كانت كالمكررة نبتدىء بهم ونجعل فلوطرخيس مبدأ آخر

١ – رأي فلوطرخيس

قيل إنه أول من شهر بالفلسفة ونسبت إليه الحكمة تفلسف بمصر ثم سار إلى ملطية وأقام بها وقد يعد من الأساطين
قال إن الباري تعالى لم يزل بالأزلية التي هي أزلية الأزليات وهو مبدع فقط وكل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورته عنده أي كانت معلومة له فالصور عنده بلا نهاية أي المعلومات بلا نهاية قال ولو لم تكن الصور عنده ومعه لما كان إبداع ولا بقاء للمبدع ولو لم تكن باقية دائمة لكانت تدثر بدثور الهيولى ولو كان ذلك كذلك لإرتفع الرجاء والخوف ولكن لما كانت الصور باقية دائمة ولها الرجاء والخوف كان ذلك دليلا على أنها لا تدثر ولما غدل عنها الدثور ولم يكن له قوة عليها كان ذلك دليلا على أن الصورة أزلية في علمه تعالى قال ولا وجه إلا القول بأحد الأقوال إما أن يقال الباري تعالى لا يعلم شيئا البتة وهذا من المحال الشنيع وإما أن يقال يعلم بعض الصور دون بعض وهذا من النقص الذي لا يليق بكمال الجلال وإما أن يقال يعلم بعض الصور دون بعض وهذا من النقص الذي لا يليق بكمال الجلال وإما أن يقال يعلم جميع الصور والمعلومات وهذا هو الرأي الصحيح
ثم قال إن أصل المركبات هو الماء فإنه إذا تخلخل صافيا وجد نارا وإذا تخلخل وفيه بعض الثقل صار هواء وإذا تكاثف تكاثفا مبسوطا بالغا صار أرضا

وحكى فلوطرخيس أن هرقليطس زعم أن الأشياء إنما إنتظمت بالبخت وجوهر البخت هو نطق عقلي يتفذ في الجوهر الكلي والله سبحانه وتعالى أعلم

٢ – رأي أكسنوفانس

كان يقول إن المبدع الأول هو آنية أزلية دائمة ديمومة القدم لا تدرك بنوع صفة منطقية ولا عقلية مبدع صور كل صفة وكل نعت نطقي وعقلي فإذا كان هذا هكذا فقولنا إن صور ما في العالم المبدعة لم تكن عنده أو كانت أو كيف أبدع ولم أبدع محال لأن العقل مبدع والمبدع مسبوق بالمبدع والمسبوق لا يدرك السابق أبدا فلا يجوز أن يصف المسبوق السابق بل نقول إن المبدع أبدع كيفما أحب وكيفما شاء فهو هو ولا شيء معه قال وهذه الكلمة أعني هو ولا شيء بسيطا ولا مركبا معه وهو مجمع كل ما نطلبه من العلم لأنك إذا قلت ولا شيء معه فقد نفيت عنه أزلية الصورة والهيولى وكل مبدع من صورة وهيولى وكل مبدع من صورة فقط

ومن قال إن الصور أزلية مع آنيته فليس هو فقط بل هو وأشياء كثيرة فليس هو مبدع للصور بل كل صورة إنما أظهرت ذاتها فعند إظهارها ذاتها ظهرت هذه العوالم وهذا أشنع ما يكون من القول

وكان تيرس والقادميون يقولان ليست أوائل البتة ولا معقول قبل المحسوس بحال بل مثل بدعة الأشياء مثل الذي يفرخ من ذاته بلا حدث ولا فعل ظهر فلا يزال يخرجه من القوة إلى الفعل حتى يوجد فيكمل فنحسه وندركه وليس شيء معقول البتة والعالم دائم لا يزول ولا يفنى فإن المبدع لا يجوز أن يفعل فعلا يدثر إلا وهو داثر مع دثور فعله وذلك محال

٣ - رأي زينون الأكبر
زينون الأكبر ابن ماوس من أهل قنطس كان يقول إن المبدع الأول كان في علمه صورة إبداع كل جوهر وصورة دثور كل جوهر فإن علمه غير متناه والصور التي فيه من حيث الإبداع غير متناهية وكذلك صور الدثور غير متناهية فالعوالم تتجدد في كل حين وفي كل دهر فما كان منها مشاكلا لنا أدركنا حدود وجوده ودثوره بالحواس والعقل وما كان غير مشاكل لنا لم ندركه إلا أنه ذكر وجه التجدد فقال إن الموجودات باقية داثرة أما بقاؤها فبتجدد صورها وأما دثورها فبدثور الصورة الأولى عند تجدد الأخرى وذكر أن الدثور قد يلزم الصورة والهيولى معا
وقال أيضا إن الشمس والقمر والكواكب تستمد القوة من جوهر السماء فإذا تغيرت السماء تغيرت النجوم أيضا ثم هذه الصور كلها بقاؤها ودثورها في علم الباري تعالى والعلم يقتضي بقاءها دائما وكذلك الحكمة تقتضي ذلك لأن بقاءها على هذه الحال أفضل والباري تعالى قادر على أن يفنى العوالم يوما ما إن أراد وهذا الرأي قد مال إليه الحكماء المنطقيون الجدليون دون الإلهيين
وحكى فلوطرخيس أن زينون كان يزعم أن الأصول هي الله عز وجل والعنصر فقط فالله هو العلة الفاعلة والعنصر هو المنفعل
حكمه قال أكثروا من الإخوان فإن بقاء النفوس ببقاء الإخوان كما أن شفاء الأبدان بالأدوية
وقيل رأى زينون فتى على شاطىء البحر محزونا يتلهف على الدنيا فقال له يافتى ما يلهفك على الدنيا لو كنت في غاية الغنى وأنت راكب لجة البحر قد انكسرت السفينة وأشرفت على الغرق كانت غاية مطلوبك النجاة وتفوت كل ما في يدك قال نعم قال

لو كنت ملكا على الدنيا وأحاط بك من يريد قتلك كان مرادك النجاة من يده وتفوت كل ملكك قال نعم قال فأنت الغني وأنت الملك الآن فتسلى الفتى

وقال لتلميذه كن بما تأتي من الخير مسرورا وبما تجتنب من الشر محبورا

وقيل له أي الملوك أفضل ملك اليونانيين أم ملك الفرس قال من ملك غضبه وشهوته

وسئل بعد أن هرم ما حالك قال هو ذا أموت قليلا قليلا على مهل وقيل له إذا مت من يدفنك قال من يؤذيه نتن جيفي

وسئل مال الذي يهرم قال الغضب والحسد وأبلغ منهما الغم وقال الفلك تحت تدبيري ونعى إليه إبنه فقال ما ذهب ذلك على إنما ولدت ولدا يموت وما ولدت ولدا لا يموت

وقال لا تخف موت البدن ولكن يجب عليك أن تخاف موت النفس فقيل له لم قلت خف موت النفس والنفس الناطقة عندك لا تموت فقال إذا انتقلت النفس الناطقة من حد النطق إلى حد البهيمية وإن كان جوهرها لا يبطل فقد ماتت من العيش العقلي

وقال أعط الحق من نفسك فإن الحق يخصمك إن لم تعطه حقه

وقال محبة المال وتد الشر لأن سائر الآفات تتعلق بها ومحبة الشهوات وتد العيوب لأن سائر العيوب متعلقة بها

وقال أحسن مجاورة النعم فتنعم بها ولا تسيء بها فتسيء بك

وقال إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته وإذا أدركها الطالب لها قتلته

وقيل له وكان لا يقتني إلا قوت يومه إن الملك يبغضك فقال وهل يحب الملك من هو أغنى منه

وسئل بأي شيء يخالف الناس في هذا الزمان البهائم قال بالشرور
قال وما رأينا العقل قط إلا خادما للجهل وفي رواية للسجزى إلا خادما للجد والفرق بينهما ظاهر فإن الطبيعة ولوازمها إذا كانت مستولية على العقل استخدمه الجهل وإذا كان ما قسم للإنسان من الخير والشر فوق تدبيره العقلي كان الجد مستخدما للعقل ويعظم جد الإنسان ما يعقل وليس يعظم العقل ما يجد ولهذا خيف على صاحب الجد ما لم يخف على صاحب العقل والجد أصم أخرس لا يفقه ولا ينفه وإنما هو ريح تهب وبرق يلمع ونار تلوح وصحو يعرض وحلم يمتع وهذا اللفظ أولى فإنه عم الحكم فقال ما رأينا العقل قط وقد يعرض للعقل أن يرى ولا يستخدمه الجهل وذلك هو الأكثر
وقال زينون في الجرادة خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس وعنقها عنق ثور وصدرها صدر أسد وجناحاها جناحا نسر ورجلاها رجلا جمل وبطنها بطن عقرب وذنبها ذنب حية هكذا ذكره زينون
٤ – رأي ديمقريطيس وشيعته
كان يقول في المبدع الأول إنه ليس هو العنصر فقط ولا العقل فقط بل الأخلاط الأربعة وهي الأسطقسات أوائل الموجودات كلها ومنا أبدعت الأشياء البسيطة كلها دفعة واحدة وأما المركبة فإنها كونت دائمة داثرة إلا أن ديمومتها بنوع ودثورها بنوع ثم إن العالم بجملته باق غير داثر لأنه ذكر أن هذا العالم متصل بذلك العالم الأعلى كما أن عناصر هذه الأشياء متصلة بلطيف أرواحها الساكنة فيها والعناصر وإن كانت تدثر في الظاهر فإن صفوها من الروح البسيط الذي فيها فإذا كان كذلك فليس يدثر إلا من جهة الحواس فأما من نحو العقل فإنه ليس يدثر فلا يدثر هذا العالم إذا كان صفوها فيه وصفوه بالعوالم البسيطة وإنما شنع عليه الحكماء من جهة قوله إن أول

مبدع هو العناصر وبعدها أبدعت البسائط الروحانية فهو يرتقي من الأسفل إلى الأعلى ومن الأكدر إلى الأصفى
ومن شيعته فليوخوس إلا أنه خالفه المبدع الأول وقال بقول سائر الحكماء غير أنه قال إن المبدع الأول هو مبدع الصورة فقط دون الهيولى فإنها لم تزل مع المبدع
فأنكروا عليه وقالوا إن الهيولى لو كانت أزلية قديمة لما قبلت الصور ولما تغيرت من حال إلى حال ولما قبلت فعل غيرها إذ الأزلي لا يتغير وهذا الرأى مما كان يعزى الى أفلاطون الإلهي والرأي في نفسه مزيف والعزوة إليه غير صحيحة ومما نقل عن ديمقريطس وزينون الأكبر وفيثاغوروس أنهم كانوا يقولون إن الباري تعالى متحرك بحركة فوق هذه الحركة الزمانية وقد أشرنا إلى المذهبين وبينا المراد بإضافة الحركة والسكون إلى الله تعالى ونزيده شرحا من إحتجاج كل فريق على صاحبه
قال أصحاب السكون إن الحركة لا تكون أبدا إلا ضد السكون والحركة لا تكون إلا بنوع زمان أو ماض وإما مستقبل والحركة لا تكون إلا مكانية إما منتقلة وإما مستوية ومن المستوية تكون الحركة المستقيمة والحركة المعوجة والمكانية تكون مع الزمان فلو كان الباري تعالى متحركا لكان داخلا في الدهر والزمان
قال أصحاب الحركة إن حركته أعلى من جميع ما ذكرتموه وهو مبدع الدهر والمكان وإبداعه ذلك هو الذي يعني بالحركة والله أعلم
٥ – رأي فلاسفة أقاديما
كانوا يقولون إن كل مركب ينحل ولا يجوز أن يكون مركبا من جوهرين متفقين في جميع الجهات وإلا فليس بمركب فإذا كان هذا هكذا فلا محالة أنه إذا إنحل المركب رحل كل جوهر فاتصل بالأصل الذي كان منه فما كان منها بسيطا روحانيا لحق بعالمه

الروحاني البسيط والعالم الروحاني باق غير داثر وما كان جاسيا غليظا لحق بعالمه أيضا وكل جاس إذا إنحل فإنما يرجع حتى يصل إلى ألطف من كل لطيف فإذا لم يبق من اللطافة شيء اتحد باللطيف الأول المتحد به فيكونان متحدين إلى الأبد وإذا اتحدت الأواخر بالأوائل وكان الأول هو أول مبدع ليس بينه وبين مبدعه جوهر آخر متوسط فلا محالة أن ذلك المبدع الأول متعلق بنور مبدعه فيبقى خالدا دهر الدهور وهذا الفصل أيضا قد نقل عنهم وهو يتعلق بالمعاد لا بالمبدأ وهؤلاء يسمون مشائي أقاديما وأما المشاءون المطلق فهم أهل لوقيون وكان أفلاطون يلقن الحكمة ماشيا تعظيما لها وتابعه على ذلك أرسطو طاليس ويسمى هو وأصحابه المشائين وأصحاب الرواق هم أهل المظال وكان لأفلاطون تعليمان تعليم كليس وهو الروحاني الذي لا يدرك
بالبصر ولكن بالفكر اللطيف وتعليم كأيس وهو الهيولانيات والله الموفق للصواب

٦ – رأي هرقل الحكيم

كان يقول إن الباري تعالى هو النور الحق الذي لا يدرك من جهة عقولنا لأنها أبدعت من ذلك النور الأول الحق وهو اسم الله حقا وهو إسم الله باليونانية حقا
إنها تدل عليه إنه مبدع للكل وهذا الإسم عندهم شريف جدا
وكان يقول إن بدء الخلق وأول شيء أبدع والذي هو أول لهذه العوالم هو المحبة والمنازعة ووافق في هذا الرأي أنبادقليس حيث قال الأول الذي أبدع هو المحبة والغلبة وقال هرقل السماء كرة متحركة من ذاتها والأرض مستديرة ساكنة جامدة بذاتها والشمس حللت كل ما فيها من الرطوبة فاجتمعت فيها فصار البحر والذي حجرت الشمس ونفذت فيه حتى لم تذر فيه شيئا من الرطوبة صار منه الحصى والحجارة والجبل وما لم تنفذ فيه الشمس أكثر ولم تنزع عنه الرطوبة كلها فهو التراب

وكان يقول إن السماء في النشأة الأخرى تصير بلا كواكب لأن الكواكب تهبط سفلا حتى تحيط بالأرض وتلتهب فيصير متصلا بعضها ببعض حتى تكون كالدائرة حول الأرض وإنما يهبط منها ما كان من أجزائها نارا محضة ويصعد منها ما كان نورا محضا فتبقى النفوس الشريرة الدنسة الخبيثة في هذا العالم الذي أحاط به النار إلى الأبد في عقاب السرمد وتصعد النفوس الشريفة الخالصة الطيبة إلى العالم الذي تمحض نورا وبهاء وحسنا في ثواب السرمد وهناك الصور الحسان لذات للبصر والألحان الشجية لذات للسمع ولأنها أبدعت بلا توسط مادة وتركب أسطقسات فهي جواهر شريفة روحانية نورانية وقال إن الباري تعالى يمسح تلك الأنفس في كل دهر مسحة فيتجلى لها حتى تنظر إلى نوره المحض الخارج من جوهره الحق فحينئذ يشتد عشقها وشوقها ونورها ومجدها فلا تزال كذلك ذائما أبد الأبد

٧ – رأي أبيقورس

خالف الأوائل في الأوائل قال المبادىء اثنان الخلاء والصورة أما الخلاء فمكان فارغ وأما الصورة فهي فوق المكان والخلاء ومنها أبدعت الموجودات وكل ما كون منها فإنه ينحل إليها فمنها المبدأ وإليها المعاد

وربما يقول الكل يفسد وليس بعد الفراق حساب ولا قضاء ولا مكافأة ولا جزاء بل كلها تضمحل وتدثر والإنسان كالحيوان مرسل مهمل في هذا العالم

والحالات التي ترد على الأنفس في هذ العالم كلها من تلقائها على قدر حركاتها وأفاعيلها فإن فعلت خيرا وحسنا فيرد عليها سرور وفرح وإن فعلت شرا وقبيحا فيرد عليها حزن وترح وإنما سرور كل نفس بالأنفس الأخرى وكذا حزنها مع الأنفس الأخرى بقدر ما يظهر لها من أفاعيلها

وتبعه جماعة من التناسخية على هذا الرأي

٨ - حكم سولون الشاعر
وكان عند الفلاسفة من الأنبياء العظام بعد هرمس وقبل سقراط وأجمعوا على تقديمه والقول بفضائله
قال سولون لتلميذه تزود من الخير وأنت مقبل خير لك من أن تتزود منه وأنت مدبر
وقال من فعل خيرا فليجتنب ما خالفه وإلا دعي شريرا
وقال إن أمور الدنيا حق وقضاء فمن أسلف فليقض ومن قضى فقد وفى
وقال إذا عرضت لك فكرة سوء فادفعها عن نفسك ولا ترجع باللائمة على غيرك لكن لم رأيك بما أحدث عليك
وقال إن فعل الجاهل في خطابه أن يذم غيره وفعل طالب الأدب أن يذم نفسه وفعل الأديب أن لا يذم نفسه ولا غيره
وقال إذا انكب الدن وأريق الشراب وانكسر الإناء فلا تغتم بل قل كما أن الأرباح لا تكون إلا فيما يباع ويشترى كذلك الخسرانات لا تكون إلا في الموجودات فانف الغم والخسارة عنك فإن لكل ثمنا وليس يجيء بالمجان
وسئل أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف قال الحياء لأن الحياء يدل على العقل والخوف يدل على المقة والشهوة
وقال لإبنه دع المزاح فإن المزاح لقاح الضغائر
وسأله رجل فقال هل ترى أن أتزوج أم أدع قال أي الأمرين فعلت ندمت عليه
وسئل أي شيء أصعب على الإنسان قال أن يعرف عيب نفسه وأن يمسك عما لا ينبغي أن يتكلم به

ورأى رجلا عثر فقال له تعثر برجلك خير من أن تعثر بلسانك
وسئل ما الكرم فقال النزاهة عن المساوىء
وسئل ما الحياة فقال التمسك بأمر الله تعالى
وسئل ما النوم فقال النوم موتة خفيفة والموت نومة طويلة
وقال ليكن اختيارك من الأشياء حديثها ومن الإخوان أقدمهم
وقال أنفع العلم ما أصابته الفكرة وأقله نفعا ما قلته بلسانك
وقال ينبغي أن يكون المرء حسن الشكل في صغره وعفيفا عند إدراكه وعدلا في شبابه وذا رأي في كهولته وحافظا للستر عند الفناء حتى لا تلحقه الندامة
وقال ينبغي للشاب أن يستعد لشيخوخته مثل ما يستعد الإنسان للشتاء من البرد الذي يهجم عليه
وقال يابني احفظ الأمانة تحفظك وصنها حتى تصان
وقال جوعوا إلى الحكمة واعطشوا إلى عبادة الله تعالى قبل أن يأتيكم المانع منها
وقال لتلامذته لا تكرموا الجاهل فيستخف بكم ولا تتصلوا بالأشرار فتعدوا فيهم ولا تعتمدوا الغنى إن كنتم تلامذة الصدق ولا تهملوا أمر أنفسكم في أيامكم ولياليكم ولا تستخفوا بالمساكين في جميع أوقاتكم
وكتب إليه بعض الحكماء يستوصفه أمر عالمي العقل والحس فقال أما عالم العقل فدار ثبات وثواب وأما عالم الحس فدار بوار وغرور
وسئل ما فضل علمك على علم غيرك فقال معرفتي بأن علمي قليل
وقال أخلاق محمودة وجدتها في الناس إلا أنها إنما توجد في قليل صديق يحب صديقه غائبا كمحبته حاضرا وكريم يكرم الفقراء كما يكرم الأغنياء ومقر بعيوبه إذا ذكرت وذاكر يوم نعيمه في يوم بؤسه ويوم بؤسه في يوم نعيمه وحافظ لسانه عند غضبه وآمر بالمعروف دائما

٩ – حكم أوميروس الشاعر
وهو من كبار القدماء الذي يجريه أفلاطون وأرسطو طاليس في أعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ فمن ذلك قوله لا خير في كثرة الرؤساء وهذه كلمة وجيزه تحتها معان شريفة لما في كثرة الرؤساء من الاختلاف الذي يأتي على حكمة الرئاسة بالإبطال ويستدل بها أيضا في التوحيد لما في كثرة الآلهة من المخالفات التي تكر على حقيقة الإلهية بالإفساد وفي الحكمة لو كان أهل بلد كلهم رؤساء لما كان رئيس البتة ولو كان أهل بلد كلهم رعية لما كانت رعيته البتة
ومن حكمه قال إني لا أعجب من الناس إذ كان يمكنهم الإقتداء بالله تعالى فيدعون ذلك إلى الإقتداء بالبهائم قال له تلميذه لعل هذا إنما يكون لأنهم قد رأوا أنهم يموتون كما تموت البهائم فقال له بهذا السبب يكثر تعجبي منهم من قبل أنهم يحسون بأنهم لابسون بدنا ميتا ولا يحسبون أن في ذلك البدن نفسا غير ميتة
وقال من يعلم أن الحياة لنا مستبعدة والموت معتق مطلق آثر الموت على الحياة
وقال العقل نحوان طبيعي وتجريبي وهما مثل الماء والأرض وكما أن النار تذيب كل صامت وتخلصه وتمكن من العمل فيه كذلك العقل يذيب الأمور ويخلصها ويفصلها ويعدها للعمل ومن لم يكن لهذين النحوين فيه موضع فإن خير أموره له قصر العمر
وقال إن الإنسان الخير أفضل من جميع ما على الأرض والإنسان الشرير أخس وأوضع من جميع ما على الأرض
وقال لن تنبل وأحلم تعز ولا تكن معجبا فتمتهن واقهر شهوتك فإن الفقير من انحط إلى شهوته

وقال الدنيا دار تجارة والويل لم تزود عنها بالخسارة
وقال الأمراض ثلاثة أشياء الزيادة والنقصان في الطبائع الأربعة وما تهيجه الأحزان فشفاء الزائد والناقص في الطبائع الأدوية وشفاء ما تهيجه الأحزان كلام الحكماء والإخوان
وقال العمى خير من الجهل لأن أصعب ما يخاف من العمى التهور في بئر ينهد منه الجسد والجهل يتوقع منه هلاك الأبد
وقال مقدمة المحمودات الحياء ومقدمة المذمومات القحة
وقال إيراقليطس إن أوميروس الشاعر لما رأى تضاد الموجودات دون فلك القمر قال ياليته هلك التضاد من هذا العالم ومن الناس والسادة يعني النجوم وإختلاف طبائعها وأراد بذلك أن يبطل التضاد والإختلاف حتى يكون هذا العالم المتحرك المنتقل داخلا في العالم الساكن الدائم الباقي
ومن مذهبه أن بهرام يعني الريح واقع الزهرة فتولدت من بينهما طبيعة هذا العالم
وقال إن الزهرة علة التوحيد والإجتماع وبهرام علة التفرق والإختلاف والتوحد ضد التفرق فلذلك صارت الطبيعة ضدا تركب وتنقص وتوحد وتفرق
وقال الحظ شيء أظهره العقل بوساطة العلم فلما قابل النفس عشقته بالعنصر هذه حكمة
وأما مقطوعات أشعاره فمنها قال ينبغي للإنسان أن يفهم الأمور الإنسانية إن الأدب للإنسان ذخر لا يسلب ارفع من عمرك ما يحزنك إن أمور العالم تعلمك العلم إن كنت ميتا فلا تحقر عداوة من لا يموت كل ما يمتار في وقته يفرح به إن الزمان يبين الحق وينيره اذكر نفسك أبدا أنك إنسان إن كنت إنسانا فإفهم كيف تضبط

غضبك إذا نالتك مضرة فأعلم أنك كنت أهلها أطلب رضاء كل أحد لإرضاء نفسك فقط إن الضحك في غير وقته هو ابن عم البكاء إن الأرض تلد كل شيء ثم تسترده إن الرأي من الجبان جبان إنتقم من الأعداء نقمة لا تضرك كن حسن الجرأة ولا تكن متهورا إن كنت ميتا فلا تذهب مذهب من لا يموت إن أردت أن تحيا فلا تعمل عملا يوجب الموت إن الطبيعة كونت الأشياء بإرادة الرب تعالى
من لا يفعل شيئا من الشر فهو إلهي آمن بالله فإنه يوفقك في أمورك إن مساعدة الأشرار على أفعالهم كفر بالله إن المغلوب من قاتل الله والبخت اعرف الله واعقل الأمور الإنسانية إذا أراد الله خلاصك عبرت البحر على البادية إن العقل الذي يناطق الله لشريف إن قوام السنة بالرئيس إن لفيف الناس وإن كانت لهم قوة فليس لهم عقل إن السنة توجب كرامة الوالدين مثل كرامة الإله رأيي أن والديك آلهة لك إن الأب هو من ربى لا من ولد إن الكلام في غير وقته يفسد العمر كله إذا حضر البخت تمت الأمور إن سنن الطبيعة لا تتعلم إن اليد تغسل اليد والأصبع الأصبع ليكن فرحك بما تدخره لنفسك دون ما تدخره لغيرك يعني بالمدخر لنفسه العلم والحكمة وبالمدخر لغيره المال
وقال الكرم يحمل ثلاثة عناقيد عنقود الالتذاذ وعنقود الشكر وعنقود الشيم خير أمور العالم الحسي أوساطها وخير أمور العالم العقلى أفضلها
وقيل إن وجود الشعر في أمة يونان كان قبل الفلسفة وإنما أبدعه أوميروس وتاليس كان بعده بثلاثمائة واثنتين وثمانين سنة وأول فيلسوف كان منهم في سنة تسعمائة وإحدى وخمسين من وفاة موسى عليه السلام وهذا ما أخبر به كورفس في كتابه وذكر فورفوريوس أن تاليس ظهر في سنة ثلاث وعشرين ومائة من ملك بختنصر

١٠ - حكم بقراط
بقراط واضع الطب الذي قال بفضله الأوائل والأواخر وكان أكثر حكمته في الطب وشهرته به فبلغ خبره إلى بهمن بن أسفنديار بن كشتاسب فكتب إلى فيلاطس ملك قوه وهو بلد من بلاد اليونانيين يأمر بتوجيه بقراط إليه وأمر له بقناطير من الذهب فأبى ذلك وتأبى عن الخرروج إليه ظنا بوطنه وقومه وكان لا يأخذ على المعالجة أجرة من الفقراء وأوساط الناس وقد شرط أن يأخذ من الأغنياء أحد ثلاثة أشياء طوقا أو إكليلا أو سوارا من ذهب
فمن حكمه أن قال استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه
وقيل له أي العيش خير قال الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف
وقال الحيطان والبروج لا تحفظ المدن ولكن تحفظها آراء الرجال وتدبير الحكماء
وقال يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة متطلعة إلى هوائها ونازعة إلى غذائها
ولما حضرته الوفاة قال خذوا جامع العلم مني من كثر نومه ولانت طبيعته وندیت جلدته طال عمره
وقال الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع
وقال لو خلق الإنسان من طبيعة واحدة لما مرض لأنه لم يكن هناك شيء يضادها فيمرض
ويدخل على عليل فقال له أنا والعلة وأنت فإن أعنتني عليها بالقبول لما تسمع مني صرنا اثنين وانفردت العلة فقوينا عليها والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه
وسئل ما بال الإنسان أثور ما يكون بدنه إذا شرب الدواء قال مثل ذلك مثل البيت أكثر ما يكون غبارا إذا كنس

وحديث ابن ملك أنه عشق جارية من حظايا أبيه فنهك بدنه واشتدت علته فأحضر بقراط فجس نبضه ونظر إلى تفسرته فلم ير أثر علة فذاكره حديث العشق فرآه يهش لذلك ويطرب فاستخبر الحال من حاضنته فلم يكن عندها خبر وقالت ما خرج قط من الدار فقال بقراط للملك مر رئيس الخصيان بطاعتي فأمره بذلك فقال أخرج على النساء فخرجن وبقراط واضع إصبعه على نبض الفتى فلما خرجت الخطية اضطرب عرقه وطار قلبه وحار طبعه فعلم بقراط أنها المعنيه لهواه فصار بقراط إلى الملك وقال له ابن الملك قد عشق من الوصول إليها صعب قال الملك ومن ذاك قال هو يحب حليلتي قال انزل عنها ولك عنها بدل فتخازن بقراط ووجم وقال هل رأيت أحدا كلف أحدا طلاق امرأته ولا سيما الملك في عدله ونصفته يأمرني بمفارقة حليلتي ومفارقتها مفارقة روحي قال الملك إني أوثر ولدي عليك وأعوضك من هو أحسن منها فامتنع حتى بلغ الأمر إلى التهديد بالسيف قال بقراط إن الملك لا يسمى عدلا حتى ينتصف من نفسه ما ينتصف من غيره أرأيت لو كانت العشيقة حظية الملك

قال يابقراط عقلك أتم من معرفتك ونزل عنها لإبنه وبرىء الفتى من مرضه ذلك

وقال بقراط إياك أن تأكل إلا ما تستمرىء وأما مالا تستمرىء فإنه يأكلك

وقيل لبقراط لم يثقل الميت قال لأنه كان اثنين أحدهما خفيف رافع والآخر ثقيل واضع فلما إنصرف أحدهما وهو الخفيف الرافع ثقل الثقيل الواضع

وقال الجسد يعالج جملة على خمسة أضرب ما في الرأس بالغرغرة وما في المعدة بالقيء وما في البدن بإسهال البطن وما بين الجلدين بالعرق وما في العمق وداخل العروق بإرسال الدم

وقال الصفراء بيتها المرارة وسلطانها في الكبد والبلغم بيته المعدة وسلطانه

في الصدر والسوداء بيتها في الطحال وسلطانها في القلب والدم بيته القلب وسلطانه في الرأس
وقال لتلميذ له ليكن أفضل وسيلتك إلى الناس محبتك لهم والتفقد لأمورهم ومعرفة حالهم واصطناع المعروف إليهم
ويحكى عن بقراط قوله المعروف العمر قصير والصناعة طويلة والوقت ضيق والزمان جديد والتجربة خطر والقضاء عسر
وقال لتلاميذه اقسموا الليل والنهار ثلاثة أقسام فاطلبوا في القسم الأول العقل الفاضل واعملوا في القسم الثاني بما أحرزتم من ذلك العقل ثم عاملوا في القسم الثالث من لا عقل له وانهزموا من الشر ما استطعتم
وكان له ابن لا يقبل الأدب فقالت له إمرأته إن إبنك هو منك فأدبه فقال لها هو مني طبعا ومن غيري نفسا فما أصنع به
وقال ما كان كثيرا فهو مضاد للطبيعة فلتكن الأطعمة والأشربة والنوم والجماع والتعب قصدا
وقال إن صحة البدن إذا كانت في الغاية كان أشد خطرا
وقال إن الطب هو حفظ الصحة بما يوافق الأصحاء ودفع المرض بما يضاده
وقال من سقى السم من الأطباء وألقى الجنين ومنع الحبل وإجترأ على المريض فليس من شيعتي وله أيمان معروفة على هذه الشرائط وكتب معروفة كثيرة في الطب
وقال في الطبيعة إنها القوة التي تدبر الجسم من الإنسان فتصوره من النطفة إلى تمام الخلقة خدمة للنفس في إتمام هيكلها ولا تزال هي المدبرة له غذاء من الثدي وبعده مما به قوامه من الأغذية ولها ثلاث قوى المولدة والمربية والحافظة ويخدم الثلاث أربع قوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة

١١ - حكم ديقريطيس
وهو من الحكماء المعتبرين في زمان بهمن بن اسفندبار وهو وبقراط كانا في زمان واحد قبل أفلاطون وله آراء في الفلسفة وخصوصا في مبادىء الكون والفساد وكان أرسطو طاليس يؤثر قوله على قول أستاذه أفلاطون الإلهي وما أنصف
قال ديمقريطيس إن الجمال الظاهر يشبه به المصورون بالأصباغ ولكن الجمال الباطن لا يشبه به إلا من هو له بالحقيقة وهو مخترعه ومنشئه
وقال ليس ينبغي أن تعد نفسك من الناس ما دام الغيظ يفسد رأيك ويتبع شهوتك
وقال ليس ينبغي أن يمتحن الناس في وقت ذلتهم بل في وقت عزتهم وملكهم وكما أن الكير يمتحن به الذهب كذلك الملك يمتحن به الإنسان فيتبين خيره وشره
وقال ينبغي أن تأخذ في العلوم بعد أن تنفي عن نفسك العيوب وتعودها الفضائل فإنك إن لم تفعل هذا لم تنتفع بشيء من العلوم
وقال من أعطى أخاه المال فقد اعطه خزائنهم ومن أعطاه علمه ونصيحته فقد وهب له نفسه
وقال لا ينبغي أن تعد النفع الذي فيه الضرر العظيم نفعا ولا الضرر الذي فيه النفع العظيم ضررا ولا الحياة التي لا تحمد أن تعد حياة
وقال مثل من قنع بالإسم كمثل من قنع عن الطعام بالرائحة
وقال عالم معاند خير من جاهل منصف
وقال ثمرة الغرة التواني وثمررة التواني الشقاء وثمرة الشقاء ظهور البطالة وثمرة البطالة السفه والعبث والندامة والحزن
وقال يجب على الإنسان أن يطهر قلبه من المكر والخديعة كما يطهر بدنه من أنواع الخبث

وقال لا تطمع أحدا أن يطأ عقبك اليوم فيطأك غدا
وقال لا تكن حلو جدا لئلا تبلع ولا مرا جدل لئلا تلفظ
وقال ذنب الكلب يكسب له الطعام وفمه يكسب له الضرب
وكان بأثينية نقاش غير حاذق فأتى ديمقريطيس وقال جصص بيتك فأصوره قال صوره أولا حتى أجصصه
وقال مثل العلم مع من لا يقبل وإن قبل لا يعمل كمثل دواء مع سقيم وهو لا يداوى به وقيل له لا تنظر فغمض عينيه قيل له لا تسمع فسد أذنيه قيل له لا تتكلم فوضع يده على شفتيه قيل له لا تعلم قال لا أقدر وإنما أراد به أن البواطن لا تندرج تحت الإختيار فأشار إلى ضرورة السر وإختيار الظاهر
ولما كان الإنسان مضطر الحدوث كان معزول الولاية عن قلبه وهو بقلبه أكبر منه بسائر جوارحه فلهذا لم يستطع أن يتصرف في أصله لإستحالة أن يكون فاعل أصله ولهذا الكلام شرح آخر وهو أنه أراد التمييز بين العقل والحس فإن الإدراك العقلي لا يتصور الإنفكاك عنه وإذا حصل لن يتصور نسيانه بالإختيار والإعراض عنه بخلاف الإدراك الحسي وهذا يدل على أن العقل ليس من جنس الحس ولا النفس من حيز البدن
وقد قيل إن الإختيار في الإنسان مركب من إنفعالين أحدهما إنفعال نقيصة والثاني إنفعال تكامل وهو إلى الإنفعال الأول أميل بحكم الطبيعة والمزاج والآخر ضعيف فيه إلا إذا وصل إليه مدد من جهة العقل والتمييز والنص فينشيء الرأي الثاقب ويحدث الحزم الصائب فيحب الحق ويكره الباطل فمتى وقف هذا المدد من القوة الإختيارية كانت الغلبة للإنفعال الآخر ولولا تركب الإختيار عن هذين الإنفعالين أو إنقسامه إلى هذين الوجهين لتأتى للإنسان جميع ما يقصده بالإختيار بلا مهلة ولا ترجح ولا هنية ولا تريح ولا إستشارة ولا إستخارة

وهذا الرأي الذي رآه هذا الحكيم لم أجد أحدا أبه له ولا عثر عليه أو حكم به أو أومأ إليه والله سبحانه وتعالى أعلم

١٢ - حكم أوقليدس

وهو أول من تكلم في الرياضيات وأفرده علما نافعا في العلوم منقحا للخاطر ملقحا للفكر وكتابه معروف باسمه وكذلك حكمته

وقد وجدنا له حكما متفرقة فأوردناها على سوق مرامنا وطرد كلامنا فمن ذلك قوله الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية

وقال له رجل يتهدده إني لا آلو جهدا في أن أفقدك حياتك قال أوقليدس وأنا لا آلو جهدا في أن أفقدك غضبك

وقال كل أمر تصرفنا فيه وكانت النفس الناطقة هي المقدرة له فهو داخل في الأفعال الإنسانية وما لم تقدره النفس الناطقة فهو داخل في الأفعال البهيمية

وقال من أراد أن يكون محبوبه محبوبك وافقك على ما تحب فإذا إتفقتما على محبوب واحد صرتما إلى الإتفاق

وقال افزع إلى ما يشبه الرأي العام التدبيري العقلي واتهم ما سواه

وقال كل ما أستطيع خلعه ولم يضطر إلى لزومه المرء فلم الإقامة على مكروهه

وقال الأمور جنسان أحدهما يستطاع خلعه والمصير إلى غيره والآخر توجبه الضرورة فلا يستطاع الإنتقال عنه والإغتمام والأسف على كل واحد منهما غير سائغ في الرأي

وقال إن كانت الكائنات من المضطرة فما الإهتمام بالمضطر إذ لا بد منه وإن كانت غير مضطرة فلم الهم فيما يجاوز إنتقال عنه

وقال الصواب إذا كان عاما كان أفضل لأن الخاص يقع بالتحري وتلقاء أمر ما

وقال العمل على الإنصاف ترك الإقامة على المكروه
وقال إذا لم يضطرك إلى الإقامة عليه شيء فإن أقمت رجعت باللائمة عليك
وقال الحزم هو العمل على أن لا تثق بالأمور التي في الإمكان عسرها ويسرها
وقال كل فائت وجدت في الأمور منه عوضا أو أمكنك إكتساب مثله فما الأسف على فوته وإن لم يكن منه عوض ولا يصاب له مثل فما الأسف على ما لا سبيل إلى مثله ولا إمكان في دفعه
وقال لما علم العاقل أنه لا ثقة بشيء من أمر الدنيا ألقى منها ما منه بد واقتصر على ما لا بد منه وعمل فيما يوثق به بأبلغ ما قدر عليه
وقال إذا كان الأمر ممكنا فيه التصرف فوقع بحال ما تحب فاعتده ربحا وإن وقع بحال ما تكره فلا تحزن فإنك قد كنت عجلت فيه على غير ثقة بوقوعه على ما تحب
وقال لم أر أحدا إلا ذاما للدنيا وأمورها إذ هي على ما هي من التغير والتنقل فالمستكثر منها يلحقه أن يكون أشد إتصالا بما يذم وإنما يذم الإنسان ما يكره والمستقل منها مستقل مما يكره وإذا إستقل مما يكره كان ذلك أقرب إلى ما يحب
وقال أسوأ الناس حالا من لا يثق بأحد لسوء ظنه ولا يثق به أحد لسوء فعله
وقال الجشع بين شرين فالإعدام يخرجه إلى السفه والجدة تخرجه إلى الأشر
وقال لا تعن أخاك على أخيك في خصومة فإنهما يصطلحان عن قليل وتكتسب المذمة

١٣ - حكم بطلميوس
وهو صاحب المجسطى الذي تكلم في هيئات الفلك وأخرج علم الهندسة من القوة إلى الفعل
فمن حكمه أنه قال ما أحسن الإنسان أن يصبر عما يشتهي وأحسن منه أن لا يشتهي إلا ما ينبغي
قال الحليم الذي إذا صدق صبر لا الذي إذا قذف كظم
وقال لمن يغني الناس ويسأل أشبه بالملوك ممن يستغني بغيره ويسأل
وقال لأن يستغني الإنسان عن الملك أكرم له من أن يستغني به
وقال موضع الحكمة من قلوب الجهال كموقع الذهب والجوهر من ظهر الحمار
وسمع جماعة من أصحابه وهم حول سرادقه يقعون فيه ويثلبونه فهز رمحا كان بين يديه ليعلموا أنهم بمسمع منه وأن يتباعدوا عند قيد رمح ثم يقولوا ما أحبوا
وقال العلم في موطنه كالذهب في معدنه لا يستنبط إلا بالدءوب والتعب والكد والنصب ثم يجب تخليصه بالفكر كما يخلص الذهب بالنار
قال بطليموس دلالة القمر في الأيام أقوى ودلالة الشمس والزهرة في الشهور أقوى ودلالة المشتري وزحل في السنين أقوى
ومما نقل عنه أنه قال نحن كائنون في الزمن الذي يأتي بعد وهذا رمز إلى المعاد إذ الكون والوجود الحقيقي ذلك الكون والوجود في ذلك العالم

١٤ - حكم أهل المظال

ومنهم خروسيبس وزينون وقولهما الخالص إن الباري تعالى المبدع الأول واحد محض هو هو إن فقط أبدع العقل والنفس دفعة واحدة ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسطهما وفي بدء ما أبدعهما أبدعهما جوهرين لا يجوز عليهما الدثور والفناء

وذكروا أن للنفس جرمين جرم من النار والهواء وجرم من الماء والأرض فالنفس متحدة بالجرم الذي من النار والهواء والجرم الذي من النار والهواء متحد بالجرم الذي من الماء والأرض والنفس تظهر أفاعيلها في ذلك الجرم وذلك الجرم ليس له طول ولا عرض ولا قدر مكاني وباصطلاحنا سميناه جسما وأفاعيل النفس فيه نيرة بهية ومن الجسم إلى الجرم ينحدر النور والحسن والبهاء ولما ظهرت أفاعيل النفس عندنا بمتوسطين كانت أظلم ولم يكن لها نور شديد

وذكروا أن النفس إذا كانت طاهرة زكية استخصت الأجزاء النارية والهوائية وهي جسمها واستصحبت في ذلك العالم جسما روحانيا نورانيا علويا طاهرا مهذبا من كل ثقل وكدر وأما الجرم الذي من الماء والأرض فيدثر ويفنى لأنه غير مشاكل للجسم السماوي لأن ذلك الجسم خفيف لطيف لا وزن له ولا يلمس وإنما يدرك من البصر فقط كما تدرك الأشياء الروحانية من العقل فألطف ما يدرك الحس البصري من الجواهر هي النفسانية وألطف ما يدرك من إبداع الباري تعالى الآثار التي عند العقل

وذكروا أن النفس إنما هي مستطيعة ما خلاها الباري تعالى أن تفعل وإذا ربطها فليست بمستطيعة كالحيوان الذي إذا خلاه مدبره أعني الإنسان كان مستطيعا في كل ما دعى إليه وتحرك إليه وإذا ربطه لم يقدر حينئذ أن يكون مستطيعا

وذكروا أن دنس النفس وأوساخ الجسد إنما تكون لازمة للإنسان من جهة الأجزاء وأما التطهير والتهذيب فمن جهة الكل لأنه إذا إنفصلت النفس الكلية إلى النفس الجزئية والعقل الجزئي من العقل الكلي غلطت وصارت من حيز الجرم لأنها كلما سفلت اتحدت بالجرم والجرم من حيز الماء والأرض وهما ثقيلان يذهبان سفلا وكلما اتصلت النفس الجزئية بالنفس الكلية والعقل الجزئي بالعقل الكلي ذهبت علوا لأنها تتحد بالجسم والجسم من حيز النار والهواء وكلاهما لطيفان يذهبان علوا وهذان الجرمان مركبان وكل واحد منهما من جوهرين واجتماع هذين الجرمين يوجب الاتحاد شيئا واحدا عند الحسن البصري فأما عند الحواس الباطنة وعند العقل فليست شيئا واحدا فالجسم في هذا العالم مستبطن في الجرم لأنه أشد روحانية ولأن هذا العلم ليس مشاكلا له ولا مجانسا له والجرم مشاكل ومجانس لهذا العالم فصار الجرم أظهر من الجسم لمجانسة هذا العالم وتركيبه وصار الجسم مستنبطنا في الجرم لأن هذا العالم غير مشاكل له وغير مجانس له فأما في ذلك العالم فالجسم ظاهر على الجرم لأن ذلك العالم عالم الجسم لأنه مجانس ومشاكل له ويكون لطيف الجرم الذي هو من لطيف الماء والأرض المشاكل لجوهر النار والهواء مستنبطا في الجسم كما كان ذلك الجسم مستبطنا في هذا العالم في الجرم فإذا كان هذا فيمن ذكروا هكذا كان ذلك الجسم باقيا دائما لا يجوز عليه الدثور ولا الفناء ولذته دائمة لا تملها النفوس ولا العقول ولا ينفذ ذلك السرور والحبور

ونقلوا عن أفلاطون أستاذهم لما كان الواحد لا بدء له صار نهاية كل متناه وإنما صار الواحد لا نهاية له لأنه لا بدء له لا انه لا بدء له لأنه لا نهاية له

وقال ينبغي للمرء أن ينظر كل يوم إلى وجهه في المرآة فإن كان قبيحا لم يفعل قبيحا فيجمع بين قبيحين وإن كان حسنا لم يشنه بقبيح

وقال إنك لن تجد الناس إلا أحد رجلين إما مؤخرا في نفسه قدمه حظه أو مقدما في نفسه أخره دهره فارض بما أنت فيه إختيارا وإلا رضيت إضطرارا

الفصل الثالث

متأخرو حكماء اليونان

وهم الحكماء الذين تلوهم في الزمان وخالفوهم في الرأي مثل أرسطو طاليس ومن تابعه على رأيه مثل الإسكندر الرومي والشيخ اليوناني وديوجانس الكلبي وغيرهم وكلهم على رأي أرسطو طاليس في المسائل التي تفرد بها عن القدماء

ونحن نذكر من آرائه ما يتعلق بغرضنا من المسائل التي شرع فيها الأوائل وخالفهم المتأخرون ونحصرها في ست عشرة مسألة وبالله التوفيق

١ – رأي أرسطو طاليس بن بيقوماخوس

من أهل أسطاخرا وهو المقدم المشهور والمعلم الأول والحكيم المطلق عندهم وكان مولده في أول سنة من ملك أردشير بن دارا فلما أتت عليه سبع عشرة سنة أسلمه أبوه إلى المؤدب أفلاطون فمكث عنده نيفا وعشرين سنة وإنما سموه المعلم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل وحكمه حكم واضع النحو وواضع العروض فإن نسبة المنطق إلى المعاني التي في الذهن كنسبة النحو إلى الكلام والعروض إلى الشعر وهو واضع لا بمعنى أنه لم تكن المعاني مقومة بالمنطق قبله فقومها بل بمعني أنه جرد آلته عن المادة فقومها تقريبا إلى أذهان المتعلمين حتى يكون كالميزان عندهم يرجعون إليه عند إشتباه الصواب بالخطأ والحق بالباطل إلا أنه أجمل القول فيه

إجمال الممهدين وفصله المتأخرون تفصيل الشارحين وله حق السبق وفضيلة التمهيد وكتبه في الطبيعيات والإلهيات والأخلاق معروفة ولها شروح كثيرة
ونحن إخترنا في نقل مذهبه شرح ثامسطيوس الذي اعتمده مقدم المتأخرين ورئيسهم أبو علي بن سينا وأردنا نكتا من كلامه في الإلهيات وأحلنا باقي مقالاته في المسائل على نقل المتأخرين إذ لم يخالفوه في رأي ولا نازعوه في حكم بل هم كالمقلدين له المتهالكين عليه وليس الأمر على ما مالت ظنونهم إليه

المسألة الأولى

في إثبات واجب الوجود الذي هو المحرك الأول قال في كتاب أثولوجيا من حرف اللام

إن الجوهر يقال على ثلاثة أضرب إثنان طبيعيان وواحد غير متحرك قال إنا وجدنا المتحركات على إختلاف جهاتها وأوضاعها ولا بد لكل متحرك من محرك فإما أن يكون المحرك متحركا فيتسلسل القول فيه ولا يتحصل وإلا فيستند إلى محرك غير متحرك ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة فإنه يحتاج إلى شيء آخر يخرجه من القوة إلى الفعل إذ هو لا يتحرك من ذاته من القوة إلى الفعل فالفعل إذن أقدم من القوة وما بالفعل أقدم على ما بالقوة وكل جائز وجوده ففي طبيعته معنى ما بالقوة وهو الإمكان والجواز فيحتاج الى واجب به يجب وكذلك كل متحرك فيحتاج الى محرك فواجب الوجود بذاته ذات وجودها غير مستفاد من وجود غيره وكل موجود فوجوده مستفاد عنه بالفعل وجائز الوجود له في نفسه وذاته الإمكان وذلك إذا أخذته بلا شرط وإذا أخذته بشرط علته فله الوجوب وغذا أخذته بشرط لا عليه فله الإمتناع

المسألة الثانية
في أن واجب الوجود واحد أخذ أرسطو طاليس يوضح أن المبدأ الأول واحد من حيث أن العالم واحد ويقول إن الكثرة بعد الإتفاق في الحد ليست إلا في كثرة العنصر وأما ما هو بالآنية الأولى فليس له عنصر لأنه تمام قائم بالفعل لا يخالط القوة فإذن المحرك الأول واحد بالكلمة والعدد أي بالإسم والذات قال فمحرك العالم واحد لأن العالم واحد هذا نقل ثامسطيوس وأخذ من نصر مذهبه يوضح أن المبدأ الأول واحد من حيث إنه واجب الوجود لذاته قال ولو كان كثيرا لحمل واجب الوجود عليه وعلى غيره بالتواطوء فيشملها جنسا وينفصل أحدهما عن الآخر نوعا فتتركب ذاته من جنس وفصل فتسبق أجزاء المركب على المركب سبقا بالذات فلا يكون واجبا بذاته ولأنه لو لم يكن هو بعينه واجب الوجود لذاته عنه بل لشيء عنه واجب بذاته بل لأمر خارج عنه لكان واجب الوجود بذلك الأمر الخارج فلم يكن واجبا بذاته هذا خلف

المسألة الثالثة
في أن واجب الوجود لذاته عقل لذاته وعاقل ومعقول لذاته عقل من غيره أو لم يعقل أما أنه عقل فلأنه مجرد عن المادة منزه عن اللوازم المادية فلا تحتجب ذاته عن ذاته وأما أنه عاقل لذاته فلأنه مجرد لذاته

وأما أنه معقول لذاته فلأنه غير محجوب عن ذاته بذاته أو بغيره

قال الأول يعقل ذاته ثم من ذاته يعقل كل شيء فهو يعقل العالم العقلي دفعة واحدة من غير إحتياج إلى إنتقال وتردد من معقول إلى معقول وأنه ليس يعقل الأشياء

على أنها أمور خارجة عنه فيعقلها منها كحالنا عند المحسوسات بل يعقلها من ذاته وليس كونه عاقلا وعقلا بسبب وجود الأشياء المعقولة حتى يكون وجودها قد جعله عقلا بل الأمر بالعكس أي عقله للأشياء جعلها موجودة وليس للأول شيء يكمله فهو الكامل لذاته المكمل لغيره فلا يستفيد وجوده كمالا وأيضا فإنه لو كان يعقل الأشياء من الأشياء لكان وجودها متقدما على وجوده ويكون جوهره في نفسه وفي قوامه وفي طباعه أن يقبل معقولات الأشياء من الأشياء فيكون في طباعه ما هو بالقوة من حيث يكمل بما هو خارج عنه حتى يقال لولا ما هو خارج عنه لم يكن له ذلك المعنى وكان فيه عدمها فيكون الذي في طباع نفسه وباعتبار نفسه من غير إضافة إلى غيره أن يكون عادما للمعقولات ومن شأنه أن يكون له ذلك فيكون باعتبار نفسه مخالطا للإمكان والقوة وإذا فرضنا أنه لم يزل ولا يزال موجودا بالفعل فيجب أن يكون له من ذاته الأمر الأكمل الأفضل لا من غيره

وقال وإذا عقل ذاته عقل ما يلزمها لذاتها بالفعل وعقل كونه مبدأ وعقل كل ما يصدر عنه على ترتيب الصدور عنه وإلا فلم يعقل ذاته بكنهها قال وإن كان ليس يعقل بالفعل فما الشيء الكريم الذي له وهو الكون الناقص كماله فيكون حاله كحال النائم وإن كان يعقل الأشياء من الأشياء فتكون الأشياء متقدمة عليه بتقدم ما يقبله ذاته وإن كان يعقل الأشياء من ذاته فهو المرام والمطلب وقد يعبر عن هذا الغرض بعبارة أخرى تؤدى قريبا من هذا المعنى فيقول إن كان جوهره العقل وأن يعقل فإما أن يعقل ذاته أو غيره فإن كان يعقل شيئا آخر فما هو في حد ذاته غير مضاف إلى ما يعقله وهل لهذا المعتبر بنفسه فضل وجلال مناسب لأن يعقل بأن يكون بعض الأحوال أن يعقل له أفضل من أن لا يعقل أو بأن لا يعقل يكون له أفضل من أن يعقل فإنه لا يمكن القسم الآخر وهو أن يكون يعقل الشيء الآخر أفضل من الذي له

في ذاته من حيث هو في ذاته شيء يلزمه أن يعقل فيكون فضله وكماله بغيره وهذا محال

المسألة الرابعة

في أن واجب الوجود لا يعتريه تغير وتأثر من غيره بأن يبدع أو يعقل قال الباري تعالى عظيم الرتبة جدا غير محتاج إلى غيره ولا متغير بسبب من غيره سواء كان التغير زمانيا أو كان تغيرا بأن ذاته نقبل من غيره أثرا وإن كان دائما في الزمان وإنما لا يجوز له أن يتغير كيفما كان لأن إنتقاله إنما يكون إلى الشر لا إلى الخير لأن كل رتبة غير رتبته فهي دون رتبته وكل شيء يناله ويوصف به فهو دون نفسه ولا يكون أيضا مناسبا للحركة خصوصا إن كانت بعدية زمانية وهذا معنى قوله إن التغير إلى الشيء الذي هو شر

وقد ألزم على كلامه أنه إذا كان الأول يعقل أبدا ذاته فإنه يتعب ويكل ويتغير ويتأثر وأجاب ثامسطيوس عن هذا بأنه إنما لا يتعب لأنه يعقل ذاته وكما لا يتعب من أن يحب ذاته فإنه لا يتعب من أن يعقل ذاته

وقال أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ليست العلة أنه لذاته يعقل أو لذاته يحب بل لأنه ليس مضادا لشيء في الجوهر العاقل فإن التعب هو أذى يعرض لسبب خروج عن الطبيعة وإنما يكون ذلك إذا كانت الحركات التي تتوالى مضادة لمطلوب الطبيعة فأما الشيء الملائم واللذيذ المحض الذي ليس فيه منافاة بوجه فلم يجب أن يكون تكرره متعبا

المسألة الخامسة
في أن واجب الوجود حي بذاته باق بذاته أي كامل في أن يكون بالفعل مدركا لكل شيء نافذ الأمر في كل شيء
وقال إن الحياة التي عندنا يقترن بها من إدراك خسيس وتحريك خسيس وأما هناك فالمشار إليه بلفظ الحياة هو كون العقل التام بالفعل الذي يتعقل من ذاته كل شيء وهو باق الدهر أزلي فهو حي بذاته باق بذاته عالم بذاته وإنما ترجع جميع صفاته إلى ما ذكرنا من غير تكثر ولا تغير في ذاته
المسألة السادسة
في أنه لا يصدر عن الواحد إلا واحد
قال الصادر الأول هو العقل الفعال لأن الحركات إذا كانت كثيرة ولكل متحرك محرك فيجب أن يكون عدد المحركات بحسب عدد المتحركات فلو كانت المحركات والمتحركات تنسب إليه لا على ترتيب أول وثان بل جملة واحدة لتكثرت جهات ذاته بالنسبة إلى محرك محرك ومتحرك متحرك فتتكثر ذاته وقد أقمنا البرهان على أنه واحد من كل وجه فلن يصدر عن الواحد من كل وجه إلا واحد وهو العقل الفعال وله في ذاته وباعتبار ذاته إمكان الوجود وباعتبار علته وجوب الوجود فتكثر ذاته لا من جهة علته فيصدر عنه شيئان ثم يزيد التكثير في الأسباب فتتكثر المسببات والكل ينسب إليه

المسألة السابعة
في عدد المفارقات
قال إذا كان عدد المتحركات مترتبا على عدد المحركات فتكون الجواهر المفارقة كثيرة على ترتيب أول وثان فلكل كرة متحركة محرك مفارق غير متناهي القوة يحرك كما يحرك المشتهي والمعشوق ومحرك آخر مزاول للحركة فيكون صورة للجرم السماوي فالأول عقل مفارق والثاني نفس مزاول فالمحركات المفارقة تحرك على أنها مشتهاة معشوقة والمحركات المزاولة تحرك على أنها مشتهية عاشقة ثم يطلب عدد المحركات من عدد حركات الأكر وذلك شيء لم يكن ظاهرا في زمانه وإنما ظهر بعد والأكر تسع لما دل الرصد عليها فالعقول المفارقة عشرة تسعة مدبرات النفوس التسعة المزاولة وواحد هو العقل الفعال
المسألة الثامنة
في أن الأول مبتهج بذاته
قال أرسطو طاليس اللذة في المحسوسات هو الشعور بالملائم وفي المعقولات الشعور بالكمال الواصل إليه من حيث يشعر به فالأول مغتبط بذاته ملتذ بها لأنه يعقل ذاته على كمال حقيقتها وشرفها وإن جل عن أن ينسب إليه لذة إنفعالية بل يجب أن يسمى ذلك بهجة وعلاء وبهاء كيف ونحن نلتذ بإدراك الحق ونحن مصروفون عنه مردودون في قضاء حاجات خارجة عما يناسب حقيقتنا التي نحن بها ناس وذلك لضعف عقولنا وقصورنا في المعقولات وإنغماسنا في الطبيعة البدنية لكنا نتوصل على سبيل الإختلاس فيظهر لنا إتصال بالحق الأول فيكون كسعادة عجيبة في زمان قليل جدا وهذه الحال له أبدا وهو لنا غير ممكن لأنا مذنبون ولا يمكننا أن نشيم تلك البارقة الإلهية إلا خطفة وخلسة

المسألة التاسعة
في صدور نظام الكل وترتيبه عنه
قال قد بينا أن الجوهر يقال على ثلاثة أضرب اثنان طبيعيان وواحد غير متحرك وقد بينا القول في لاواحد غير المتحرك وأما الاثنان الطبيعيان فهما الهيولى والصورة أو العنصر والصورة وهما مبدأ الأجسام الطبيعية وأما العدم فيعد من المبادىء بالعرض لا بالذات فالهيولى جوهر قابل للصورة والصورة معنى ما يقترن بالجوهر فيصير به نوعا كالجزء المقوم له لا كالعرض الحال فيه والعدم ما يقابل الصورة فإنا متى توهمنا أن الصورة لم تكن فيجب أن يكون في الهيولى عدم الصورة والعدم المطلق مقابل للصورة المطلقة والعدم الخاص مقابل للصورة الخاصة
قال وأول الصورة التي تسبق إلى الهيولى هي الأبعاد الثلاثة فتصير جرما ذا طول وعرض وعمق وهي الهيولى الثانية وليست بذات كيفية ثم تلحقها الكيفيات لأربع التي هي الحرارة والبرودة الفاعلتان والرطوبة واليبوسة المنفعلتان فتصير الأركان والأسطقسات الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض وهي الهيولى الثالثة ثم تتكون منها المركبات التي تلحقها الأعراض والكون والفساد ويكون بعضها هيولى بعض
قال وإنما رتبنا هذا الترتيب في العقل والوهم خاصة دون الحس وذلك أن الهيولى عندنا لم تكن معراة عن الصورة قط فلم نقدر في الوجود جوهرا مطلقا قابلا للأبعاد ثم لحقته الأبعاد ولاجسما عاريا عن هذه الكيفيات ثم عرض له ذلك وإنما هو عند نظرنا فيما هو أقدم بالطبع وأبسط في الوهم والعقل
ثم أثبت طبيعة خامسة وراء هذه الطبائع لا تقبل الكون والفساد ولا يطرأ عليها الإستحالة والتغير وهي طبيعة السماء وليس يعني بالخامسة طبيعة من جنس هذه الطبائع بل معنى ذلك أن طبائعها خارجة عن هذه ثم هي كلها على تركيبات يختص كل تركيب خاص بطبيعة خاصة ويتحرك بحركة خاصة ولكل متحرك محرك مزاول ومحرك

مفارق والمتحركات أحياء ناطقون والحيوانية والناطقية لها بمعنى آخر وإنما يحمل ذلك عليها وعلى الإنسان بالاشتراك فترتيب العالم كله علوية وسفلية على نظام واحد وصار النظام في الكل محفوظا بعناية المبدأ الأول على أحسن ترتيب وأحكم قوام متوجها إلى الخير وترتيب الموجودات كلها في طباع الكل على نوع نوع ليس على ترتيب المساواة فليس حال السباع كحال الطير ولا حالها كحال النبات ولا حال النبات كحال الحيوان

قال وليس مع هذا التفاوت منقطعا بعضها عن بعض بحيث لا ينسب بعضها إلى بعض بل هناك مع الإختلاف إتصال وإضافة جامعة للكل تجمع الكل إلى الأصل الأول الذي هو المبدأ لفيض الجود والنظام في الوجود على ما يمكن في طباع الكل أن يترتب عنه قال وترتيب الطباع في الكل كترتيب المنزل الواحد من الأرباب والأحرار والعبيد والبهائم والسباع فقد جمعهم صاحب المنزل ورتب لكل واحد منهم مكانا خاصا وقدر له عملا خاصا ليس قد أطلق لهم أن يعملوا ما شاءوا وأحبوا فإن ذلك يؤدي إلى تشويش النظام فهم وإن اختلفوا في مراتبهم وإنفصل بعضهم عن بعض بأشكالهم وصورهم منتسبون إلى مبدأ واحد صادرون عن رأيه وأمره مصرفون تحت حكمه وقدره فكذلك تجري الحال في العالم بأن يكون هناك أجزاء أول مفردة متقدمة لها أفعال مخصوصة مثل السماوات ومحركاتها ومدبراتها وما قبلها من العقل الفعال وأجزاء مركبة متأخرة تجري أكثر أمورها على الإتفاق المخلوط بالطبع والإرادة والجبر الممزوج بالإختيار ثم ينسب الكل إلى عناية الباري جلت عظمته

المسألة العاشرة

في أن النظام في الكل متوجه إلى الخير والشر واقع في القدر بالعرض

قال لما إقتضت الحكمة الإلهية نظام العالم على أحسن إحكام وإتقان لا لإرادة وقصد إلى أمر في السافل حتى يقال إنما أبدع العقل مثلا لغرض في السافل حتى يفيض

مثلا على السافل فيضا لأمر أعلى من ذلك وهو أن ذاته أبدع ما أبدع لذاته لا لعلة ولا لغرض فوجدت الموجودات كاللوازم واللواحق ثم توجهت إلى الخير لأنها صادرة عن أصل الخير وكان المصير في كل حال إلى رأس واحد

ثم ربما يقع شر وفساد من مصادمات في الأسباب السافلة دون العالية التي كلها خير مثل المطر الذي لم يخلق إلا خيرا ونظاما للعالم فيتفق أن يخرب به بيت عجوز فإن وقع كان ذلك واقعا بالعرض لا بالذات أو بأن لا يقع شر جزئي في العالم لا تقتضي الحكمة أن لا يوجد خير كلي فإن فقدان المطر أصلا شر كلي وتخريب بيت عجوز شر جزئي والعالم للنظام الكلي لا للجزئيء فالشر إذن واقع في القدر بالعرض

وقال إن الهيولى قد لبست الصور على درجات ومراتب وإنما يكون لكل درجة ما تحتمله في نفسها دون أن يكون في الفيض الأعلى إمساك عن بعض وإقاضة على بعض فالدرجة الأولى إحتمالها على نحو أفضل دون ذلك والذي عندنا من العناصر دون الجميع لأن كل ماهية من ماهيات هذه الأشياء إنما تحتمل ما تستطيع أن تلبس من الفيض على النحو الذي هيئت له ولذلك تقع العاهات والتشويهات في الأبدان لما يلزم من ضرورة المادة الناقصة التي لا تقبل الصورة على كمالها الأول والثاني قال إن لم نجر الأمور على هذا المنهاج ألجأتنا الضرورة إلى أن نقع في محالات وقع فيها من قبلنا كالثنوية وغيرهم

المسألة الحادية عشرة

في كون الحركات سرمدية وأن الحوادث لم تزل

قال إن صدور الفعل عن الحق الأول إنما يتأخر لا بزمان بل بحسب الذات والفعل ليس مسبوقا بعدم بل هو مسبوق بذات الفاعل فقط ولكن القدماء لما أرادوا أن يعبروا عن العلية افتقروا إلى ذكر القبلية وكانت القبلية في اللفظ تتناول الزمان

وكذلك في المعنى عند من لم يتدرب فأوهمت عباراتهم أن فعل الأول الحق فعل زماني وأن تقدمه تقدم زماني قال ونحن أثبتنا أن الحركات تحتاج إلى محرك غير متحرك

ثم نقول الحركات لا تخلو إما أن تكون لم تزل أو تكون قد حدثت بعد أن لم تكن وقد كان المحرك لها موجودا بالفعل قادرا ليس يمانعه مانع من أن تكون عنه ولا حدث حادث في حال ما احدثها فرغبه وحمله على الفعل إذن كان جميع ما يحدث إنما يحدث عنه وليس شيء غيره يعوقه أو يرغبه ولا يمكن أن يقال قد كان لا يقدر أن يكون عنه مقدور فقدر أو لم يرد فأراد أو لم يعلم فعلم فإن ذلك كله يوجب الإستحالة ويوجب أن يكون شيء آخر غيره هو الذي أحاله وإن قلنا إنه منعه مانع يلزم أن يكون السبب المانع أقوى والإستحالة والتغير عن المانع حركة أخرى استدعت محركا

وبالجملة كل سبب ينسب إليه الحادث في زمان حدوثه بعد جوازه في زمان قبله وبعده فإن ذلك السبب جزئي خاص أوجب حدوث تلك الحادثة التي لم تكن قبل ذلك وإلا فالإرادة الكلية والقدرة الشاملة والعلم الواسع العام ليس يختص بزمان دون زمان بل نسبته إلى الأزمان كلها نسبة واحدة فلا بد لكل حادث من سبب حادث ويتعالى عنه الواحد الحق الذي لا يجوز عليه التغيير والإستحالة

قال وإذا كان لابد من محرك للمحركات ومن حامل للحركات تبين أن المحرك سرمدي والحركات سرمدية فالمتحركات سرمدية فإن قيل إن حامل الحركة وهو الجسم لم يحدث لكنه عن سكون وجب أن يعثر على السبب الذي يغير من السكون إلى الحركة فإن قلنا أن ذلك الجسم حدث فقد تقدم حدوث الجسم حدوث الحركة فقد بان أن الحركة والمتحرك والزمان الذي هو عاد للحركة أزلية سرمدية

والحركات إما مستقيمة وإما مستديرة والإتصال لا يكون إلا للمستديرة لأن المستقيم والإتصال أمر ضروري للأشياء الأزلية فإن الذي يسكن ليس بأزلي

والزمان متصل لأنه لا يمكن أن يكون قطعا مبتورة فيجب من ذلك أن تكون الحركة متصلة وإذا كانت المستديرة هي وحدها متصلة فيجب أن تكون هي أزلية فيجب أن يكون محرك هذه الحركة المستديرة أيضا أزليا إذ لا يكون ما هو أخس علة لما هو أفضل ولا فائدة في محركات ساكنة غير متحركة كالصور الأفلاطونية فلا ينبغي أن يضع هذه الطبيعة بلا فعل فتكون متعطلة غير قادرة أن تحيل وتحرك

المسألة الثانية عشرة

في كيفية تركب العناصر

حكى فرفريوس عنه أنه قال كل موجود ففعله مثل طبيعته فما كانت طبيعته بسيطة ففعله بسيط والله تعالى واحد بسيط ففعل الله تعالى واحد بسيط وكذلك فعله الإجتلاب إلى الوجود فإنه موجود لكن الجوهر لما كان وجوده بالحركة كان بقاؤه أيضا بالحركة وذلك أنه ليس للجوهر أن يكون موجودا من ذاته بمنزلة الوجود الأول الحق لكن من التشبه بذلك الأول الحق وكل حركة تكون إما أن تكون مستقيمة أو مستديرة فالحركة المستقيمة يجب أن تكون متناهية والجوهر يتحرك في الأقطار الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق على خطوط مستقيمة حركة متناهية فيصير بذلك جسما وبقى عليه أن يتحرك بالاستدارة على الجهة التي يمكن فيها حركة بلا نهاية ولا يسكن في وقت من الأوقات إلا أنه ليس يمكن أن يتحرك بأجمعه حركة على الاستدارة وذلك أن الدائر يحتاج إلى شيء ساكن في وسط منه كالنقطة فانقسم الجوهر فتحرك بعضه على الاستدارة وهو الفلك وسكن بعضه في الوسط

قال وكل جسم يتحرك فيماس جسما ساكنا وفي طبيعته قبول التأثير منه أحدث سخونة فيه وإذا سخن لطف وانحل وخف فكانت طبيعة النار تلي تلك الفلك المتحرك والجسم الذي يلي النار يبعد عن الفلك ويتحرك بحركة النار فتكون حركته أقل

فلا يتحرك بأجمعه لكن جزء منه فيسخن دون سخونة النار وهو الهواء والجسم الذي يلي الهواء لا يتحرك لبعده عن المحرك له فهو بارد لسكون ورطب لمجاورة الهواء الحار الرطب ولذلك إنحل قليلا وهو الماء والجسم الذي في الوسط فإنه بعد في الغاية عن الفلك ولم يستفد من حركته شيئا ولا قبل منه تأثيرا فيبس وبرد وهو الأرض
وإذا كانت هذه الأجسام تقبل التأثير بعضها من بعض وتختلط يتولد عنها أجسام مركبة وهي المركبات المحسوسات التي هي المعادن والنبات والحيوان والإنسان ثم يختص بكل نوع طبيعة خاصة تقبل فيضا خاصا على ما قدره الباري جلت قدرته

المسألة الثالثة عشرة

في الآثار العلوية

قال أرسطو طاليس الذي يتصاعد من الأجسام السفلية إلى الجو ينقسم قسمين أحدهما أدخنة نارية بإسخان الشمسس وغيرها والثاني أبخرة مائية فتصعد إلى الجو وقد صحبتها أجزاء أرضية فتتكاثف وتجتمع بسبب ريح أو غيرها فتصير ضبابا أو سحابا فتصادفها برودة فتعصر ماء وثلجا وبردا فتنزل إلى مركز الماء وذلك لإستحالة الأركان بعضها إلى بعض فكما أن الماء يستحيل هواء فيصعد كذلك الهواء يستحيل ماء فينزل ثم الرياح والأدخنة إذا اختفت في خلال السحاب واندفعت مرة سمع لها صوت وهو الرعد ويلمع من اصطكاكها وشدة صمتها ضياء وهو البرق
وقد يكون من الأدخنة ما تكون الدهنية على مادتها أغلب فيشتعل فيصير شهابا ثاقبا وهي الشهب ومنها ما يحترق في الهواء فيتحجر فينزل حديدا أو حجرا ومنها ما يحترق نارا فيدفعها دافع فينزل صاعقة ومن المشتعلات ما يبقى فيه الاشتعال ووقف تحت كوكب ودارت به النار الدائرة بدوران الفلك فكان ذنبا له وربما كان عريضا فرئي كأنه لحية كوكب وربما وقع على صقيل الظاهر من السحاب صور النيرات وأضواؤها

كما يقع على المرائي والجدران الصقلية فيرى ذلك على أحوال مختلفة بحسب إختلاف بعدها من النير وقربها وصفائها وكدورتها فيرى هالة وقوس قزح وشموس وشهب والمجرة وذكر أسباب كل واحد من هذه في كتابه المعروف بالآثار العلوية والسماء والعالم وغيرهما

المسألة الرابعة عشرة

في النفس الإنسانية الناطقة وإتصالها بالبدن

قال النفس الإنسانية ليست بجسم ولا قوة في جسم وله في إثباتها مآخذ منها الاستدلال على وجودها بالحركات الإختيارية ومنها الاستدلال عليها بالتصورات العلمية

أما الأول فقال لا نشك أن الحيوان يتحرك إلى جهات مختلفة حركة إختيارية إذ لو كانت حركاته طبيعية أو قسرية لتحرك إلى جهة واحدة لا تختلف البتة فلما تحركت إلى جهات متضادة علم أن حركاته إختيارية والإنسان مع أنه مختار في حركاته كالحيوان إلا أنه يتحرك لمصالح عقلية يراها في عاقبة كل أمر فلا تصدر عنه حركاته إلا إلى غرض وكمال وهو في معرفته في عاقبة كل حال والحيوان ليست حركاته بطبعه على هذا النهج فيجب أن يتميز الإنسان بنفس خاص كما تميز الحيوان على سائر الموجودات بنفس خاص

وأما الثاني وهو المعول عليه قال إنا لا نشك أن نعقل ونتصور أمرا معقولا صرفا مثل المتصور من الإنسان أنه إنسان كلي يعم جميع أشخاص النوع ومحل هذا المعقول جوهر ليس بجسم ولا قوة في جسم أو صورة لجسم فإنه إن كان جسما فإما أن يكون محل الصورة المعقولة منه طرفا منه لا ينقسم أو جملته المنقسمة وبطل أن يكون طرفا منه غير منقسم فإنه لو كان كذلك لكان المحل كالنقطة التي لا تميز لها في الوضع عن الخط فإن الطرف نهاية الخط والنهاية لا يكون لها نهاية أخرى وإلا تسلسل

القول فيه فتكون النقط متشافعة ولكل نهاية وذلك محال وإن كان محل المعقول من الجسم شيئا ينقسم فيجب أن ينقسم المعقول بإنقسام محله ومن المعقولات مالا ينقسم البتة فإن ما ينقسم يجب أن يكون شيئا كالشكل والمقدار والإنسانية الكلية المتصورة في الذهن ليست كشكل قابل للقطع ولا كمقدار قابل للفصل فتبين أن النفس ليست بجسم ولا قوة في جسم ولا صورة في جسم

المسألة الخامسة عشرة

في وجه إتصالها بالبدن ووقت إتصالها

قال إذا تحقق أنها ليست بجسم لم تتصل بالبدن إتصال إنطباع فيه ولا حلول فيه بل إتصلت به إتصال تدبير وتصرف وإنما حدثت مع حدوث البدن لا قبله ولا بعده قال لأنها لو كانت موجودة قبل وجود الأبدان لكانت إما متكثرة بذواتها وإما متحدة وبطل الأول فإن المتكثر إما أن يكون بالماهية والصورة وقد فرضناها متفقة في النوع لا إختلاف فيها فلا تكثر ولا تحايز وإما أن تكون متكثرة من جهة النسبة إلى العنصر والمادة المتكثرة بالأمكنة والأزمنة وهذا محال أيضا فإنا إذا فرضناها قبل البدن ماهية مجردة لا نسبة لها إلى مادة دون مادة وهي من حيث إنها ماهية لا إختلاف فيها وأن الأشياء التي ذواتها معان تتكثر تنوعاتها بالحوامل والقوابل والنفعلات عنها وإذا كانت مجردة فمحال أن يكون بينها مغايرة ومكاثرة

ولعمري إنها تبقى بعد البدن متكثرة فإن الأنفس قد وجد كل منها ذاتا منفردة بإختلاف موادها التي كانت وبإختلاف أزمنة حدوثها وبإختلاف هيئات وملكات حصلت عند الإتصال بالبدن فهي حادثة مع حدوث البدن تصيره نوعا كسائر الفصول الذاتية وباقية بعد مفارقة البدن بعوارض معينة له لم توجد تلك العوارض قبل إتصالها بالبدن وبهذا الدليل فارق أستاذه وفارق قدماءه

وقد وجد في أثناء كلامه ما يدل على أنه يعتقد أن النفس كانت موجودة قبل وجود الأبدان فحمل بعض مفسري كلامه قوله ذلك على أنه أراد به الفيض والصور الموجودة بالقوة في واهب الصور كما يقال إن النار موجودة في الحجر والشجر أو الإنسان موجود في النطفة والنخلة موجودة في النواة والضياء موجود في الشمس ومنهم من أجراه على ظاهره وحكم بالتمييز بين النفوس بالخواص التي لها وقال اختصت كل نفس إنسانية بخاصية لم يشاركها فيها غيرها فليست متفقة بالنوع أعني النوع الأخير ومنهم من حكم بالتمييز بالعوارض التي هي مهيأة نحوها وكما أنها تتمايز بالأبدان والصنائع والأفعال وإستعداد كل نفس لصنعة خاصة وعلم خاص فتنهض هذه فصولا ذاتية أو عوارض لازمة لوجودها

المسألة السادسة عشرة

في بقائها بعد البدن وسعادتها في العالم العقلي

قال إن النفوس الإنسانية إذا إستكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالإله سبحانه وتعالى ووصلت إلى كمالها وإنما هذا التشبه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الإستعداد وإما بحسب الإجتهاد فإذا فارق البدن إتصل بالروحانيين وإنخرط في سلك الملائكة المقربين ويتم له الإلتذاذ والإبتهاج وليس كل اللذة فهي جسمانية فإن تلك اللذات لذات نفسانية عقلية وهذه اللذة الجسمانية تنتهي إلى حد ويعرض للملتذ سآمه وكلال وضعف وقصور إن تعدى عن الحد المحدود بخلاف اللذات العقلية فإنها حيثما إزدادت إزداد الشوق والحرص والعشق إليها

وكذلك القول فلا الآلام النفسانية فإنها تقع بالضد مما ذكرنا ولم يحقق المعاد إلا

للأنفس ولم يثبت حشرا ولا نشرا ولا انحلالا لهذا الرباط المحسوس من العالم ولا إبطالا لنظامه كما ذكره القدماء
فهذه نكت كلامه استخرجناها من مواضع مختلفة وأكثرها من شرح ثامسسطيوس وكلام الشيخ أبي على بن سينا الذي يتعصب له وينصر مذهبه ولا يقول من القدماء الا به
وسنذكر طريقة ابن سينا عند ذكر فلاسفة الإسلام إن شاء الله تعالى
ونحن الآن ننقل كلمات حكمية لأصحاب أرسطو طاليس ومن نسج على منواله بعده دون الآراء العلمية إذ لا خلاف بينهم في الآراء والعقائد
ووجدت كلمات وفصولا للحكيم أرسطو طاليس من كتب متفرقة فنقلتها على الوجه الذي وجدت وإن كان في بعضها ما يدل على أن رأيه على خلاف ما نقله ثامسطيوس واعتمده ابن سينا
ومنها في حدوث العالم قال الأشياء المحمولة أعنى الصور المتضادة فليس يكون أحدهما من صاحبه بل يجب أن يكون بعد صاحبه فيتعاقبان على المادة فقد بان أن الصورة تدثر وتبطل وإذا دثر معنى وجب أن يكون له بدء لأن الدثور غاية وهو أحد الجانبين يدل على أن جائيا جاء به فقد صح أن الكون حادث لا من شيء وأن الحامل لها غير ممتنع الذات من قبولها وحمله إياها وهي ذات بدء وغاية يدل على أن حاملها ذو بدء وغاية وأنه حادث لا من شيء ويدل على محدث لا بدء له ولا غاية لأن الدثور آخر والآخر ما كان له أول فلو كانت الجواهر والصور لم يزالا فغير جائز إستحالتهما لأن الإستحالة دثور الصورة التي بها كان الشيء
وخروج الشيء من حد إلى حد ومن حال إلى حال يوجب دثور الكيفية وتردد

المستحيل في الكون والفساد يدل عللى دثوره وحدوث أحواله يدل على إبتدائه وإبتداء جزئه يدل على بدء كله وواجب إن قبل بعض ما في العالم الكون والفساد أن يكون كل العالم قابلا له وكان له بدء يقبل الفساد وآخر يستحيل إلى كون فالبدء والغاية يدلان على المبدع

وقد سأل بعض الدهرية أرسطوطاليس وقال إذا كان لم يزل ولا شيء غيره ثم أحدث العالم فلم أحدثه فقال له لم غير جائزة عليه لأن لم تقتضى علة والعلة محمولة فيما هي علة له من معل فوقه ولا علة فوقه وليس بمركب فتحتمل ذاته العلل فلم عنه منتفية فإنما فعل ما فعل لأنه جواد فقيل فيجب أن يكون فاعلا لم يزل لأنه جوادا لم يزل قال معنى لم يزل أن لا أول وفعل يقتضي أولا واجتماع ما لا أول له وذو أول في القول والذات محال متناقض قيل له فهل يبطل هذا العالم قال نعم قيل فإذا أبطله بطل الجود قال سيبطله ليصوغ الصيغة التي لا تحتمل الفساد لأن هذه الصيغة تحتمل الفساد تم كلامه ويعزى هذا الفصل إلى سقراطيس قاله لبقراطيس وهو بكلام القدماء أشبه ومما نقل عن أرسطوطاليس تحديده العناصر الأربعة قال الحار ما خلط بعض ذوات الجنس ببعض وفرق بين بعض ذوات الجنس من بعض

وقال البارد ما جمع بين ذوات الجنس وغير ذوات الجنس لأن البرودة إذا جمدت الماء حتى يصير جليدا اشتملت على الأجناس المختلفة من الماء والنبات وغيرها

قال والرطب العسير الانحصار من ذاته اليسير الانحصار من ذات غيره واليابس البسير الانحصار من ذاته والعسير الانحصار من ذات غيره والحدان الأولان يدلان على الفعل والآخران يدلان على الانفعال ونقل أرسطوطاليس عن جماعة من الفلاسفة أن مباديء الأشياء هي العناصر الأربعة وعن بعضهم أن المبدأ الأول هو ظلمة وهاوية وفسره بقضاء وخلاء وعماية وقد أثبت قوم من النصارى تلك الظلمة وسموها الظلمة الخارجة

ومما خالف أرسطوطاليس أستاذه أفلاطون أن أفلاطون قال من الناس من يكون طبعه مهيأ لشيء لا يتعداه فخالفه وقال إذا كان الطبع سليما صلح لكل شيء وكان أفلاطون يعتقد أن النفوس الإنسانية أنواع يتهيأ كل نوع لشيء ما لا يتعداه وأرسطو طاليس يعتقد أن النفوس الإنسانية نوع واحد وإذا تهيأ صنف لشيء تهيأ له كل النوع والله الموفق حكم الإسكندر الرومي

وهو ذو القرنين الملك وليس هو المذكور في القرآن بل هو ابن فيلبوس الملك وكان مولده في السنة الثالثة عشرة من ملك دارا الأكبر سلمه أبوه إلى أرسطو طاليس الحكيم المقيم بمدينة إينياس فأقام عنده خمس سنين يتعلم منه الحكمة والأدب حتى بلغ أحسن المبالغ ونال من الفلسفة ما لم ينله سائر تلاميذه فاسترده والده حين استشعر من نفسه علة خاف منها فلما وصل إليه جدد العهد له وأقبل عليه واستولت عليه العلة فتوفي واستقل الإسكندر بأعباء الملك

فمن حكمه أنه سأله معلمه وهو في المكتب إن أفضى إليك هذا الأمر يوما ما فأين تضعني قال بحيث تضعك طاعتك في ذلك الوقت

وقيل له إنك تعظم مؤدبك أكثر من تعظيمك والدك قال لأن أبي كان سبب حياتي الفانية ومؤدبي هو سبب حياتي الباقية وفي رواية لأن أبي كان سبب حياتي ومؤدبي سبب تجويد حياتي وفي رواية لأن أبي كان سبب كوني ومؤدبي كان سبب نطقي

وقال أبو زكريا الصيرمي لو قيل لي هذا لقلت لأن أبي كان قضى وطرا بالطبيعة التي اختلفت بالكون والفساد ومؤدبي أفادني العقل الذي به إنطلقت إلى ما ليس فيه كون ولا فساد

وجلس الإسكندر يوما فلم يسأله أحد حاجة فقال لأصحابه والله ما أعد هذا اليوم من أيام عمري في ملكي قيل ولم أيها الملك قال لأن الملك لا يوجد التلذذ به إلا بالجود على السائل وإغاثة الملهوف ومكافأة المحسن وإلا بإنالة الراغب وإسعاف الطالب
وكتب إليه أرسطو طاليس في كلام طويل أجمع في سياستك بين بدار لا حدة فيه وريث لا غفلة معه وأمزج كل شكل بشكله حتى يزداد قوة وعزة عن ضده حتى يتميز لك بصورته وصن وعدك عن الخلف فإنه شين وشب وعيدك بالعفو فإنه زين وكن عبدا للحق فإن عبد الحق حر وليكن وكدك الإحسان إلى جميع الخلق ومن الإحسان وضع الإساءة في موضعها
وأظهر لأهلك أنك منهم ولأصحابك أنك بهم ولرعيتك أنك لهم
وتشاور الحكماء في أن يسجدوا له إجلالا وتعظيما فقال لا سجود لغير بارىء الكل الكل بل يحق له السجود على من كساه بهجة الفضائل
وأغلظ له رجل من أهل أثينية فقام إليه بعض قواده ليقابله بالواجب فقال له الإسكندر دعه لا تنحط إلى دناءته ولكن إرفعه إلى شرفك
وقال الإسكندر من كنت تحب الحياة لأجله فلا تستعظم الموت بسببه
وقيل له إن روشنك إمرأتك بنت دارا الملك وهي من أجمل النساء فلو قربتها إلى نفسك قال أكره أن يقال غلب الإسكندر دارا وغلبت روشنك الإسكندر
وقال من الواجب على أهل الحكمة أن يسرعوا إلى قبول إعتذار المذنبين وأن يبطئوا عن العقوبة
وقال سلطان العقل على باطن العاقل أشد تحكما من سلطان السيف على ظاهر الأحمق

وقال ليس الموت بألم للنفس بل للجسد
وقال الذي يريد أن ينظر إلى أفعال الله عز وجل مجردة فليعف عن الشهوات
وقال إن نظم جميع ما في الأرض شبيهة بالنظم السماوي لأنها أمثال له بحق
وقال العقل لا يألم في طلب معرفة الأشياء بل الجسد يألم ويسأم
وقال النظر في المرآة يرى رسم الوجه وفي أقاويل الحكماء يرى رسم النفس
ووجدت في عضده صحيفة فيها قلة الإسترسال إلى الدنيا أسلم والإتكال على القدر أروح وعند حسن الظن تقر العين ولا ينفع مما هو واقع التوقي
وقال بعضهم عنه إنه أخذ يوما تفاحة فقال ما ألطف قبول هذه الهيولى الشخصية لصورتها وإنفعالها لما تؤثر الطبيعة فيها من الأوضاع الروحانية من تركيب بسيط وبسط مركب حسب تمثيل النفس لها كل ذلك دليل على إبداع مبدع الكل وإله الكل ولو قيل وألطف منها قبول هذه النفس الإنسانية لصورتها العقلية وإنفعالها لما تؤثر النفس الكلية فيها من العلوم الروحانية من تركيب بسيط وبسط مركب حسب تمثيل العقل لها وكل ذلك دليل على إبداع مبدع الكل وإله الكل
وسأله أطوسايس الكلبي أن يعطيه ثلاث حبات فقال الإسكندر ليست هذه عطية ملك فقال الكلبي أعطني مائة رطل من الذهب فقال ولا هذه مسألة كلبي
وقال بعضهم كنا عند شبر المنجم إذ وصل إلينا الإسكندر الملك فأقامنا في جوف الليل وأدخلنا بستانا له ليرينا النجوم فجعل شبر يشير إليها بيده ويسير حتى سقط في بئر فقال من تعاطى علم ما فوقه بلى يجهل ما تحته

وقال السعيد من لا يعرفنا ولا نعرفه لأنا إذا عرفناه اطلنا يومه وأطرنا نومه وقال استقلل كثير ما تعطي واستكثر قليل ما تأخذ فإن قرة عين الكريم فيما يعطي ومسرة اللئيم فيما يأخذ ولا تجعل الشحيح أمينا ولا الكذاب صفيا فإنه لا عفة مع شح ولا أمانة مع كذب وقال الظفر بالحزم والحزم بإجالة الرأي وإجالة الرأي بتحصين الأسرار

ولما توفي الإسكندر برومية المدائن وضعوه في تابوت من ذهب وحملوه إلى الإسكندرية وكان قد عاش اثنتين وثلاثين سنة وملك اثنتي عشرة سنة وندب جماعة من الحكماء لندبته

فقال بليموس هذا يوم عظيم العبرة أقبل من شره ما كان مدبرا وأدبر من خيره ما كان مقبلا فمن كان باكيا على من قد زال ملكه فليبكه

وقال ميلاطوس خرجنا إلى الدنيا جاهلين وأقمنا فيها غافلين وفارقناها كارهين

وقال زينون الأصغر ياعظيم الشأن ما كنت إلا ظل سحاب إضمحل لما أظل فما تحس لملكك أثرا ولا تعرف له خبرا

وقال أفلاطن الثاني أيها الساعي المغتصب جمعت ما خذلك وتوليت ما تولى عنك فلزمتك أوزاره وعاد على غيرك مهنؤه وثماره

وقال فوطس ألا تتعجبون ممن لم يعظنا إختيارا حتى وعظنا بنفسه إضطرارا

وقال مسطورس قد كنا بالأمس نقدر على الإستماع ولا نقدر على القول واليوم نقدر على القول فهل نقدر على الاستماع

وقال ثاون إنظروا إلى حلم النائم كيف انقضى وإلى ظل الغمام كيف إنجلى

وقال سوس كم قد أمات هذا الشخص لئلا يموت فمات فكيف لم يدفع الموت عن نفسه بالموت

وقال حكيم طوى الأرض العريضة فلم يقنع حتى طوى منها في ذراعين

وقال آخر ما سافر الإسكندر سفرا بلا أعوان ولا آلة ولا عدة غير سفره هذا
وقال آخر ما أرغبنا فيما فارقت وأغفلنا عما عانيت
وقال آخر لم يؤدبنا بكلامه كما أدبنا بسكوته
وقال آخر من ير هذا الشخص فليتق وليعلم أن الديون هكذا قضاؤها
وقال آخر قد كان بالأمس طلعته علينا حياة واليوم النظر إليهم سقيم
وقال آخر قد كان يسأل عما قبله ولا يسأل عما بعده
وقال آخر من شدة حرصه على الإرتفاع إنحط كله
وقال آخر الآن تضطرب الأقاليم لأن مسكنها قد سكن
وقال آخر الآن وقت الإنصراف لأن الأشخاص يتوجهون من دار إلى دار والله تعالى يبقى ولا يفنى

حكم ديوجانس الكلبي

وكان حكيما فاضلا متقشفا لا يقتني شيئا ولا يأوى إلى منزل وكأنه من قدرية الفلاسفة لما يوجد في مدارج كلامه من الميل إلى القدر قال ليس الله تعالى علة الشرور بل الله تعالى علة الخيرات والفضائل والجود والعقل جعلها بين خلقه فمن كسبها وتمسك بها نالها لأنه لا يدرك الخيرات إلا بها
وسأله الإسكندر يوما فقال بأي شيء يكتسب الثواب قال بأفعال الخيرات وإنك لتقدر أيها الملك أن تكتسب في يوم واحد مالا تقدر الرعية أن تكسبه في دهرها
وسأله عصبة من أهل الجهل ما غذاؤك قال ما عفتم يعني الحكمة
قالوا فما عفت قال مااستطبتم يعني الجهل قالوا كم عبدا لك
قال أربابكم يعني الغضب والشهوة والأخلاق الرديئة الناشئة منهما
وقال له يوما ما أقبح صورتك قال لم أملك الخلقة الذميمة فالأم عليها

ولا ملكتم الخلقة الحسنة فتحمدوا عليها وأما ما صار في ملكي وأتى عليه تدبيري فقد استكملت تزيينه وتحسينه بغاية الطوق وقاصية الجهد واستكملتم شين ما في ملككم قالوا فما الذي في الملك من التزيين والتهجين قال أما التزيين فعمارة الذهن بالحكمة وجلاء العقل بالأدب وقمع الشهوة بالعفاف وردع الغضب بالحلم وقطع الحرص بالقنوع وإماتة الحسد بالزهد وتذليل المرح بالسكون ورياضة النفس حتى تصير مطية قدارتاضت فتصرفت حيث صرفها فارسها في طلب العليات وهجر الدنيات ومن التهجين تعطيل الذهن من الحكمة وتوسيخ العقل بضياع الأدب وإثارة الشهوة بإتباع الهوى وإضرام الغضب بالانتقام وإمداد الحرص بالطلب

وقدم إليه رجل طعاما وقال له إستكثر منه فقال عليك بتقديم الأكل وعلينا باستعمال العدل

وقال زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب وباب الأمن مستور بالخوف فلا تكونن في حال من هذه الثلاث غير متوقع لضدها

وقيل له مالك لا تغضب قال أما غضب الإنسانية فقد أغضبه وأما غضب البهيمية فقد تركته لترك الشهوة البهيمية

وإستدعاه الملك الإسكندر يوما إلى مجلسه فقال للرسول قل له إن الذي منعك من المصير إلينا هو الذي منعنا من المصير إليك منعك إستغناؤك عني بسلطانك ومنعني إستغنائي عنك بقناعتي

وعابته امرأة يونانية بقبح الوجه ودمامة الصورة فقال منظر الرجال بعد المخبر ومخبر النساء بعد المنظر فخجلت وتابت

ووقف عليه الإسكندر يوما فقال له ما تخافي قال أنت خير أم شرير قال بل خير قال فما لخوفي من الخير معنى بل يجب على رجاؤه

وكان لأهل مدينة من بلاد يونان صاحب جيش جبان وطبيب لم يعالج أحدا إلا

قتله فظهر عليهم عدو ففزعوا إليه فقال إجعلوا طبيبكم صاحب لقاء العدو واجعلوا صاحب جيشكم طبيبكم
وقال أعلم أنك ميت لا محالة فاجتهد أن تكون حيا بعد موتك لئلا تكون لميتتك ميتة ثانية
وقال كما أن الأجسام تعظم في العين في اليوم الضباب كذلك تعظم الذنوب عند الإنسان في حال الغضب
وسئل عن العشق فقال هو إختيار صادف نفسا فارغة
ورأى غلاما معه سراج فقال له تعلم من أين تجيء هذه النار فقال له الغلام إن أخبرتني إلى أين تذهب أخبرتك من أين تجيء فأعياه وأفحمه بعد ان لم يكن يقوى عليه أحد
ورأى إمرأة قد حملها الماء فقال على هذا المعنى جرى المثل دع الشر يغسله الشر
ورأى إمرأة تحمل نارا فقال نار على نار وحامل شر من محمول
ورأى امرأة متزينة في ملعب فقال لم تخرج لترى ولكن لترى
ورأى نساء يتشاورن فقال على هذا جرى المثل هو ذا الثعبان يستقرض من الأفاعي سما
ورأى جارية تتعلم الكتابة فقال يسقى هذا السهم سما ليرمي به يوما ما
ورأى امرأة ضاحكة فقال لو كنت تدرين الموت لما كنت ضاحكة أبدا
وقال للإسكندر يوما وكان يقربه ويدنيه ويأنس بكلامه أيها الملك قد أمنت الفقر فليكن غناك إقتناء الحمد وإبتغاء المجد

حكم الشيخ اليوناني
وله رموز وأمثال منها قوله إن أمك رءوم ولكنها فقيرة رعناء وإن أباك لحدث سكنه جواد مقدر يعني بالألم الهيولى وبالأب الصورة وبالرءوم انقيادها وبالفقر إحتياجها إلى الصورة وبالرعونة قلة ثباتها على ما تحصل عليه وأما حداثة الصورة أي هي مشرقة لك بملابسة الهيولى
وأما وجودها أي النقص لا يعتريها من قبل ذاتها فإنها جواد لكن من قبل قبول الهيولى فإنها إنما تقبل على تقديرها وهذا ما فسر به رمزة ولغزه
وحمل الأم على الهيولى صحيح مطابق للمعنى وليس حمل الأب على الصورة بذلك الوضوح بل حمله على العقل الفعال الجواد الواهب للصور على قدر استعدادات القوابل أظهر
وقال لك نسبان نسب إلى ابيك ونسب إلى أمك أنت بأحدهما أشرف وبالآخر أوضع فانتسب في ظاهرك وباطنك إلى من أنت به أشرف وتبرأ في باطنك وظاهرك ممن أنت به أوضع فإن الولد الفسل يحب أمه أكثر مما يحب أباه وذلك دليل على دخل العرق وفساد المحتد قيل أراد بذلك الهيولى والصورة أو البدن والنفس أو الهيولى والعقل الفعال
وقال قد إرتفع إليك خصمان منك يتنازعان فيك أحدهما محق والآخر مبطل فاحذر أن تقضي بينهما بغير الحق فتهلك أنت
والخصمان أحدهما العقل والثاني الطبيعة
وقال كما أن البدن الخالي من النفس يفوح منه نتن الجيفة كذلك النفس الخالية من الأدب يحس نقصها بالكلام والأفعال
وقال الغائب المطلوب في طي الشاهد الحاضر وقال أبو سليمان السجزي مفهوم

هذا الإطلاق أن كل ما هو عندنا بالحس ههنا فهو بالعقل لنا هناك إلا أن الذي عندنا ظل ذاك ولأن من شأن الظل أنه كما يريك الشيء الذي هو ظله مرة فاضلا عما هو عليه ومرة قالصا عما هو به ومرة على قدره عرض الحسبان والتوهم وصارا مزاحمين لليقين والتحقيق فينبغي أن تكون عنايتنا بطلب البقاء الأبدي والوجود السرمدي أتم وأظهر وأبقى وأبلغ فبالحق ما كان الغائب طي الشاهد وبتصفح هذا الشاهد يصح ذلك الغائب

وقال الشيخ اليوناني النفس جوهر كريم شريف يشبه دائرة قد دارت على مركزها غير أنها دائرة لا بعد لها ومركزها هو العقل وكذلك العقل هو كدائرة قد إستدارت على مركزها وهو الخير الأول المحض غير أن النفس والعقل وإن كانا دائرتين لكن دائرة العقل لا تتحرك أبدا بل هي ساكنة ذاتية شبيهة بمركزها

وأما دائرة النفس فإنها تتحرك على مركزها وهو العقل حركة الإستكمال على أن دائرة العقل وإن كانت دائرة شبيهة بمركزها لكنها تتحرك حركة الاشتياق لأنها تشتاق إلى مركزها وهو الخير الأول وأما دائرة العالم السفلي فإنها تدور حول النفس وإليها تشتاق وإنها تتحرك بهذه الحركة الذاتية شوقا إلى النفس كشوق النفس إلى العقل وشوق العقل إلى الخير المحض الأول ولأن دائرة هذا العالم جرم والجرم يشتاق إلى الشيء الخارج منه ويحرص على أن يصير إليه فيعانقه فلذلك يتحرك الجرم الأقصى الشريف حركة مستديرة لأنه يطلب النفس من جميع النواحي لينالها فيستريح إليها ويسكن عندها

وقال ليس للمبدع الأول تعالى صورة ولا حلية مثل صور الأشياء العالية ولا مثل صور الأشياء السافلة ولا له قوة مثل قواها لكنه فوق كل صورة وحليه وقوة لأنه مبدعها بتوسط العقل

وقال المبدع الحق ليس شيئا من الأشياء وهو جميع الأشياء لأن الأشياء منه وقد صدق الأفاضل الأوائل في قولهم مالك الأشياء كلها هو الأشياء كلها إذ هو علة

كونها بآنيته فقط وعلة شوقها إليه وهو خلاف الأشياء كلها وليس فيه شيء مما أبدعه ولا يشبه شيئا منه ولو كان كذلك لما كان علة الاشياء كلها وإذا كان العقل واحدا من الأشياء فليس فيه عقل ولا صورة ولا حلية

أبدع الأشياء بآنيته فقط وبآنيته يعلمها ويحفظها ويدبرها لا بصفة من الصفات وإنما وصفناه بالحسنات والفضائل لأنه علتها وأنه الذي جعلها في الصور فهو مبدعها قال وإنما تفاضلت الجواهر العالية العقيلة لإختلاف قبولها من النور الأول جل وعز فلذلك صارت ذوات مراتب شتى فمنها ما هو أول في المرتبة ومنها ما هو ثان ومنها ما هو ثالث فاختلفت الأشياء بالمراتب والفصول لا بالمواضع والأماكن وكذلك الحواس تختلف بأماكنها على أنها القوى الحاسة فإنها مما لا يفترق بمفارقة الآلة وقال المبدع ليس بمتناه لا كأنه جثة بسيطة وإنما عظم جوهره بالقوة والقدرة لا بالكمية والمقدار فليس للأول صورة ولا حلية ولا شكل فلذلك صار محبوبا معشوقا تشتاقه الصور العالية والسافلة وإنما إشتاقت إليه جميع الأشياء لأنه أبدعها وكساها من وجوده حلية الوجود

وهو قديم دائم على حاله لا يتغير والعاشق يحرص على أن يصير إليه ويكون معه وللمعشوق الأول عشاق كثيرون وقد يفيض عليهم كلهم من نوره من غير أن ينقص منه شيء لأنه ثابت قائم بذاته لا يتحرك

وأما المنطق الجزئي فإنه لا يعرف الشيء إلا معرفة جزئية وشوق العقل الأول إلى المبدع الأول أشد من شوق سائر الأشياء لأن الأشياء كلها تحته وإذا إشتاق إليه العقل لم يقل للعقل لم صرت مشتاقا إلى الأول إذ العشق لا علة له

وأما المنطق الذي يختص بالنفس فيفحص عن ذلك ويقول إن الأول هو المبدع

الحق وهو الذي لا صورة له وهو مبدع الصور فالصور كلها تحتاج إليه وتشتاق إليه أن كل صورة تطلبت مصورها وتحن إليه
وقال إن الفاعل الأول أبدع الأشياء كلها بغاية الحكمة لا يقدر أحد أن ينال علل كونها ولم كانت على الحال التي هي الآن عليها ولا أن يعرفها كنه معرفتها ولم صارت الأرض في الوسط ولم كانت مستديرة ولم تكن مستطيلة ولا منحرفة إلا أن يقول إن الباري صيرها كذلك وإنما كانت بغاية الحكمة الواسعة لكل حكمة
وكل فاعل يفعل بروية وفكرة لا بآنيته فقط بل يفصل فيه فلذلك يكون فعله لا بغاية الثقافة والإحكام والفاعل الأول لا يحتاج في إبداع الأشياء إلى روية وفكر وذلك أنه ينال العلل بلا قياس بل يبدع الأشياء ويعلم عللها قبل الروية والفكر
والعلل والبرهان والعلم والقنوع وسائر ما أشبه ذلك إنما كانت أجزاء وهو الذي أبدعها وكيف يستعين بها وهي لم تكن بعد

٥ – حكم ثاوفرسطيس

كان هذا الرجل من كبار تلامذة أرسطو طاليس وكبار أصحابه وإستخلفه على كرسي حكمته بعد وفاته وكانت المتفلسفة في عهده تختلف إليه وتقتبس منه وله كتب الشروح الكثيرة والتصانيف المعتبرة وبالخصوص في الموسيقات
فما يؤثر عنه أنه قال الإلهية لا تتحرك ومعناه لا تتغير ولا تتبدل لا في الذات ولا في سنة الأفعال
وقال السماء مسكن الكواكب والأرض مسكن الناس على أنهم مثل وشبه لما في السماء فهم الآباء والمدبرون ولهم نفوس وعقول ليس لها أنفس نباتية فلذلك لا تقبل الزيادة ولا النقصان

وقال الغناء فضيلة في المنطق أشكلت على النفس وقصرت عن تبيين كنهها فأبرزتها لحونا وأثارت بها شجونا وأضمرت في عرضها فنونا وفتونا
وقال الغناء شيء يخص النفس دون الجسد فيشغلها عن مصالحها كما أن لذة المأكول والمشروب شيء يخص الجسم دون النفس
وقال إن النفوس إلى اللحون إذا كانت محجبة أشد إصغاء منها إلى ما قد تنين لها وظهر معناه عندها
وقال إن العقل نحوان أحدهما مطبوع والآخر مسموع فالمطبوع منه كالأرض والمسموع منه كالبذر والماء فلا يخلص للعقل المطبوع عمل دون أن يرد عليه العقل المسموع فينبهه من نومه ويطلقه من وثاقه ويقلقله من مكانه كما يستخرج البذر والماء ما في قعر الأرض
وقال الحكمة غنى النفس والمال غنى البدن وطلب غنى النفس أولى لأنها إذا غنيت بقيت والبدن إذا غنى فنى وغنى النفس ممدود وغنى البدن محدود
وقال ينبغي للعاقل أن يداري الزمان مداراة رجل لا يسبح في الماء الجاري إذا وقع
وقال لا يغبطن بسلطان من غير عدل ولا بغنى من غير حسن تدبير ولا ببلاغة من غير صدق منطق ولا بجود في غير إصابة موضع ولا بأدب من غير أصالة رأي ولا بحسن عمل في غير حينه

٦ – شبه برقلس في قدم العالم
إن القول في قدم العالم وأزلية الحركات بعد إثبات الصانع والقول بالعلة الأولى إنما شهر بعد أرسطوطاليس لأنه خالف القدماء صريحا وأبدع هذه المقالة على قياسات ظنها حجة وبرهانا فنسبح على منواله من كان من تلامذته وصرحوا القول فيه مثل الإسكندر الأفروديسي وثامسطيوس وفورفوريوس
وصنف فورقلس المنتسب إلى أفلاطون في هذه المسألة كتابا وأورد فيه هذه الشبه وإلا فالقدماء إنما أبدوا فيه ما نقلناه سالفا
الشبهة الأولى قال إن الباري تعالى جواد بذاته وعلة وجود العالم جوده وجوده قديم لم يزل فيلزم أن يكون وجود العالم قديما لم يزل
قال ولا يجوز أن يكون مرة جوادا ومرة غير جواد فإنه يوجب التغير في ذاته فهو جواد لذاته لم يزل قال ولا مانع من فيض جوده إذ لو كان مانع لما كان من ذاته بل من غيره وليس لواجب الوجود لذاته حامل على شيء ولا مانع من شيء
الشبهة الثانية قال ليس يخلو والصانع من أن يكون لم يزل صانعا بالفعل أو لم يزل صانعا بالقوة أي يقدر أن يفعل ولا يفعل فإن كان الأول فالمصنوع معلول لم يزل وإن كان الثاني فما بالقوة لا يخرج إلى الفعل إلا بمخرج ومخرج الشيء من القوة إلى الفعل غير ذات الشيء فيجب أن يكون له مخرج من خارج يؤثر فيه وذلك ينافي كونه صانعا مطلقا لا يتغير ولا يتأثر
الشبهة الثالثة قال كل علة لا يجوز عليها التحرك والإستحالة فإنما تكون علة من جهة ذاتها لا من جهة الإنتقال من غير فعل إلى فعل وكل علة من جهة ذاتها فمعلولها من جهة ذاتها وإذا كانت ذاتها لم تزل فمعلولها لم يزل

الشبهة الرابعة قال إن الزمان لا يكون موجودا إلا مع الفلك ولا الفلك إلا مع الزمان لأن الزمان هو العاد لحركات الفلك ثم لا يجوز أن يقال متى وقبل إلا حين يكون الزمان ومتى وقبل أبدى فالزمان أبدى فحركات الفلك أبدية فالفلك أبدي

الشبهة الخامسة قال إن العالم حسن النظام كامل القوام وصانعه جواد خير ولا ينقص الجيد الحسن إلا شرير وصانعه ليس بشرير وليس يقدر على نقضه غيره فليس ينتقض أبدا وما لا ينتقض أبدا كان سرمدا

الشبهة السادسة قال لما كان الكائن لا يفسد إلا بشيء غريب يعرض له ولم يكن شيء غريب عن العالم خارجا منه يجوز أن يعرض فيفسد ثبت أنه لا يفسد وما لا يتطرق إليه الفساد لا يتطرق إليه الكون والحدوث فإن كل كائن فاسد

الشبهة السابعة قال إن الأشياء التي هي في المكان الطبيعي لا تتغير ولا تتكون ولا تفسد وإنما تتغير وتتكون وتفسد إذا كانت في أماكن غريبة فتتجاذب إلى أماكنها كالنار التي في أجسادنا تحاول الإنفصال إلى مركزها فينحل الرباط فيفسد إذ الكون والفساد إنما يتطرق إلى المركبات لا إلى البسائط التي هي أركان في أماكنها ولكنها هي بحالة واحدة وما هو بحال واحدة فهو أزلي

الشبهة الثامنة قال العقل والنفس والأفلاك تتحرك على الإستدارة والطبائع تتحرك إما عن الوسط وإما إلى الوسط على الإستقامة وإذا كان كذلك كان التفاسد في العناصر إنما هو لتضاد حركاتها والحركة الدورية لا ضد لها فلم يقع فيها فساد قال وكليات العناصر إنما تتحرك على استدارة وإن كانت الأجزاء منها تتحرك على الإستقامة فالفلك وكليات العناصر لا تفسد وإذا لم يجز أن يفسد العالم لم يجز أن يتكون

وهذه الشبهات هي التي يمكن أن يقال عنها فتنقض وفي كل واحدة منها نوع مغالطة وأكثرها تحكمات وقد أفردت لها كتابا أوردت فيه شبهات أرسطو طاليس

وهذه تقريرات أبي علي بن سينا ونقضها على قوانين منطقية فليطلب ذلك
ومن المتعصبين لبرقلس من مهد له عذرا في ذكر هذه الشبهات وقال إنه كان يناطق الناس منطقين أحدهما روحاني بسيط والآخر جسماني مركب وكان أهل زمانه الذين يناطقونه جسمانيين وإنما دعاه إلى ذكر هذه الأقوال مقاومتهم إياه فخرج من طريق الحكمة والفلسفة من هذه الجهة لأن من الواجب على الحكيم أن يظهر العلم على طرق كثيرة يتصرف فيها كل ناظر بحسب نظره ويستفيد منها بحسب فكره وإستعداده فلا يجدوا على قوله مسلخا ولا يصبوا مقالا ولا مطعنا لأن برقلس لما كان يقول بدهر هذا العالم وأنه باق لا يدثر وضع كتابا في هذا المعنى فطالعه من لم يعرف طريقته ففهموا منه جسمانية قوله دون روحانيته فنقضوه على مذهب الدهرية وفي هذا الكتاب يقول لما إتصلت العوالم بعضها ببعض وحدثت القوى الواصلة فيها وحدثت المركبات من العناصر حدثت قشور وإستنبطت لبوب فالقشور دائرة واللبوب قائمة دائمة لا يجوز الفساد عليها أنها بسيطة وحيدة القوى
فإنقسم العالم إلى عالمين علم الصفوة واللب وعالم الكدورة والقشر فإتصل بعضه ببعض وكان آخر هذا العالم من بدء ذلك العالم فمن وجه لم يكن بينهما فرق فلم يكن هذا العالم داثرا إذ كان متصلا بما ليس يدثر ومن وجه دثرت القشور وزالت الكدرة وكيف تكون القشور غير داثرة ولا مضمحلة وما لم تزل القشور باقية كانت اللبوب خافية وأيضا فإن هذا العالم مركب والعالم الأعلى بسيط وكل مركب ينحل حتى يرجع إلى البسيط الذي تركب منه وكل بسيط باق دائما غير مضمحل ولا متغير
اقل الذي يذب عن برقلس هذا الذي نقل عنه هو المنقول عن مثله بل الذي أضاف إليه هذا القول الأول لا يخلو من أحد أمرين إما أنه لم يقف على مرامه للعلة التي ذكرنا فيما سلف وإما لأنه كان محسودا عند أهل زمانه لكونه بسيط الفكر واسع النظر ساير القوى وكانوا أولئك أصحاب اوهام وخيالات فإنه يقول في موضع من

كتابه إن الأوائل منها تكونت العوالم وهي باقية لا تدثر ولا تضمحل وهي لازمة الدهر ماسكة له إلا أنها من أول واحد لا يوصف بصفة ولا يدرك بنعت ونطق لأن صور الأشياء كلها منه وتحته وهي الغاية والمنتهى التي ليس فوقها جوهر هو أعظم منها إلا الأول الواحد وهو الأحد الذي قوته أخرجت هذه الأوائل وقدرته أبدعت هذه المبادىء وقال أيضا إن الحق لا يحتاج إلى أن يعرف ذاته لأنه حق حقا بلا حق وكل حق حقا فهو تحته إنما هو حق حقا إذ حققه الموجب له الحق فالحق هو الجوهر الممد للطباع الحياة والبقاء وهو أفاد هذا العالم بدءا وبقاء بعد دثور قشوره وزكى البسيط الباطن من الدنس الذي كان فيه قد علق به وقال إن هذا العالم إذا إضمحلت قشوره وذهب دنسه وصار بسيطا روحانيا بقى بما فيه من الجواهر الصافية النورانية في حد المراتب الروحانية مثل العوالم العلوية التي بلا نهاية وكان هذا واحدا منها

وبقي جوهر كل قشر ودنس وخبث ويكون له أهل يلبسه لأنه غير جائز أن تكون الأنفس الطاهرة التي لا تلبس الأدناس والقشور مع الأنفس الكثيرة القشور في عالم واحد وإنما يذهب من هذا العالم ما ليس من جهة المتوسطات الروحانية وما كان القشر والدنس عليه أغلب فأما ما كان من الباري تعالى بلا متوسط أو كان من متوسط بلا قشر فإنه لا يضمحل قال وإنما يدخل القشر على الشيء من غير المتوسطات فيدخل عليه بالعرض لا بالذات وذلك إذا كثرت المتوسطات وبعد الشيء عن الإبداع الأول لأنه حيثما قلت المتوسطات في الشيء كان أنور وأقل قشورا ودنسا وكلما قلت القشور والدنس كانت الجواهر أصفى والأشياء أرقى

ومما ينقل عن برقلس أنه قال إن الباري تعالى عالم بالأشياء كلها أجناسها وأنواعها وأشخاصها وخالف بذلك أرسطو طاليس فإنه قال يعلم أجناسها وأنواعها دون أشخاصها الكائنة الفاسدة فإن علمه يتعلق بالكليات دون الجزئيات كما ذكرنا

ومما ينقل عنه في قدم العالم قوله لن يتوهم حدوث العالم إلا بعد أن يتوهم أنه لم يكن فأبدعه الباري تعالى في الحالة التي لم يكن وفي الحالة التي لم يكن لا يخلو من حالات ثلاث

إما أن الباري لم يكن قادرا فصار قادرا وذلك محال لأنه قادر لم يزل

٢ وإما أنه لم يرد فأراد وذلك محال أيضا لأنه مريد لم يزل

٣ وإما أنه لم تقتض الحكمة وجوده وذلك محال أيضا لأن الوجود أشرف من العدم على الإطلاق

فإذا بطلت هذه الجهات الثلاث تشابها في الصفة الخاصة وهي القدم على أصل المتكلم وكان القدم بالذات له دون غيره وإن كانا معا في الوجود والله الموفق

٧ – رأي ثامسطيوس

وهو الشارح لكلام الحكيم أرسطو طاليس وإنما يعتمد شرحه إذ كان أهدى القوم إلى إشاراته ورموزه وهو على رأي أرسطو طاليس في جميع ما ذكرنا من إثبات العلة الأولى وإختار من المذاهب في المبادىء قول من قال إن المبادىء ثلاثة الصورة والهيولى والعدم وفرق بين العدم المطلق والعدم الخاص فإن عدم صورة بعينها عن مادة تقبلها مثل عدم السيفية عن الحديد ليس كعدم السيفية عن الصوف فإن هذا المادة لا تقبل هذه الصورة أصلا

وقال إن الأفلاك حصلت من العناصر الأربعة لا أن العناصر حصلت من الأفلاك ففيها نارية وهوائية ومائية وأرضية إلا أن الغالب على الأفلاك هو النارية كما أن الغالب على المركبات السفلية هو الأرضية والكواكب نيران مشتعلة حصلت تراكيبها على وجه لا يتطرق إليها الإنحلال لأنها لا تقبل الكون والفساد والتغير والإستحالة وإلا فالطبائع واحدة والفرق يرجع إلى ما ذكرنا

ونقل ثامسطيوس عن أرسطو طاليس وثاون وأفلاطون وثاوفرسطيس وفرفوريوس وفلوطرخيس وهو رأيه أن في العالم أجمع طبيعة واحدة عامة وكل نوع من أنواع النبات والحيوان مختص بطبيعة خاصة وحدوا الطبيعة العامة بأنها مبدأ الحركات في الأشياء والسكون فيها على الأمر الأول ممن ذواتها وهي علة الحركة في المتحركات وعلة السكون فيها على الأمر الأول من ذواتها وهي علة الحركة في المتحركات وعلة السكون في الساكنات وزعموا أن الطبيعة هي التي تدبر الأشياء كلها في العالم حيوانه ونباته ومواته تدبيرا طبيعيا وليست هي حية ولا قادرة ولا مختارة ولكن لا تفعل إلا حكمة وصوابا وعلى نظم صحيح وترتيب محكم

قال ثامسطيوس قال أرسطو طاليس في مقالة اللام إن الطبيعة تفعل ما تفعل من الحكمة والصواب وإن لم تكن حيوانا لأنها الهمت من سبب هو أكرم منها وأومأ إلى أن السبب هو الله عز وجل وقال أيضا إن الطبيعة طبيعتان طبيعة ن هي مستعلية على الكون والفساد بكليتها وجزئيتها يعني الفلك والنهيرات وطبيعة يلحق جزئياتها الكون والفساد لا كلياتها يريد بالجزئيات الأشخاص وبالكليات الأسطقسات

٨ – رأي الإسكندر الأفروديسي

وهو من كبار الحكماء رأيا وعلما وكلامه أمتن ومقالته أرصن وافق أرسطو طاليس في جميع آرائه وزاد عليه في الإحتجاج على أن الباري تعالى عالم بالأشياء كلها كلياتها وجزئياتها على نسق واحد وهو عالم بما كان وبما سيكون ولا يتغير علمه بتغير المعلوم ولا يتكثر بتكثره

ومما إنفرد به أن قال كل كوكب ذو نفس وطبع وحركة من جهة نفسه وطبعه ولا يقبل التحريك من غيره أصلا بل إنما يتحرك بطبعه وإختياره إلا أن حركاته لا تختلف أبدا لأنها دورية

وقال لما كان الفلك محيطا بما دونه وكان الزمان جاريا عليه لأن الزمان هو العاد للحركات أو هو عدد الحركات ولما لم يكن يحيط بالفلك شيء آخر ولا كان الزمان جاريا عليه لم يجز أن يفسد الفلك ويكون فلم يكن قابلا للكون والفساد وما لم يقبل الكون والفساد كان قديما أزليا

وقال في كتابه في النفس إن الصناعة تتقبل الطبيعة وإن الطبيعة لا تتقبل الصناعة

وقال للطبيعة لطف وقوة وإن أفعالها تفوق في البراعة واللطف كل أعجوبة يتلطف فيها بصناعة من الصناعات

وقال في ذلك الكتاب لا فعل للنفس دون مشاركة البدن حتى التصور بالعقل فإنه مشترك بينهما وأومأ إلى أنه لا يبقى للنفس بعد مفارقتها قوة أصلا حتى القوى العقلية وخالف بذلك أستأذه أرسطو طاليس فإنه قال الذي يبقى مع النفس من جميع مالها من القوى هي القوى العقلية فقط ولذاتها في ذلك العالم مقصورة على اللذات العقلية فقط إذ لا قوة لها دون ذلك فتحس وتلتذ بها والمتأخرون يثبتون بقاءها على هيئات أخلاقية إستفادتها من مشاركة البدن لتستعد بها لقبول هيئات ملكية في ذلك العالم

٩ – رأي فرفريوس

وهو أيضا على رأي أرسطو طاليس في جميع ما ذهب إليه وهو الشارح لكلام أرسطو طاليس أيضا وإنما يعتمد شرحه إذ كان أهدى القوم إلى إشاراته وجميع ما ذهب إليه ويدعي أن الذي يحكي عن أفلاطون من القول بحدوث العالم غير صحيح قال في رسالته إلى أبانوا وأما ماقذف به أفلاطون عندكم من أنه يضع للعالم إبتداء زمانيا فدعوى كاذبة وذلك أن أفلاطون ليس يرى أن للعالم إبتداء زمانيا لكن إبتداء على جهة العلة ويزعم أن علة كونه إبتداؤه

وقد أرى أن المتوهم عليه في قوله إن العالم مخلوق وإنه حدث من لا شيء وأنه خرج من لا نظام إلى نظام فقد أخطأ وغلط وذلك أنه لا يصح دائما أن كل عدم أقدم من الوجود فيما علة وجود شيء آخر غيره ولا كل سوء نظام أقدم من النظام
وإنما يعني أفلاطون أن الخالق اظهر العالم من العدم إلى الوجود وإن وجد أنه لم يكن من ذاته لكن سبب وجوده من الخالق قال وقال في الهيولى إنها أمر قابل للصور وهي كبيرة وصغيرة وهما في الموضوع والحد واحد ولم يبين العدم كما ذكره أرسطو طاليس إلا أنه قال الهيولى لا صورة لها فقد علم أن عدم الصورة في الهيولى وقال إن المركبات كلها إنما تتكون بالصور على سبيل التغير وتفسد بخلو الصور عنها
وزعم فرفويوس أن من الأصول الثلاثة التي هي الهيولى والصورة والعدم أن كل جسم إما ساكن وإما متحرك وههنا شيء يكون ما يتكون ويحرك الأجسام وكل ما كان واحدا بسيطا ففعله واحد بسيط وكل ما كان كثيرا مركبا فأفعاله كثيرة مركبة وكل موجود ففعله مثل طبيعته ففعل الله بذاته فعل واحد بسيط وباقي أفعاله يفعلها بمتوسط مركب قال وكل ما كان موجودا فله فعل من الأفعال مطابق لطبيعته
ولما كان الباري تعالى موجودا ففعله الخاص هو الإجتلاب إلى الوجود ففعل فعلا واحدا وحرك حركة واحدة وهو الإجتلاب إلى شبهه يعني الوجود ثم إما أن يقال كان المفعول معدوما يمكن أن يوجد وذلك هو طبيعة الهيولى بعينها فيجب أن يسبق الوجود طبيعة ما قابلة للوجود وإما أن يقال لم يكن معدومات يمكن أن يوجد بل أوجده عن
لاشيء وأبدع وجوده من غير توهم شيء سبقه وهو ما يقوله الموحدون
قال فأول فعل فعله هو الجوهر إلا أن كونه جوهرا وقع بالحركة فوجب أن يكون بقاؤه جوهرا بالحركة وذلك أنه ليس للجوهر أن يكون بذاته بمنزلة الوجود

الأول لكن من التشبه بذلك الأول وكل حركة تكون فإما أن تكون على خط مستقيم وإما على الإستدارة فتحرك الجوهر بهاتين الحركتين ولما كان وجود الجوهر بالحركة وجب أن يتحرك الجوهر في جميع الجهات التي يمكن فيها الحركة فيتحرك جميع الجوهر في جميع الجهات حركة مستقيمة على جميع الخطوط وهي ثلاثة الطول والعرض والعمق إلا أنه لم يكن له أن يتحرك على هذه الخطوط بلا نهاية إذ ليس يمكن فيما هو بالفعل أن يكون بلا نهاية فتحرك الجوهر في هذه الأقطار الثلاثة حركة متناهية على خطوط مستقيمة وصار بذلك جسما وبقى عليه أن يتحرك بالاستدارة على الجهة التي يمكن فيها أن يتحرك بأجمعه حركة على الإستدارة لأن الدائر يحتاج إلى شيء ساكن في وسط منه فعند ذلك انقسم الجوهر فتحرك بعضه على الإستدارة وسكن بعضه في الوسط قال كل جسم يتحرك فيماس جسما ساكنا في طبيعته قبول التأثير منه حركة معه وإذا حركه سخن وإذا سخن لطف وإنحل وخف فكانت النار تلي الفلك والجسم الذي يلي النار يبعد عن الفلك ويتحرك بحركة النار فتكون حركته أقل فلا يتحرك لذلك بأجمعه لكن جزء منه فيسخن دون سخونة النار وهو الهواء والجسم الذي يلي الهواء لا يتحرك لبعده عن المحرك فهو بارد لسكونه وحار حرارة يسيرة بمجاورته الهواء ولذلك إنحل قليلا وهو الماء وأما الجسم الذي يلي الماء في الوسط فلأنه بعد في الغاية عن الفلك ولم يستفد من حركته شيئا ولا قبل منه تأثيرا سكن وبرد وهذه هي الأرض وإذا كانت هذه الأجسام تقبل التأثير بعضها من بعض اختلطت وتولد عنها أجسام مركبة وهذه هي الأجسام المحسوسة

وقال الطبيعة تفعل بغير فكر ولا عقل ولا إرادة ولكنها ليست تفعل بالبخت والإتفاق والخبط بل لا تفعل إلا ماله نظم وترتيب وحكمة وقد تفعل شيئا من أجل شيء كما تفعل البر لغذاء الإنسان وتهيء أعضاءه لما يصلح له

وقد قسم فرفريوس مقالة أرسطو طاليس في الطبيعة خمسة أقسام أحدها العنصر والثاني الصورة والثالث المجتمع منها كالإنسان والرابع الحركة الجاذبة في الشيء بمنزلة حركة النار الكائنة الموجودة فيها إلى فوق والخامس الطبيعة العامة للكل لأن الجزئيات لا يتحقق وجودها إلا عن كل يشملها ثم إختلفوا في مركزها فمن الحكماء من صار إلى أنها فوق الكل وقال آخرون إنها دون الفلك قالوا والدليل على وجودها أفعالها وقواها المنبثة في العالم الموجبة للحركات والأفعال كذهاب النار والهواء إلى فوق وذهاب الماء والأرض إلى تحت فعلم يقينا أنه لولا قوى فيها أوجبت تلك الحركات وكانت مبدأ لها لم توجد فيها وكذلك مايوجد النبات والحيوان من قوة الغذاء وقوة النمو والنشوء

الفصل الرابع

المتأخرون من فلاسفة الإسلام

مثل يعقوب بن اسحق الكندي وحنين بن إسحاق ويحي النحوي وأبي الفرج المفسر وأبي سليمان السجزي وأبي سليمان محمد بن معشر المقدسي وأبي بكر ثابت ابن قرة الحراني وأبي تمام يوسف بن محمد النيسابوري وأبي زيد بن سهل البلخي وأبي محارب الحسن بن سهل بن محارب القمي وأحمد بن الطيب السرخسي وطلحة بن محمد النسفي وأبي حامد أحمد بن محمد الاسفزاري وبن علي بن عيسى الوزير وأبي علي أحمد بن محمد بن مسكويه وأبي زكريا يحي بن عدي الصيمري وأبي الحسن محمد بن يوسف العامري وأبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي وغيرهم وإنما علامة القوم أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا قد سلكوا كلهم طريقة

أرسطو طاليس في جميع ماذهب إليه وإنفرد به سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين ولما كانت طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة ونظره في الحقائق أغوص اخترت نقل طريقته من كتبه على إيجاز وإختصار كأنها عيون كلامه ومتون مرامه وأعرضت عن نقل طرق الباقين وكل الصيد في جوف الفرا

١ – ابن سينا كلامه في المنطق

قال أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا العلم إما تصور وإما تصديق أما التصور فهو العلم الأول وهو ان تدرك أمرا ساذجا من غير أن تحكم عليه بنفي أو إثبات مثل تصورنا ماهية الإنسان وأما التصديق فهو أن تدرك أمرا وأمكنك أن تحكم عليه بنفي أو إثبات مثل تصديقنا بأن للكل مبدأ وكل واحد من القسمين منه ماهو أولى

ومنه ماهو مكتسب فالتصور المكتسب إنما يستحصل بالحد وما يجري مجراه والتصديق المكتسب إنما يستحصل بالقياس وما يجري مجراه فالحد والقياس آلتان بهما تحصل المعلومات التي لم تكن حاصلة فتصير معلومة بالروية وكل واحد منهما منه ماهو حقيقي ومنه ماهو دون الحقيقي ولكنه نافع منفعته بحسبه ومنه ماهو باطل مشتبه بالحقيقي

والفطرة الإنسانية غير كافية في التمييز بين هذه الأصناف إلا أن تكون مؤيدة من عند الله عز وجل فلا بد إذن للناظر من آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل في فكره وذلك هو الغرض من المنطق

ثم إن كل واحد من الحد والقياس فمؤلف من معان معقولة بتأليف محدود فيكون لها مادة منها ألفت وصورة بها التأليف والفساد قد يعرض من إحدى الجهتين وقد يعرض من جهتيهما معا فالمنطق هو الذي نعرف به من أي المواد والصور يكون الحد الصحيح والقياس السديد الذي يوقع يقينا ومن أيها ما يوقع عقدا شبيها باليقين ومن أيها ما يوقع ظنا غالبا ومن أيها ما يوقع مغالطة وجهلا وهذه فائدة المنطق ثم لما

كانت المخاطبات النظرية بألفاظ مسموعة والأفكار العقلية بأقوال عقلية فتلك المعاني التي في الذهن من حيث يتأدى بها إلى غيرها كانت موضوعات المنطق ومعرفة أحوال تلك المعاني مسائل علم المنطق وكان المنطق بالنسبة إلى المعقولات على مثال النحو بالنسبة إلى الكلام والعروض إلى الشعر فوجب على المنطقي أن يتكلم في الألفاظ أيضا من حيث تدل على المعاني

واللفظ يدل على المعنى من ثلاثة أوجه أحدها بالمطابقة والثاني بالتضمن والثالث بالإلتزام وهو ينقسم إلى مفرد ومركب فالمفرد ما يدل على معنى وجزء من أجزائه لا يدل على جزء من أجزاء ذلك المعنى بالذات أي حين هو جزء له والمركب هو الذي يدل على معنى وله أجزاء منها يلتئم مسموعه ومن معانيها يلتئم معنى الجملة

والمفرد ينقسم إلى كلي وجزئي والكلي هو الذي يدل على كثيرين بمعنى واحد متفق ولا يمنع مفهومه عن الشركة فيه والجزئي هو ما يمنع نفس مفهومه ذلك ثم الملي ينقسم إلى ذاتي وعرضي والذاتي هو الذي يقوم ماهية ما يقال عليه والعرضي هو الذي لا يقوم ماهية سواء كان غير مفارق في الوجود والوهم أو مفارقا بين الوجود أو غير بين الوجود له ثم الذاتي ينقسم إلى ما هو مقول في الجواب ما هو وهو اللفظ المفرد الذي يتضمن جميع المعاني الذاتية التي يقوم الشيء بها وفرق بين المقول في جواب ما هو وبين الداخل في جواب ما هو وإلى ما هو مقول في جواب أي شيء هو وهو الذي يدل على معنى تتميز به أشياء مشتركة في معنى واحد تميزا ذاتيا وأما العرضي فقد يكون ملازما في الوجود والوهم وبه يقع تمييز أيضا لا ذاتيا وقد يكون مفارقا وفوق بين العرضي والعرض الذي هو قسيم الجوهر

وأما رسوم الألفاظ الخمسة التي هي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام فالجنس يرسم بأنه المقول على كثيرين مختلفين بالحقائق الذاتية في جواب ماهو

والنوع يرسم بأنه المقول على كثيرين مختلفين بالعدد في جواب ما هو إذا كان نوع الأنواع وإذا كان نوعا متوسطا فهو المقول على كثيرين مختلفين في جواب ما هو ويقال عليه قول آخر في جواب ما هو بالشركة وينتهي الإرتقاء إلى جنس لا جنس فوقه وإن قدر فوق الجنس أمر أعم منه فيكون العموم بالتشكيك والنزول إلى نوع لا نوع تحته وإن قدر دون النوع صنف أخص فيكون الخصوص بالعوارض ويرسم الفصل بأنه الكلي الذاتي الذي يقال به على نوع تحت جنسه بأنه أي شيء هو وترسم الخاصة بأنها هى الكلي الدال على نوع واحد في جواب أي أي شيء هو لا بالذات ويرسم العرض العام بأنه الكلي المفرد الغير الذاتي ويشترك في معناه كثيرون ووقوع العرض على هذا وعلى الذي هو قسيم الجوهر وقوع بمعنيين مختلفين

في المركبات الشيء إما عين موجودة وإما صورة مأخوذة عنه في الذهن ولا يختلفان في النواحي والأمم وإما لفظة تدل على الصورة التي في الذهن وإما كتابة دالة على اللفظ ويختلفان في الأمم فالكتابة دالة على اللفظ واللفظ دال على الصورة في الذهن وتلك الصورة دالة على الأعيان الموجودة ومبادىء القول إما إسم وإما كلمة وإما أداة فالأسم لفظ مفرد يدل على معنى من غير أن يدل على زمان وجود ذلك المعنى والكلمة لفظ مفرد يدل على معنى وعلى الزمان الذي فيه ذلك المعنى لوضوح ما غير معين والأداة لفظ مفرد إنما يدل على معنى يصح أن يوضع أو يحمل بعد أن يقترن باسم أو كلمة وإذا ركبت اللفظ تركيبا يؤدي إلى معنى فحينئذ يسمى قولا ووجوه التركيبات مختلفة وإنما يحتاج المنطقي إلى تركيب خاص وهو أن يكون بحيث يتطرق إليه التصديق والتكذيب فالقضية هي كل قول فيه نسبة بين شيئين بحيث يتبعه حكم صدق أو كذب والحملية منها كل قضية فيها النسبة المذكورة بين شيئين ليس في كل منهما هذه النسبة إلا بحيث يمكن أن يدل على كل واحد منها بلفظ مفرد والشرطية منها كل قضية فيها هذه

النسبة بين شيئين فيهما هذه النسبة من حيث هي منفصلة والمتصلة من الشرطية هي التي توجب أو تسلب لزوم قضيه لأخرى من القضايا الشرطية والمنفصلة منها ما توجب أو تسلب عناد قضية لأخرى من القضايا الشرطية والإيجاب هو إيقاع هذه النسبة وإيجادها وفي الحملية هو الحكم بوجود محمول لموضوع والسلب هو رفع هذه النسبة
الوجودية وفي الحملية هو الحكم بلا وجود محمول لموضوع والمحمول هو المحكوم به والموضوع هو المحكموم عليه والمخصوصة قضية حملية موضوعها شيء جزئي والمهملة قضية حملية موضوعها كلي ولكن لم يبين أن الحكم في كله أو في بعضه ولابد أنه في البعض وشك في أنه في الكل فحكمه حكم الجزئيء والمحصورة هي التي موضوعها كلي والحكم عليه مبين أنه في كله أو بعضه وقد تكون موجبة وسالبة والسور هو اللفظ الذي يدل على مقدار الحصر ككل ولا واحد وبعض ولا كل
والقثضيتان المتقابلتان هما اللتان تختلفان بالسلب والإيجاب وموضوعهما ومحمولهما واحد في المعنى والإضافة والقوة والفعل والجزء والكل والمكان والزمان والشرط والتناقض هو التقابل بين قضيتين في الإيجاب والسلب تقابلا يجب عنه لذاته أن يقتسما الصدق والكذب ويجب أن يراعى فيه الشرائط المذكورة والقضية البسيطة هي التي موضوعها ومحمولها اسم محصل والمعدولة هي التي موضوعها أو محمولها غير محصل كقولنا زيد هو غير بصير والعدمية هي التي محمولها أخس المتقابلين أي دل على عدم شيء من شأنه أن يكون للشيء أو لنوعه أو لجنسه مثل قولنا زيد جائر ومادة القضايا هي حالة للمحمول بالقياس إلى الموضوع يجب بها لا محالة أن يكون له دائما في كل وقت في إيجاب أو سلب أو غير دائم له في إيجاب ولا سلب وجهات القضايا ثلاث واجب ويدل على دوام الوجود وممتنع ويدل على دوام العدم وممكن ويدل على لا دوام وجود ولا عدم
والفرق بين الجهة والمادة أن الجهة لفظ مصرح بها تدل على أحد هذه المعاني

والمادة حالة للقضية في ذاتها غير مصرح بها وربما تخالفا كقولك زيد يمكن أن يكون حيوانا فالمادة واجبة والجهة ممكنة
والممكن يطلق على معنيين أحدهما ماليس بممتنع وعلى هذا الشيء إما ممكن وإما ممتنع وهو الممكن العامي والثاني ماليس بضروري في الحالتين أعني الوجود والعدم وعلى هذا الشيء إما واجب وإما ممتنع وإما ممكن وهو الممكن الخاصي
ثم إن الواجب والممتنع بينهما غاية الخلاف مع إتفاقهما في معنى الضرورة فإن الواجب هو ضروري الوجود بحيث لو قدر عدمه لزم منه محال والممتنع ضروري العدم بحيث لو قدر وجوده لزم منه محال والممكمن الخاصي هو ماليس بضروري الوجود والعدم والحمل الضروري على أوجه ستة تشترك كلها في الدوام
الأول أن يكون الحمل دائما لم يزل ولا يزال
الثان أن يكون الحمل دائما مادامت ذات الموضوع موجودة لم تفسد وهذان هما المستعملان والمرادان إذا قيل إيجاب أو سلب ضروري
والثالث أن يكون الحمل دائما مادامت ذات الموضوع موصوفة بالصفة التي جعلت موضوغة معها
والرابع أن يكون الحمل موجودا وليس له ضرورة بلا هذا الشرط
والخامس أن تكون الضرورة وقتا ما معينا لابد منه
والسادس أن تكون الضرورة وقتا ما غير معين
ثم إن ذوات الجهة قد تتلازم طردا وعكسا وقد لا تتلازم فواجب أن يوجد يلزمه ممتنع أن لا يوجد وليس يمكن بالمعنى العامي أن لا يوجد ونقائض هذه متعاكسة وقس عليه سائر الطبقات وكل قضية فإما ضرورية وإما ممكنة وإما مطلقة
فالضرورية مثل قولنا كل ابالضرورة أي كل واحد واحد مما يوصف بأنه

ب ودائما أو غير دائم فلذلك الشيء دائما ما دامت عين ذاته موجودة يوصف بأنه
والممكنة فهي التي حكمها من إيجاب أو سلب غير ضروري
والمطلقة فيها رأيان أحدهما أنها التي لم يذكر فيها جهة ضرورة للحكم أو إمكان
للحكم بل أطلق إطلاقا والثاني ما يكون الحكم فيها موجودا لا دائما بل وقتا ما وذلك
الوقت إما مادام الموضوع موصوفا بما وصف به أو مادام المحمول محكوما به أو في
وقت معين ضروري أو في وقت ضروري غير معين وأما العكس فهو تصيير الموضوع
محمولا والمحمول موضوعا مع بقاء السلب والإيجاب بحالة والصدق والكذب بحالة
والسالبة الكلية تنعكس مثل نفسها وأما السالبة الجزئية فلا تنعكس
والموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية والموجبة الجزئية تنعكس مثل نفسها
في القياس ومبادئه وأشكاله ونتائجه
المقدمة قول يوجب شيئا لشيء أو يسلب شيئا عن شيء جعلت جزء قياس والحد ما
تنحل إليه المقدمة من جهة ماهي مقدمة والقياس هو قول مؤلف من أوال إذا وضعت
لزم عنها بذاتها قول آخر غيرها إضطرارا وإذا كان بينا لزومه يسمى قياسا كاملا وإذا
إحتاج إلى بيان فهو غير كامل والقياس ينقسم إلى اقتراني واستثنائي
والإقتراني أن يكون ما يلزمه ليس هو ولا نقيضه مقولا فيه بالفعل بوجه ما والاستثنائي
أن يكون ما يلزمه هو أو نقيضه مقولا فيه بالفعل والاقتراني إنما يكون عن مقدمتين
يشتركان في حد ويفترقان في حدين فتكون الحدود ثلاثة ومن شأن المشترك فيه أن
يزول عن الوسط ويربط ما بين الحدين الآخرين فيكون ذلك هو اللازم ويسمى نتيجة
فالمكرر يسمى حدا أوسط والباقيان طرفين والذي يريد أن يصير محمول اللازم يسمى
الطرف الأكبر والذي يريد أن يكون موضوع اللازم يسمى الطرف الأصغر

والمقدمة التي فيها الطرف الأكبر تسمى الكبرى والتي فيها الطرف الأصغر تسمى الصغرى وتأليف الصغرى والكبرى يسمى قرينة وهيئة الإقتران تسمى شكلا والقرينة التي يلزم عنها لذاتها قول آخر تسمى قياسا واللازم مادام لم يلزم بعد بل يساق إليه القياس يسمى مطلوبا وإذا لزم يسمى نتيجة والحد الأوسط إن كان محمولا في مقدمة وموضوعا في الأخرى يسمى ذلك الإقتران شكلا أولا وإن كان محمولا فيها يسمى شكلا ثانيا وإن كان موضوعا فيها يسمى شكلا ثالثا وتشترك الأشكال كلها في أنه لا قياس عن جزئيتين وتشترك ماخلا الكائنة عن الممكنات في أنه لا قياس عن سالبتين ولا عن صغرى سالبة كبراها جزئية والنتيجة تتبع أخس المقدمتين في الكم والكيف وشريطة الشكل الأول أن تكون كبراه كلية وصغراه موجبة وشريطة الشكل الثاني أن تكون الكبرى فيه كلية وإحدى المقدمتين مخالفة للأخرى في الكيف ولا ينتج إذا كانت المقدمتان ممكنتين أو مطلقتين الإطلاق الذي ينعكس على نفسه كلتيهما وشريطة الشكل الثالث أن تكون الصغرى موجبة ثم لا بد من كلية في كل شكل وليرجع في المختلطات إلى تصانيفه

وأما القياسات الشرطية بقضاياها فاعلم أن الإيجاب والسلب ليس يختص بالحمليات بل وفي الإتصال والإنفصال فإنه كما أن الدلالة على وجود الحمل إيجاب في الحمل كذلك الدلالة على وجود الإتصال إيجاب في المتصل والدلالة على وجود الإنفصال إيجاب في المنفصل وكذلك السلب وكل سلب فهو إبطال الإيجاب ورفعه وكذلك يجري فيهما الحصر والإهمال وقد تكون القضايا كثيرة والمقدمة واحدة والإقتران من المتصلات أن يجعل مقدم أحدهما تالي الآخر فيشتركان في التالي أو يشتركان في المقدم وذلك على قياس الأشكال الحملية والشرائط فيها واحدة والنتيجة شرطية تحصل من إجتماع المقدم والتالي اللذين هما كالطرفين والاقترانيات من المنفصلات فلا تكون في جزء تام بل تكون في جزء غير تام وهو جزء تال أو مقدم والاستثنائية مؤلفة من مقدمتين إحداهما

شرطية والأخرى وضع أو رفع لأحد جرأيها ويجوز أن تكون حملية وشرطية وتسمي المستثناة والمستثناة من قياس فيه شرطية متصلة إن كان الاستثناء من المقدم فيجب أن يكون عين المقدم لينتج عين التالي وإن كان من التالي فيجب أن يكون نقيضه لينتج نقيض المقدم واستثناء نقيض المقدم وعين التالي لا ينتج شيئا وأما إذا كانت الشرطية منفصلة فإن كانت ذات جزأين فقط موجبتين فأيهما استثنيت عينه أنتج نقيض الباقي وأيهما استثنيت نقيضه أنتج عين الباقي

وأما القياسات المركبة فهي ما إذا حللت إلى أفرادها كان ما ينتج كل واحد منها شيئا آخر إلا أن نتائج بعضها مقدمات لبعض وكل نتيجة فإنها تستتبع عكسها وعكس نقيضها وجزأها وعكس جزئها إن كان لها عكس والمقدمات الصادقة تنتج نتيجة صادقة ولا ينعكس فقد تنتج المقدمات الكاذبة نتيجة صادقة والدور أن تأخذ النتيجة وعكس إحدى

المقدمتين فتنتج المقدمة الثانية وإنما يمكن إذا كانت الحدود في المقدمات متعاكسة متساوية وعكس القياس هو أن تأخذ مقابل النتيجة بالضد أو النقيض وتضيفه إلى إحدى المقدمتين فينتج مقابل النتيجة الأخرى إحتيالا في الجدل وقياس الخلف هو الذي يبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقيضه فيكون هو بالحقيقة مركبا من قياس إقتراني وقياس إستثنائي والمصادرة على المطلوب الأول هو أن يجعل المطلوب نفسه مقدمة في قياس يراد فيه إنتاجه وربما تكون في قياس واحد وربما تبين في قياسات وحيثما كان أبعد كان من القبول أقرب والاستقراء هو حكم على كلي لوجود ذلك الحكم في جزئيات ذلك الكلي إما كلها وأما أكثرها والتمثيل هو الحكم على شيء معين لوجود ذلك الحكم في شيء آخر معين أو أشياء على أن ذلك الحكم كلي على المتشابه فيه فيكون المحكوم عليه هو المطلوب والمنقول منه الحكم هو المثال والمعنى المتشابه فيه هو الجامع وحكم الرأي مقدمة محمودة كلية في أن كذا كائن أو غير كائن وصواب أم خطأ والدليل قياس إضماري حده الأوسط شيء إذا وجد للأصغر تبعه وجود شيء

آخر للأصغر دائما كيف كان ذلك التبع والقياس الفراشي شبيه بالدليل من وجه وبالتمثيل من وجه

في مقدمات القياس من جهة ذواتها وشرائط البرهان

المحسوسات هي أمور أوقع التصديق بها الحس والمجربات هي أمور أوقع التصديق بها الحسن يشره القياس والمقبولات آراء أوقع التصديق بها قول من يوثق بصدقه فيما يقول إما لأمر سماوي يختص به أو لرأي وفكر قوي تميز به والوهميات آراء أوجب إعتقادها قوة الوهم التابعة للحس والذائعات آراء مشهورة محمودة أوجب التصديق بها شهادة الكل والمظنونات آراء يقع التصديق بها لا على الثبات بل يخطر إمكان نقيضها بالبال ولكن الذهن يكون إليها أميل والمتخيلات هي مقدمات ليست تقال ليصدق بها بل لتخيل شيئا على أنه شيء آخر على سبيل المحاكاة والأوليات هي قضايا تحدث في الإنسان من جهة العقلية من غير سبب أوجب التصديق بها والبرهان قياس مؤلف من يقينيات لإنتاج يقيني

واليقينيات إما أوليات وما جمع منها وإما تجريبات وإما محسوسات وبرهان اللم هو الذي يعطيك علة إجتماع طرفي النتيجة في الوجود والذهن جميعا وبرهان الإن هو الذي يعطيك علة إجتماع طرفي النتيجة عند الذهن والتصديق به والمطالب أربعة هل مطلقا وهو تعرف حال الشيء في الوجود أو العدم مطلقا وهل مقيدا وهو تعرف وجود الشيء على حال ما أو ليس ما يعرف التصور وهو إما بحسب الإسم أي ما المراد باسم كذا وهذا يتقدم كل مطلب وإما بحسب الذات أي ما الشيء في وجوده وهو يعرف حقيقة الذات ويتقدمه الهل المطلق لم يعرف العلة بجواب هل وهو إما علة التصديق فقط وإما علة نفس الوجود وأما أي فهو بالقوة داخل في الهل المقيد وإنما يطلب التمييز إما بالصفات الذاتية وإما بالخواص

والأمور التي يلتئم منها أمر البراهين ثلاثة موضوعات ومسائل ومقدمات

فالموضوعات يبرهن فيها والمسائل يبرهن عليها والمقدمات يبرهن بها ويجب أن تكون صادقة يقينية ذاتية وتنتهي إلى مقدمات أولية مقولة على الكل كلية وقد تكون ضرورية إلا على الأمور المتغيرة التي هي الأكثر على حكم ما فتكون أكثرية وتكون عللا لوجود النتيجة فتكون مناسبة

الحمل الذاتي يقال على وجهين

أحدهما أن يكون المحمول مأخوذا في حد الموضوع

والثاني أن يكون الموضوع مأخوذا في حد المحمول

المقدمة الأولية على وجهين أحدهما أن التصديق بها حاصل في أول العقل

والثاني من جهة أن الإيجاب والسلب لا يقال على ما هو أعم من الموضوع قولا كليا

المناسب هو أن لا تكون المقدمات فيه من علم غريب

الموضوعات هي التي توضع في العلوم فيبرهن على أعراضها الذاتية

المسائل هي القضايا الخاصة بعلم علم المشكوك فيها المطلوب برهانها والبرهان يعط يحكم اليقين الدائم وليس في شيء من الفاسدات عقد دائم فلا برهان عليها ولا برهان أيضا على الحد لأنه لابد حينئذ من حد أوسط مساو للطرفين لأن الحد والمحدود متساويان وذلك الأوسط لا يخلو إما أن يكون حدا آخر أو يكون رسما أو خاصة فأما الحد الآخر فإن السؤال في إكتسابه ثابت فإن اكتسب بحد ثالث فالأمر ذاهب إلى غير نهاية وإن اكتسب بالحد الأول فذلك دور وإن اكتسب بوجه آخر غير البرهان فلم لا يكتسب به هذا الحد على أنه لا يجوز أن يكون لشيء واحد حدان تامان على ما سنوضح بعد وإن كانت الواسطة غير حد فكيف صار ما ليس بحد اعرف وجودا للمحدود من الأمر الذاتي المقوم له وهو الحد وأيضا فإن الحد لا يكتسب بالقسمة فإن القسمة تضع أقساما ولا تحمل من الأقسام شيئا بعينه إلا أن يوضع وضعا من غير أن يكون للقسمة فيه مدخل وأما استثناء نقيض قسم ليبقى القسم الداخل في الحد فهو إبانة الشيء بما هو مثله أو أخفى منه فإنك إذا قلت لكن ليس للإنسان غير ناطق فهو

إذن ناطق لم تكن أخذت في الاستثناء شيئا أعرف من النتيجة وأيضا فإن الحد لا يكتسب من حد الضد فليس الكل محدود ضد ولا أيضا حد أحد الضدين أولى بذلك من حد الضد الآخر والاستقراء لا يفيد علما كليا فكيف يفيد الحد لكن الحد يقتنص بالتركيب وذلك بأن تعمد إلى الأشخاص التي لا تنقسم وتنظر من أي جنس هي من العشرة فتأخذ جميع المحمولات المقومة لها التي في ذلك الجنس وتجمع العدة منها بعد أن تعرف أيها الأول وأيها الثاني فإذا جمعنا هذه المحمولات ووجدنا منها شيئا مساويا للمحدود من وجهين فهو الحد أحدهما المساواة في الحمل والثاني المساواة في المعنى وهو أن يكون دالا على كمال حقيقة ذاته لا يشذ منه شيء فإن كثيرا مما يميز الذات يكون قد أخل ببعض الأجناس أو ببعض الفصول فيكون مساويا في الحمل ولا يكون مساويا في المعنى وبالعكس ولا يلتفت في الحد إلى أن يكون وجيزا بل ينبغي أن تضع الجنس

القريب فيه باسمه أو بحده ثم تأتي بجميع الفصول الذاتية فإنك إذا تركت بعض الفصول فقد تركت بعض الذات

والحد عنوان للذات وبيان لها فيجب أن يقوم في النفس صورة معقولة مساوية للصورة الموجودة بتمامها فحينئذ يعرض أن يتميز أيضا المحدود ولا حد في الحقيقة لما لا وجود له وإنما ذلك قول يشرح الاسم فالحد إذن قول دال على الماهية والقسمة معينة في الحد خصوصا إذا كانت بالذاتيات ولا يجوز تعريف الشيء بما هو أخفى منه ولا بما هو بمثله في الجلاء والخفاء ولا بما لا يعرف الشيء إلا به

في الأجناس العشرة

الجوهر هو كل ما وجود ذاته ليس في موضوع أي في محل قريب قد قام بنفسه دونه بالفعل لا بتقويمه

الكم هو الذي يقبل لذاته المساواة واللامساواة والتجزؤ وهو إما أن يكون متصلا إذ يوجد لأجزائه بالقوة حد مشترك تتلاقى عنده وتتحد به كالنقطة للخط وإما أن

يكون منفصلا لايوجد لأجزائه ذلك بالقوة ولا بالفعل كالعدد والمتصل قد يكون ذا وضع وقد يكون عديم الوضع وذو الوضع هو الذي يوجد لأجزائه إتصال وثبات وإمكان أن يشار إلى كل واحد منها أنه أين هو من الآخر فمن ذلك مايقبل القسمة في جهة واحدة وهو الخط ومنه ما يقبل في جهتين متقاطعتين على قوائم وهو السطح ومنه ما يقبل في ثلاث جهات قائم بعضها على بعض وهو الجسم والمكان أيضا ذو وضع لأنه السطح الباطن من الحاوي وأما الزمان فهو مقدار للحركة إذ أنه ليس له وضع إذ لا توجد أجزاؤه معا وإن كان له إتصال إذ ماضيه ومستقبله يتحدان بطرف الآن وأما العدد فهو بالحقيقة الكم المنفصل

ومن المقولات العشرة

الإضافة وهو المعنى الذي وجوده بالقياس إلى شيء آخر وليس له وجود غيره مثل الأبوة بالقياس إلى البنوة لا كالأب فإن له وجودا يخصه كالإنسانية

وأما الكيف فهو كل هيئة قارة في جسم لا يوجب إعتبار وجودها فيه نسبة للجسم إلى خارج ولا نسبة واقعة في أجزائه ولا لجملته إعتبارا يكون به ذا جزء مثل البياض والسواد وهو إما يكون مختصا بالكم من جهة ماهو كم كالتربيع بالسطح والإستقامة بالخط والفردية بالعدد وإما أن لا يكون مختصا به

وغير المختص به إما أن يكون محسوسا تنفعل عنه الحواس ويوجد بإنفعال الممتزجات فالراسخ منه مثل صفرة الذهب وحلاوة العسل يسمى كيفيات إنفعاليات وسريع الزوال منه وإن كان كيفية بالحقيقة فلا يسمى كيفية بل إنفعالات لسرعة إستبدالها مثل حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه مالا يكون محسوسا فإما أن يكون إستعدادات إنما تتصور في النفس بالقياس إلى كمالات فإن كان إستعدادا للمقاومة وإباء للإنفعال سمي قوة طبيعية كالمصحاحية والصلابة وإن كان إستعدادا لسرعة الإذعان والإنفعال سمي لا قوة طبيعية مثل الممراضية واللين وإما أن تكون في أنفسها كمالات لا يتصور أنها

استعدادت لكمالات أخرى وتكون مع ذلك غير محسوسة بذاتها فما كان ثابتا منها يسمى ملكه مثل العلم والصحة وما كان سريع الزوال سمى حالا مثل غضب الحليم ومرض المصحاح وفرق بين الصحة والمصحاحية فإن المصحاح قد لا يكون صحيحا والممراض قد يكون صحيحا

ومن جملة العشرة الأين وهو كون الجوهر في مكانه الذي يكون فيه ككون زيد في السوق ومتى وهو كون الجوهر في زمانه الذي يكون فيه مثل كون هذا الأمر أمس والوضع وهو كون الجسم بحيث يكون لأجزائه بعضها إلى بعض نسبة في الإنحراف والموازرة والجهات وأجزاء المكان إن كان في مكان مثل القيام والقعود وهو في المعنى غير الوضع المذكور في باب الكم والملك ولست أحصله ويشبه أن يكون كون الجوهر في جوهر يشمله وينتقل بانتقاله مثل التلبس والتسلح والفعل وهو نسبة الجوهر إلى أمر موجود منه في غيره غير قار الذات بل لا يزال يتجدد وينصرم كالتسخين والتبريد والإنفعال وهو نسبة الجوهر إلى حالة فيه بهذه الصفة مثل التقطع والتسخن والعلل أربع يقال علة للفاعل ومبدأ الحركة مثل النجار للكرسي ويقال علة للمادة وما يحتاج أن يكون حتى تكون ماهية الشيء مثل الخشب ويقال علة للصورة في كل شيء يكون فإنه ما لم تقترن الصورة بالمادة لم يتكون ويقال علة للغاية والشيء الذي نحوه ولأجله الشيء مثل الكن للبيت وكل واحدة من هذه إما قريبة وإما بعيدة وإما بالقوة وإما بالفعل وإما بالذات وإما بالعرض وإما خاصة وإما عامة

والعلل الأربع قد تقع حدودا وسطى في البراهين لإنتاج قضايا محمولاتها أعراض ذاتية وأما العلتان الفاعلية والقابلية فلا يجب من وضعهما وضع المعلول وإنتاجه ما لم يقترن بذلك ما يدل على صيرورتهما علة بالفعل والله الموفق

في تفسير ألفاظ يحتاج إليها المنطقي
الظن الحق أنه رأى في شيء أنه كذا ويمكن أن لا يكون كذا
والعلم إعتقاد بأن الشيء كذا وأنه لا يمكن أن لا يكون كذا بواسطة توجبه
والشيء كذلك في ذاته وقد يقال علم لتصور الماهية بتحديد
والعقل إعتقاد بأن الشيء كذا وأنه لا يمكن أن لا يكون كذا طبعا بلا واسطة كاعتقاد المبادىء الأولى للبراهين وقد يقال عقل لتصور الماهية بذاتها بلا تحديدها كتصور المبادىء الأولى للحد
والذهن قوة للنفس معدة نحو إكتساب العلم
والذكاء قوة إستعداد للحدس
والحدس حركة النفس إلى إصابة الحد الأوسط إذا وضع المطلوب أو إصابة الحد الأكبر إذا أصيب الأوسط وبالجملة سرعة إنتقال الذهن من معلوم إلى مجهول
والحس إنما يدرك الجزئيات الشخصية
والذكر والخيال يحفظان مايؤديه الحس على شخصيته أما الخيال فيحفظ الصورة وأما الذكر فيحفظ المعنى المأخوذ وإذا تكرر الحس صار ذكرا وإذا تكرر الذكر كان تجربة
والفكر حركة ذهن الإنسان نحو المباديء ليصير منها الى المطالب
والصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها أفعال إيرادية بغير رؤية
والحكمة خروج النفس الإنساني إلى كماله الممكن في جزأي العلم والعمل أما في جانب العلم فأن يكون متصورا للموجودات كما هي ومصدقا للقضايا كما هي وأما في جانب العمل فأن يكون قد حصل له الخلق الذي يسمى العدالة والملكة الفاضلة والفكر العقلي ينال الكليات مجردة والحس والخيال والذكر تنال الجزئيات فالحس يعرض على الخيال أمورا مختلطة والخيال على العقل ثم العقل يفعل التمييز ولكل واحد من هذه المعاني معونة في صواحبها في قسمى التصور والتصديق

٢ – في الإلهيات

يجب أن نحصر المسائل التي تختص بهذا العلم في عشر مسائل

المسألة الأولى منها في موضوع هذا العلم وجملة ما ينظر فيه والتنبيه على الوجود وأقسامه

إن لكل علم موضوعا ينظر فيه فيبحث عن أحواله وموضوع العلم الإلهي هو الوجود المطلق ولواحقه التي له بذاته ومبادئه وينتهي في التفصيل إلى حيث تبتدىء منه سائر العلوم وفيه بيان مبادئها وجملة ما ينظر فيه هذا العلم هو أقسام وهي الواحد والكثير ولواحقهما والعلة والمعلول والقديم والحادث والتام والناقص والفعل والقوة وتحقيق المقولات العشر ويشبه أن يكون إنقسام الوجود إلى المقولات إنقساما بالفصول وإنقسامه إلى الوحدة والكثرة وأخواتهما إنقساما بالأعراض والوجود يشمل الكل شمولا بالتشكيك لا بالتواطؤ ولهذا لم يصلح أن يكون جنسا فإنه في بعضها أولى وأول وفي بعضها لا أولى ولا أول وهو أشهر من أن يحد أو يرسم ولا يمكن أن يشرح بغير الإسم لأنه مبدأ أول لكل شيء فلا شرح له بل صورته تقوم في النفس بلا توسط شيء وينقسم نوعا من القسمة إلى واجب بذاته وممكن بذاته والواجب بذاته ما إذا اعتبر ذاته فقط وجب وجوده والممكن بذاته ما إذا اعتبر لذاته لم يجب وجوده وإذا فرض غير موجود لم يلزم منه محال ثم إذا عرض على القسمين عرضا حمليا الواحد والكثير كان الواحد أولى بالواجب والكثير أولى بالجائز وكذلك العلة والمعلول والقديم والحادث والتام والناقص والفعل والقوة والغنى والفقر كان أحسن الأسماء أولى بالواجب بذاته ولما لمن تتطرق إليه الكثرة بوجه لم يتطرق إليه التقسيم بل توجه إلى الممكن بذاته فانقسم إلى جوهر وعرض وقد عرفناهما برسميهما وأما نسبة أحدهما إلى الآخر فهو أن الجوهر محل مستغن في قوامه عن الحال فيه والعرض حال فيه غير مستغن

في قوامه عنه فكل ذات لم تكن في موضوع ولا قوامها به فهو جوهر وكل ذات قوامها في موضوع فهو عرض وقد يكون الشيء في المحل ويكون مع ذلك جوهرا لا في موضوع إذا كان المحل القريب الذي هو فيه متقوما به وليس متقوما بذاته ثم مقوما له ونسميه صورة وهذا هو الفرق بينهما وبين العرض وكل جوهر ليس في موضوع فلا يخلو إما أن لا يكون في محل أصلا أو يكون في محل لا يستغنى في القوام عنه ذلك المحل فإن كان في محل بهذه الصفة فإنا نسميه صورة مادية وإن لم يكن في محل أصلا فإما أن يكون محلا بنفسه لا تركيب فيه أو لا يكون فإن كان محلا بنفسه فإنا نسميه الهيولى المطلقة وإن لم يكن فإما أن يكون مركبا مثل أجسامنا المركبة من مادة وصورة جسمية وإما أن لا يكون وما ليس بمركب فلا يخلو إما أن يكون له تعلق ما بالأجسام أو لم يكن له تعلق فما له تعلق نسميه نفسا وما ليس له تعلق فنسميه عقلا

وأما أقسام العرض فقد ذكرناها وحصرها بالقسمة الضرورية متعذر

المسألة الثانية في تحقيق الجوهر الجسماني وما يتركب منه وأن المادة الجسمانية لا تتعرى عن الصورة وان الصورة متقدمة على المادة في مرتبة الوجود

أعلم أن الجسم ليس جسما بأن فيه أبعادا ثلاثة بالفعل فإنه ليس يجب أن يكون في كل جسم نقط أو خطوط بالفعل وأنت تعلم أن الكرة لا قطع فيها بالفعل والنقط والخطوط قطوع بل الجسم إنما هو جسم لأنه بحيث يصلح أن يفرض فيه أبعاد ثلاثة كل واحد منها قائم على الآخر ولا يمكن أن تكون فوق ثلاثة فالذي يفرض فيه أولا هو الطول والقائم عليه العرض والقائم عليهما في الحد المشترك هو العمق وهذا المعنى منه صورة الجسمية وأما الأبعاد المحدودة التي تقع فيه فليست صورة له بل هي من باب الكم وهي لواحق لا مقومات ولا يجب أن يثبت شيء منه له بل مع كل تشكيل يتجدد عليه يبطل كل بعد متحدد كان فيه وربما اتفق في بعض الأجسام أن تكون لازمة له لا تفارق ملازمة أشكالها وكما أن الشكل لاحق فكذلك ما يتحدد بالشكل

وكما أن الشكل لا يدخل في تحديد جسميته فكذلك الأبعاد المتحددة فالصورة الجسمية موضوعة لصناعة الطبيعيين أو داخلة فيها والأبعاد المتحددة موضوعة لصناعة التعاليميين أو داخلة فيها ثم الصورة الجسمية طبيعية وراء الإتصال يلزمها الإتصال وهي بعينها قابلة للإنفصال ومن المعلوم أن قابل الإتصال والإنفصال أمر وراء الإتصال والإنفصال فإن القابل يبقى بطريان أحدهما والإتصال لا يبقى بعد طريان الإنفصال وظاهر أن هنا جوهرا غير الصورة الجسمية هو الهيولى التي يعرض لها الإنفصال والإتصال معا

وهي تقارن الصورة الجسمية فهي التي تقبل الإتحاد بالصورة الجسمية فتصير جسما واحدا بما يقومها وذلك هو الهيولى أو المادة

والمادة لا يجوز أن تفارق الصورة الجسمية وتقوم موجودة بالفعل والدليل عليه من وجهين

أحدهما أن لو قدرناها لا وضع لها ولا حيز ولا أنها تقبل الإنقسام فإن هذه كلها صور ثم قدرنا أن الصورة صادفتها فإما أن تكون صادفتها دفعة أعني المقدار المحصل يحل فيها دفعة لا على تدريج أو تحرك إليها المقدار والإتصال على تدريج

فإن حل فيها دفعة ففي إتصال المقدار بها يكون قد صادفها حيث إنضاف إليها فيكون لا محالة صادفها وهو في الحيز الذي هو فيه فيكون ذلك الجوهر متحيزا وقد فرض غير متحيز البتة وهذا خلف ولا يجوز أن يكون التحيز قد حصل له دفعة واحد ة مع قبول المقدار لأن المقدار يوافيه في حيز مخصوص وإن حل فيها المقدار والإتصال على انبساط وتدريج وكل ما من شأنه أن ينبسط فله جهات وكل ماله جهات فهو ذو وضع فيكون ذلك الجوهر ذا وضع وقد فرض غير ذي وضع البتة وهذا خلف فتعين أن المادة لن تتعرى عن الصورة قط وأن الفصل بينهما فصل بالعقل فقط

والدليل الثاني أنا لو قدرنا للمادة وجودا خاصا متقوما غير ذي كم ولا جزء باعتبار نفسه ثم يعرض عليه الكم فيكون ما هو متقوم بأنه لا جزء له ولا كم يعرض أن يبطل

عنه ما يتقوم به بالفعل لورود عارض عليه فيكون حينئذ للمادة صورة عارضة بها تكون واحدة بالقوة والفعل وصورة أخرى بها تكون غير واحدة بالفعل فيكون بين الأمرين شيء مشترك هو القابل للأمرين من شأنه أن يصير مرة ليس في قوته أن ينقسم ومرة في قوته أن ينقسم ولنفرض الآن أن هذا الجوهر قد صار بالفعل اثنين ثم صارا شيئا واحدا بأن خلعا صورة الاثنينية فلا يخلو إما إن إتحدا وكل واحد منها موجودا فهما اثنان لا واحد وان اتحدا وأحدهما معدوم والآخر موجود فالمعدوم كيف يتحد بالموجود وإن عدما جميعا بالاتحاد وحدث شيء واحد ثالث فهما غير متحدين بل فاسدان وبينهما وبين الثالث مادة مشتركة وكلامنا في نفس المادة لا في شيء ذي مادة فالمادة الجسمية لا توجد مفارقة للصورة وإنها إنما تقوم بالفعل بالصورة ولا يجوز أن يقال إن الصورة بنفسها موجودة بالقوة وإنما تصير بالفعل بالمادة لأن جوهر الصورة هو الفعل وما بالقوة محلة المادة والصورة وإن كانت لا تفارق الهيولى فليست تتقوم بالهيولى بل بالعلة المفيدة إياها للهيولى وكيف يتصور أن تقوم الصورة بالهيولى وقد أثبت أنها علتها والعلة لا تتقوم بالمعلول وفرق بين الذي يتقوم به الشيء وبين الذي لا يفارقه فإن المعلول لا يفارق العلة وليس علة لها فما يقوم الصورة أمر مباين لها مفيد الوجود وما يقوم الهيولى أمر ملاق لها وهو الصورة وأول الموجودات في إستحقاق الوجود الجوهر المفارق الغير المجسم الذي يعطي صورة الجسم وصورة كل موجود ثم الصورة ثم الجسم ثم الهيولى وهي وإن كانت سببا للجسم فإنها ليست بسبب يعطي الوجود بل سبب يقبل الوجود فإنه محل لنيل الوجود وللجسم وجودها وزيادة وجود الصورة فيه التي هي أكمل منها ثم العرض أولى بالوجود فإن أولى الأشياء بالوجود هو الجوهر ثم الأعراض وفي الأعراض ترتيب في الوجود أيضا

المسألة الثالثة في أقسام العلل وأحوالها وفي القوة والفعل وفي إثبات الكيفيات في الكمية وأن الكيفيات أعراض لا جواهر

قد بينا في المنطق أن العلل أربع وتحقيق وجودها ههنا أن نقول المبدأ والعلة يقال لكل ما يكون قد استتم له وجوده في نفسه ثم حصل منه وجود شيء آخر وتقوم به ثم لا يخلو ذلك إما أن يكون كالجزء لما هو معلول له وهذا على وجهين إما أن يكون جزءا ليس يجب عن حصوله بالفعل أن يكون ما هو معلول له موجودا بالفعل وهذا هو العنصر ومثاله الخشب للسرير فإنك تتوهم الخشب موجودا ولا يلزم من وجوده وحده أن يحصل السرير بالفعل بل المعلول موجود فيه بالقوة وإما أن يكون جزءا يجب عن حصوله بالفعل وجود المعلول له بالفعل وهذا هو الصورة ومثاله الشكل والتأليف للسرير وإن لم يكن كالجزء لما هو معلول له فإما أن يكون مباينا أو ملاقيا لذات المعلول والملاقي فإنما أن ينعت به المعلول وإما أن ينعت بالمعلول وهذان هما في حكم الصورة والهيولى وإن كان مباينا فإما أن يكون الذي منه الوجود وليس الوجود لأجله وهو الفاعل وإما أن لا يكون منه الوجود بل لأجله الوجود وهو الغاية والغاية تتأخر في حصول الوجود وتتقدم سائر العلل في السببية وفرق بين السببية والوجود في الأعيان فإن المعنى له وجود في الأعيان ووجود في النفس وأمر مشترك وذلك الأمر المشترك هو السببية والغاية بما هي سبب فإنها تتقدم وهي علة العلل في انها علل وبما هي موجودة في الأعيان قد تتأخر وإذا لم تكن العلة الفاعلية هي بعينها الغاية كان الفاعل متأخرا في السببية عن الغاية ويشبه أن يكون الحاصل عند التمييز هو أن الفاعل متأخرا في السببية عن الغاية ويشبه أن يكون الحاصل عند التمييز هو أن الفاعل الأول والمحرك الأول في كل شيء هو الغاية وإن كانت العلة الفاعلية هي الغاية بعينها استغنى عن تحريك الغاية فكان نفس ما هو فاعل نفس ما هو محرك من غير توسط

وأما سائر العلل فإن الفاعل والقابل قد يتقدمان المعلول بالزمان وأما الصورة فلا تتقدم بالزمان البتة بل بالرتبة والشرف لأن القابل أبدا مستفيد والفاعل مفيد وقد تكون العلة علة للشيء بالذات وقد تكون بالعرض وقد تكون علة قريبة وقد تكون علة بعيدة وقد تكون علة لوجود الشيء فقط وقد تكون علة لوجوده

ولدوام وجوده فإنه إنما يحتاج إلى الفاعل لوجوده وفي حال وجوده لا لعدمه السابق وفي حال عدمه فيكون الموجد الذي هو موجد للوجود والموجود هو الذي يوصف بأنه موجد فكما أنه في حال ما هو موجود يوصف بأنه موجد كذلك الحال في كل حال فكل موجد محتاج إلى موجد مقيم لوجوده لولاه لعدم

وأما القوة والفعل فالقوة تقال لمبدأ التغير في آخر من حيث آخر وهو إما في المنفعل وهي القوة الإنفعالية وإما في الفاعل وهي القوة الفعلية وقوة المنفعل قد تكون محدودة نحو شيء واحد كقوة الماء على قبول الشكل دون قوة الحفظ وفي الشمع قوة عليهما جميعا وفي الهيولى الأولى قوة الجمع ولكن بتوسط شيء دون شيء وقوة الفاعل قد تكون محدودة نحو شيء واحد كقوة النار على الإحراق فقط وقد تكون على أشياء كثيرة كقوة المختارين وقد يكون في الشيء قوة على شيء ولكن يتوسط شيء دون شيء والقوة الفعلية المحدودة إذا لاقت القوة المنفعلة حصل منها الفعل ضرورة وليس كذلك في غيرها مما يستوي فيه الأضداد وهذه القوة ليست هي التي يقابلها لما بالفعل فإن هذه تبقى موجودة عند ما يفعل والثانية إنما تكون موجودة مع عدم الفعل وكل جسم صدر عنه فعل ليس بالعرض ولا بالقسر فإنه فإنه يفعل بقوة ما فيه

أما الذي بالإرادة والإختيار فظاهر وأما الذي ليس بالإختيار فلا يخلو إما أن يصدر عن ذاته بما هو ذاته أو عن قوة في ذاته أو عن شيء مباين فإن صدر من ذاته بما هو جسم فيجب أن تشاركه سائر الأجسام وإذا تميز عنها بصدور ذلك الفعل عنه فلمعنى في ذاته زائد عن الجسمية وإن صدر عن شيء مباين فلا يخلو إما أن يكون جسما أو

غير جسم فإن كان جسما فالفعل عنه يقسر لا محالة وقد فرض بلا قسر هذا خلف وإن لم يكن جسما فتأثر الجسم عن ذلك المفارق إما أن يكون لكونه جسما أو لقوة فيه ولا يجوز أن يكون لكونه جسما وقد أبطلناه فتعين أنه لقوة فيه هي مبدأ صدور ذلك الفعل عنه وذلك هو الذي نسميه القوة الطبيعية وهي التي تصدر عنه الأفاعيل الجسمانية

من التحيزات إلى أماكنها والتشكيلات الطبيعية وإذا خليت وطباعها لم يجز أن يحدث منها زوايا مختلفة بل ولا زاوية فيجب أن تكون كرة وإذا صح وجود الكرة صح وجود الدائرة

المسألة الرابعة في المتقدم والمتأخر والقديم والحادث وإثبات المادة لكل متكون

التقدم قد يقال بالطبع وهو أن يوجد الشيء وليس الآخر بموجود ولا يوجد الآخر إلا وهو موجود كالواحد والاثنين وقد يقال بالزمان كتقدم الأب على الابن

ويقال بالرتبة وهو الأقرب إلى المبدأ الذي عين كالمتقدم في الصف الأول أن يكون أقرب إلى الأمام ويقال بالكمال والشرف كتقدم العالم على الجاهل ويقال بالعلية لأن للعلة استحقاقا للوجود قبل المعلول وهما بما هما ذاتان ليس يلزم فيهما خاصية التقدم والتأخر ولا خاصية المعية ولكن بما هما متضايقان وعلة ومعلول وأن أحدهما لم يستفد الوجود من الآخر والآخر إستفاد الوجود منه فلا محالة كان المفيد متقدما والمستفيد متأخرا بالذات وإذا رفعت العلة إرتفع المعلول لا محالة وليس إذا إرتفع المعلول إرتفعت بإرتفاعه العلة بل إن صح فقد كانت العلة إرتفعت أولا بعلة أخرى حتى إرتفع المعلول واعلم بأن الشيء كما يكون محدثا بحسب الزمان كذلك قد يكون محدثا بحسب الذات فإن الشيء إذا كان له في ذاته أن لا يجب له وجود بل هو بإعتبار ذاته ممكن الوجود مستحق للعدم لولا علته والذي بالذات يجب وجوده قبل الذي من غير الذات فيكون لكل معلول في ذاته أولا أنه ليس تم عن العلة وثانيا أنه أيس فيكون كل معلول محدثا أي مستفيدا الوجود من غيره وإن كان مثلا في جميع الزمان موجودا مستفيدا لذلك الوجود عن موجد فهو محدث لأن وجوده من بعد لا وجوده بعدية بالذات وليس حدوثه إنما هو آن من الزمان فقط بل هو محدث في الدهر كله ولا يمكن أن يكون حادثا بعد ما لم يكن في زمان إلا وقد تقدمته المادة فإنه قبل وجوده ممكن الوجود

وإمكان الوجود إما أن يكون معنى معدوما أو معنى موجودا ومحال أن يكون معدوما فإن المعدوم قبل والمعدوم مع واحد وهو قد سبقه الإمكان والقبل المعدوم موجود مع وجوده فهو إذن معنى الوجود وكل معنى فإما قائم لا في موضوع أو قائم في موضوع وكل ما هو قائم لا في موضوع فله وجود خاص لا يجب أن يكون به مضافا وإمكان الوجود إنما هو ما هو بالإضافة إلى ما هو إمكان وجود له فهو إذن معنى في موضوع وعارض لموضوع ونحن نسميه قوة الوجود ونسمي حامل قوة لاوجود الذي فيه قوة وجود الشيء موضوعا وهيولى ومادة وغير ذلك فإذن كل حادث فقد تقدمته المادة كما تقدمه الزمان

المسألة الخامسة في الكلي الواحد ولواحقهما

قال المعنى الكلي بما هو طبيعة ومعنى كالإنسان بما هو إنسان شيء وبما هو واحد أو كثير خاص أو عام شيء آخر بل هذه المعاني عوارض تلزمه لا من حيث هو إنسان بل من حيث هو في الذهن أو في الخارج وإذ قد عرفت ذلك فقد يقال كلي للإنسانية بل شرط وهو بهذا الإعتبار موجود بالفعل في الأشياء وهو محمول على كل واحد لا على أنه واحد بالذات ولا على أنه كثير وقد يقال كلي للإنسانية بشرط أنها مقولة على كثيرين وهو بهذا الإعتبار ليس موجودا بالفعل في الأشياء فبين ظاهر أن الإنسان إذا إكتنفته الأعراض المشخصة لم تكتنفه أعراض شخص آخر حتى يكون ذلك بعينه في شخص زيد وعمرو فلا كلي عام في الوجود بل الكلي العام بالفعل إنما هو في العقل وهو الصورة التي في العقل كنقش واحد تنطبق عليه صورة وصورة

ثم الواحد يقال لما هو غير منقسم من الجهة التي قيل له منها إنه واحد ومنه مالا ينقسم في الجنس ومنه مالا ينقسم في النوع ومنه مالا ينقسم بالعرض العام كالغراب والقار في السواد ومنه مالا ينقسم بالمناسبة كنسبة العقل إلى النفس ومنه مالا ينقسم في العدد ومنه مالا ينقسم في الحد والواحد بالعدد إما أن يكون فيه كثرة بالفعل فيكون

واحدا بالتركيب والإجتماع وإما أن لا يكون ولكن فيه كثرة بالقوة فيكون واحدا بالإتصال وإن لم يكن فيه ذلك فهو الواحد بالعدد على الإطلاق والكثير يكون على الإطلاق وهو العدد الذي بإزاء الواحد كما ذكرنا والكثير بالإضافة هو الذي يترتب بإزائه القليل فأقل العدد إثنان وأما لواحق الواحد فالمشابهة وهي إتحاد في الكيفية والمساواة هي إتحاد في الكمية
والمجانسة إتحاد في الجنس والمشاكلة إتحاد في النوع والموازة إتحاد في وضع الأجزاء والمطابقة إتحاد في الأطراف والهو هو حال بين إثنين جعلا اثنين في الوضع يصير بها بينهما إتحاد بنوع ما ويقابل كل واحد منها باب الكثير مقابل
المسألة السادسة في تعريف واجب بذاته وأنه لا يكون بذاته وبغيره معا وأنه لا كثرة في ذاته بوجه وأنه خير محض وحق محض وأنه واحد من وجوه شتى ولا يجوز أن يكون إثنان واجبي الوجود وفي إثبات واجب الوجود بذاته
قال واجب الوجود معناه ضروري الوجود وممكن الوجود معناه أنه ليس فيه ضرورة لا في وجوده ولا في عدمه ثم إن واجب الوجود قد يكون بذاته وقد لا يكون بذاته والقسم الأول هو الذي وجوده لذاته لا لشيء آخر والثاني هو الذي وجوده لشيء آخر أي شيء كان ولوضع ذلك الشيء صار واجب الوجود مثل الأربعة واجبة الوجود لا بذاتها ولكن عند وضع اثنين واثنين ولا يجوز أن يكون شيء واحد واجب الوجود بذاته وبغيره معا فإنه إن رفع ذلك الغير لم يخل إما أن يبقى وجوب وجوده أو لم يبق فإن بقى فلا يكون واجبا بغيره وإن لم يبق فلا يكون واجبا بذاته
فكل ما هو واجب الوجود بغيره فهو ممكن الوجود بذاته فإن وجوب وجوده تابع لنسبة ما وهي إعبتار غير إعتبار نفس ذات الشيء فإعتبار الذات وحدها إما أن يكون مقتضيا

لوجوب الوجود وقد بطلناه وإما أن يكون مقتضيا لإمتناع الوجود وما إمتنع بذاته لم يوجد بغيره وإما أن يكون مقتضيا لإمكان الوجود وهو الباقي وذلك إنما يجب وجوده بغيره لأنه إن لم يجب كان بعد ممكن الوجود لم يترجح وجوده على عدمه ولا يكون بين هذه الحالة والأولى فرق فإن قيل تجددت حالة فالسؤال عنها كذلك ثم واجب الوجود بذاته لا يجوز أن يكون لذاته مبادىء تجتمع فيتقوم منها واجب الوجود لا أجزاء كمية ولا أجزاء حد سواء كانت كالمادة والصورة أو كانت على وجه آخر بأن تكون أجزاء القول الشارح لمعنى اسمه يدل كل واحد منها على شيء هو في الوجود غير الآخر بذاته وذلك لأن كل ما هذا صفته فذات كل جزء منه ليس هو ذات الآخر ولا ذات المجتمع وقد وضح أن الأجزاء بالذات أقدم من الكل فتكون العلة الموجبة للوجود علة للأجزاء ثم للكل ولا يكون شيء منها بواجب الوجود وليس يمكننا أن نقول إن الكل أقدم بالذات من الأجزاء فهو إما متأخر وإما معا فقد اتضح أن واجب الوجود ليس بجسم ولا مادة في جسم ولا صورة في جسم ولا مادة معقولة لقبول صورة معقولة ولا صورة معقولة في مادة معقولة ولا قسمة له لا في الكم ولا في المبادىء ولا في القول فهو واجب الوجود من جميع جهاته اذ هو واحد من كل وجه فلا جهة وجهة وأيضا فإن قدر أن يكون واجبا من جهة ممكنا من جهة كان إمكانه متعلقا بواجب فلم يكن واجب الوجود بذاته مطلقا فينبغي أن يتفطن من هذا لأن واجب الوجود لا يتأخر عن وجوده وجود له منتظر بل كل ما هو ممكن له فهو واجب له فلا له إرادة منتظرة ولا علم منتظر ولا طبيعة ولا صفة من الصفات التي تكون لذاته منتظرة وهو خير محض وكمال محض والخير بالجملة هو ما يتشوقه كل شيء ويتم به وجود كل شيء والشر لا ذات له بل هو إما عدم جوهر أو عدم صلاح حال للجوهر فالوجود خيرية وكمال الوجود كمال الخيرية والوجود الذي لا يقارنه عدم لا عدم جوهر ولا عدم حال للجوهر بل هو دائم بالفعل فهو خير محض والممكن بذاته ليس خيرا محضا لأن

ذاته تحتمل العدم وواجب الوجود هو حق محض لأن حقيقة كل شيء خصوصية وجوده الذي يثبت له فلا حق إذن من واجب اتلوجود
وقد يقال حق أيضا لما يكون الإعتقاد بوجوده صادقا فلا أحق بهذه الصفة مما يكون الإعتقاد بوجوده صادقا ومع صدقه دائما ومع دوامه لذاته لا لغيره وهو واحد محض لأنه لا يجوز أن يكون نوع واجب الوجود لغير ذاته لأن وجود نوعه له بعينه إما أن تقتضيه ذات نوعه أو لا تقتضيه ذات نوعه بل تقتضيه علة فإن كان وجود نوعه مقتضى ذات نوعه لم يوجد إلا له وإن كان لعلة فهو معلول فهو إذن تام في وحدانيته وواحد من جهة تمامية وجوده وواحد من جهة أن حده له وواحد من جهة أنه لا ينقسم لا بالكم ولا بالمبادىء المقومة له ولا بأجزاء الحد وواحد من جهة أن لكل شيء وحدة محضة وبها كمال حقيقته الذاتية وواحد من جهة أن مرتبته من الوجود وهو وجوب الوجود ليس إلا له فلا يجوز أن يكون إثنان كل واحد منهما واجب الوجود بذاته فيكون وجوب الوجود مشتركا فيه على أن يكون جنسا أو عارضا ويقع الفصل بشيء آخر إذ يلزم التركيب في ذات كل واحد منهما بل ولا تظن أنه موجود وله ما هية وراء الوجود كطبيعة الحيوان واللون مثلا الجنسين اللذين يحتاجان الى فصل وفصل حتى يتقررا في وجودهما لأن تلك الطبائع حلوله وإنما يحتاجان لا في نفس الحيوانية واللونية المشتركة بل في الوجود وههنا فوجوب الوجود هو الماهية وهو مكان الحيوانية واللونية المشتركة بل في الوجود وههنا فوجوب الوجود هو الماهعية وهو مكان الحيوانية التي لا تحتاج إلى فصل في أن يكون حيوانا بل في أن يكون موجودا ولا تظن أن واجبي الوجود لا يشتركان في شيء ما كيف وهما يشتركان في وجوب الوجود ويشتركان في البراءة عن الموضوع فإن كان واجب الوجود يقال عليهما بالاشتراك فكلامنا ليس في منع كثرة اللفظ والاسم بل في معنى واحد من معاني ذلك الاسم وإن كان بالتواطؤ فقد حصل معنى عام لازم أو عموم جنس وقد بينا استحالة هذا

وكيف يكون عموم وجوب الوجود لشيئين على سبيل اللوازم التي تعرض من خارج واللوازم معلولة

وإما إثبات واجب الوجود فليس يمكن إلا ببرهان إن وهو الإستدلال بالممكن على الواجب فنقول كل جملة من حيث إنها جملة سواء كانت متناهية أو غير متناهية إذا كانت مركبة من ممكنات فإنها لا تخلو إما أن تكون واجبة بذاتها أو ممكنة بذاتها فإن كانت واجبة الوجود بذاتها وكل واحد منها ممكن الوجود يكون واجب الوجود يتقوم بممكنات الوجود هذا خلف وإن كانت ممكنة الوجود بذاتها فالجملة محتاجة في الوجود إلى مفيد للوجود فإما أن يكون المفيد خارجا عنها أو داخلا فيها فإن كان داخلا فيها فيكون واحد منها واجب الوجود وكان كل واحد منهما ممكن الوجود هذا خلف فتعين أن المفيد يجب أن يكون خارجا عنها وذلك هو المطلوب

المسألة السابعة في أن واجب الوجود عقل وعاقل ومعقول وانه يعقل ذاته والشياء وصفاته الإيجابيه والسلبية لا توجب كثرة في ذاته وكيفية صدور الأفعال عنه

قال العقل يقال على كل مجرد عن المادة وإذا كان مجردا بذاته عن المادة فهو عقل لذاته وواجب الوجوب مجرد بذاته عن المادة فهو عقل لذاته وبما يعتبر له أن هويته المجردة لذاته فهو معقول لذاته وبما يعتبر له أن ذاته له هوية مجردة فهو عاقل لذاته وكونه عاقلا ومعقولا لا يوجب أن يكون اثنين في الذات ولا اثنين في الاعتبار فإنه ليس تحصيل الأمرين إلا أنه له ماهية مجردة وأنه ماهية مجردة ذاته له وهنا تقديم وتأخير في ترتيب المعاني في عقولنا والغرض المحصل هو شيء واحد وكذلك عقلنا لذاتنا هو نفس الذات وإذا عقلنا شيئا فلسنا نعقل أن نعقل بعقل آخر لأن ذلك يؤدي إلى التسلسل ثم لما لم يكن جمال وبهاء فوق جمال وبهاء فوق جمال وبهاء لماهية عقلية صرفه وخيرية محضة بريئة عن المواد وأنحاء النقص واحدة من كل جهة ولم يسلم ذلك بكنهه إلا لواجب الوجود فهو الجمال

المحض والبهاء المحض وكل جمال وبهاء وملائم وخير فهو محبوب معشوق وكلما كان الإدراك أشد إكتناها والمدرك أجمل ذاتا فحب القوة المدركة له وعشقها له وإلتذاذها به كان أشد وأكثر فهو أفضل مدرك بأفضل إدراك لأفضل مدرك وهو عاشق لذاته ومعشوق لذاته عشق من غيره أو لم يعشق وأنت تعلم أن إدراك العقل للمعقول أقوى من إدراك الحس للمحسوس لان العقل إنما يدرك الأمر الباقي ويتحد به ويصير هو هو ويدركه بكنهه لا بظاهره ولا كذلك الحس فاللذة التي لنا تعني بأن نعقل فوق اللذة التي لنا بأن نحس لكنه قد يعرض أن تكون القوة الداركة لا تستلذ بالملائم لعوارض كالممرور يستمر العسل لعارض واعلم أن واجب الوجود ليس يجوز أن يعقل الأشياء من الأشياء وإلا فذاته إما متقومة بما يعقل أو عارض لها أن يعقل وذلك محال بل كما أنه مبدأ كل وجود فيعقل من ذاته ما هو مبدأ له وهو مبدأ للموجودات التامة بأعيانها

والموجودات الكائنة الفاسدة بأنواعها أولا وبتوسط ذلك بأشخاصها ولا يجوز أن يكون عاقلا لهذه المتغيرات مع تغيرها حتى يكون تارة يعقل منها أنها موجودة غير معدومة وتارة يعقل منها أنها معدومة غير موجودة ولكل واحد من الأمرين صورة عقلية على حدة ولا واحد من الصورتين يبقى مع الثانية فيكون واجب الوجود متغير الذات بل واجب الوجود إنما يعقل كل شيء على نحو فعلي كلي ومع ذلك فلا يعزب عنه شيء شخصي ف * (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) * وأما كيفية ذلك فلأنه إذا عقل ذاته وعقل مبدأ كل موجود عقل أوائل الموجودات وما يتولد عنها ولا شيء من الاشياء يوجد إلا وقد صار من جهة ما واجبا بسببه فتكون الأسباب بمصادماتها تتأذى إلى أن يوجد عنها الأمور الجزئية فالأول يعلم الأسباب ومطابقاتها فيعلم ضرورة ما تتأدى إليه وما بينها من الأزمنة وما لها من العودات فيكون مدركا للأمور الجزئية من حيث هي كلية أعني من حيث لها صفات وإن تخصصت بها شخصا فبالإضافة إلى زمان متشخس أو حال متشخصة وكونه يعقل ذاته ونظام الخير الموجود في الكل

ونفس مدركة من الكل هو سبب لوجود الكل ومبدأ له وإبداع وإيجاد ولا يستبعد هذا فإن الصورة المعقولة التي تحدث فينا تصير سببا للصورة الموجودة الصناعية ولو كانت بنفس وجودها كافية لأن تتكون منها الصورة الصناعية دون آلات وأسباب لكان المعقول عندنا هو بعينه الإرادة والقدرة وهو العقل المقتضى لوجوده فواجب الوجود ليست إرادته وقدرته مغايرة لعلمه لكن القدرة التي له هو كون ذاته عاقلة للكل عقلا هو مبدأ الكل لا مأخوذا عن الكل ومبدأ بذاته لا متوقفا على غرض وذلك هو الإرادة وهو جواد بذاته وذلك هو بعينه قدرته وإرادته وعلمه فالصفات منها ما هو بهذه الصفة أي أنه موجود مع هذه الإضافة ومنها ما له هذا الوجود مع سلب فمن لم يتحاش عن إطلاق لفظ الجوهر لم يعن به إلا هذا الوجود مع سلب الكون في موضوع
وهو واحد أي مسلوب عنه القسمة بالكم أو القول أو مسلوب عنه الشريك وهو عقل وعاقل ومعقول أي مسلوب عنه جواز مخالطة المادة وعلائقها مع إعتبار إضافة ما وهو أول أي مسلوب عنه الحدوث مع إضافة وجوده إلى الكل وهو مريد أي واجب الوجود مع عقليته أي سلب المادة عنه مبدأ لنظام الخير كله وهو جواد أي هو بهذه الصفة بزيادة سلب أي لا ينحو غرضا لذاته فصفاته إما إضافية محضة وإما سلبية محضة وإما مؤلفة من إضافة وسلب وذلك لا يوجب تكثرا في ذاته قال وإذا عرفت أنه واجب الوجود وأنه مبدأ لكل موجود فما يجوز عنه يجب أن يوجد وذلك أن الجائز أن يوجد وأن لا يوجد إذا تخصص بالوجود منه إحتاج إلى مرجح لجانب الوجود
والمرجح إذا كان على الحال التي كان عليها قبل الترجيح ولم يعرض البتة شيء فيه ولا مباين عنه يقتضي الترجيح في هذا الوقت دون وقت قبله أو بعده وكان الأمر على ما كان عليه لم يكن مرجحا إذ كان التعطل عن الفعل والفعل عنده بمثابة واحدة فلا بد وان يعرض له شيء وذلك لا يخلو إما أن يعرض في ذاته وذلك يوجب التغير وقد قدمنا أن واجب الوجود لا يتغير ولا يتكثر وإما أن يعرض مباينا من ذاته والكلام

في ذلك المباين كالكلام في سائر الأفعال قال والعقل الصريح الذي لم يكذب يشهد أن الذات الواحدة إذا كانت من جميع جهاتها واحدة وهي كما كانت وكان لا يوجد عنها شيء فيما قبل وهي الآن كذلك فالآن لا يوجد عنها شيء فإذا صار الآن يوجد عنها شيء فقد حدث أمر لا محالة من قصد أو إرادة أو طبع أو قدرة أو تمكن أو غرض ولأن الممكن أن يوجد وأن لا يوجد لا يخرج إلى الفعل ولا يترجح له أن يوجد إلا بسلب وإذا كانت هذه الذات موجودة ولا ترجح ولا يجب عنها الترجيح ثم رجح فلا بد من حادث موجب الترجيح في هذه الذات وإلا كانت نسبتها إلى ذلك الممكن على ما كانت قبل ولم تحدث لها نسبة أخرى فيكون الأمر بحاله ويكون الإمكان إمكانا صرفا بحاله وإذا حدثت لها نسبة فقد حدث أمر ولا بد بحاله ويكون افمكان إمكانا صرفا بحاله وإذا حدثت لها نسبة فقد حدث أمر ولا بد من أن يحدث في ذاته أو مباينا عن ذاته وقد بينا إستحالة ذلك وبالجملة فإنا نطلب النسبة الموقعة لوجود كل حادث في ذاته أو مباين عن ذاته ولا نسبة أصلا فيلزم أن لا يحدث شيء أصلا وقد حدث فعلم أنه إنما حدث بإيجاب من ذاته وأنه سبقه لا بزمان ووقت ولا تقدير زمان بل سبقا ذاتيا من محيث إنه هو الواجب لذاته وكل ممكن بذاته فهو محتاج إلى الواجب لذاته فالممكن مسبوق بالواجب فقط والمبدع مسبوق بالمبدع فقط لا بالزمان المسألة الثامنة في أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد وفي ترتيب وجود العقول والنفوس والأجرام العلوية وان المحرك القريب للسماويات نفس والمبدأ الأعلى عقل وحال تكون الأسطقسات عن العلل

إذا صح أن واجب الوجود بذاته واحد من جميع جهاته فلا يجوز أن يصدر عنه إلا واحد ولو لزم عنه شيئان متباينان بالذات والحقيقة لزوما معا فإنما يلزمان عن جهتين مختلفتين في ذاته ولو كانت الجهتان لازمتين لذاته فالسؤال في لزومهما ثابت حتى يكونا من ذاته فتكون ذاته منقسمة بالمعنى وقد منعناه وبينا فساده فتبين أن أول

الموجودات عن الأول واحد بالعدد وذاته وماهيته وحدة لا في مادة وقد بينا أن كل ذات لا في مادة فهي عقل وأنت تعلم أن في الموجودات أجساما وكل جسم ممكن الوجود في حيز نفسه وأنه يجب بغيره وعلمت أنه لا سبيل إلى أن يكون عن الأول بغير واسطة وعلمت أن الواسطة واحدة فبالحري أن تكون عنها المبدعات الثانية والثالثة وغيرها بسبب إثنينية فيها ضرورة فالمعلول الأول ممكن الوجود بذاته وواجب الوجود بالأول ووجوب وجوده بأنه عقل وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ضرورة وليست هذه الكثرة له من الأول فإن إمكان وجوده له بذاته لا بسبب الأول بل له من الأول وجوب وجوده ثم كثرة أنه يعقل الأول ويعقل ذاته كثرة لازمة لوجوب وجوده عن الأول وهذه كثرة إضافية ليست في أول وجوده وداخلة في مبدأ قوامه ولولا هذه الكثرة لكان لا يمكن أن يوجد منها الا واحدة ولكان يتسلسل الوجود من وحدات فقط فما كان يوجد جسم فالعقل الأول يلزم عنه بما يعقل الأول وجود عقل تحته وبما يعقل ذاته وجود صورة الفلك وكماله وهي النفس وبطبيعة إمكان الوجود الخاصية له المندرجة فيما يعقله لذاته وجود جرمية الفلك الأعلى المندرجة في جملة ذات الفلك الأعلى بنوعه وهو الأمر المشارك للقوة فيما يعقل الأول يلزم عنه عقل وبما يختص بذاته على جهتيه الكثرة الأولى بجزءيها أعني المادة والصورة والمادة بتوسط الصورة أو بمشاركتها

كما أن إمكان الوجود يخرج إلى الفعل بالعقل الذي يحاذي صورة الفلك وكذلك الحال في عقل عقل وفلك فلك إلى أن ينتهي العقل إلى العقل الفعال الذي يدبر أنفسنا وليس يجب أن يذهب هذا المعنى إلى غير النهاية حتى يكون تحت كل مفارق مفارق فإنه إن لزم كثرة عن العقول فبسبب المعاني التي فيها من الكثرة وقولنا هذا ليس ينعكس حتى يكون كل عقل فيه هذه الكثرة فتلزم كثرته هذه المعلومات ولا هذه العقول متفقة الأنواع حتى يكون مقتضى معانيها متفقا ومن المعلوم أن الأفلاك كثيرة فوق العدد الذي في المعلول الأول فليس يجوز أن يكون مبدؤها واحدا هو المعلول الأول

ولا أيضا يجوز أن يكون كل جرم متقدم منها علة للمتأخر لأن الجرم بما هو جرم مركب من مادة وصورة فلو كان علة لجرم لكان بمشاركة المادة والمادة لها طبيعة عدمية والعدم ليس مبدأ للوجود فلا يجوز أن يكون جرم مبدأ للوجود فلا يجوز أن يكون جرم مبدأ لجرم ولا يجوز أن يكون مبدؤها قوة نفسانية هي صورة الجرم وكماله إذ كل نفس لكل فلك فهي كماله وصورته ليس جوهرا مفارقا وإلا كان عقلا وأنفس الأفلاك إنما تصدر عنها أفعالها في أجسام أخرى بوساطة أجسامها ومشاركتها وقد بينا أن الجسم من حيث هو جسم لا يكون مبدأ لجسم ولا يكون متوسطا بين نفس ونفس ولو أن نفسا كانت مبدأ لنفس بغير توسط الجسم فلها إنفراد قوام من دون الجسم وليست النفس الفلكية كذلك فلا تفعل شيئا ولا تفعل جسما فإن النفس متقدمة على الجسم في المرتبة والكمال فتعين أن للأفلاك مبادئ غير جرمانية وغير صور للأجرام والجميع مشترك في مبدأ واحد وهو الذي نسميه المعلول الأول والعقل المجرد ويختص كل فلك بمبدأ خاص فيه ويلزم دائما عقل من عقل حتى تتكون الأفلاك بأجرامها ونفوسها وعقولها وينتهي بالفلك الأخير ويقف حيث يمكن أن تحدث الجواهر العقلية منقسمة متكثرة بالعدد لتكثر الأسباب فكل عقل هو أعلى في المرتبة فإنه لمعنى فيه وهو أنه بما يعقل الأول يجب عنه وجود عقل آخر دونه وبما يعقل ذاته يجب عنه فلك بنفسه فأما جرم الفلك فمن حيث إنه يعقل بذاته الممكن لذاته واما نفس الفلك فمن حيث إنه يعقل ذاته الواجب بغيره ويستبيقى الجرم بتوسط النفس الفلكية فإن كل صورة فهي علة لكون مادتها بالفعل والمادة بنفسها لا قوام لها كما أن الإمكان نفسه لا وجود له وإذا استوفت الكرات السماوية عددها لزم بعدها وجود الاسطقسات ولما كانت الأجسام الأسطقسية كائنة فاسدة وجب أن تكون مبادؤها متغيرة فلا يكون ما هو عقل محض وحده سببا لوجودها

ولما كانت لها مادة مشتركة وصور مختلفة فيها وجب أن يكون إختلاف صورها مما

تعين فيه إختلاف في أحوال الأفلاك وإتفاق مادتها مما تعين فيه إتفاق في أحوال الأفلاك فالأفلاك لما اتفقت في طبيعة إقتضاء الحركة المستديرة كما تبين كان مقتضاها وجود المادة

ولما اختلفت في أنواع الحركات كان مقتضاها تهيؤ المادة للصور المختلفة ثم إن العقول المفارقة بل آخرها الذي يلينا هو الذي يفيض عنه بمشاركة الحركات السماوية شيء فيه رسم صور العالم الأسفل من جهة الإنفعال كما أن في ذلك العقل رسم الصور على جهة الفعل ثم يفيض منه الصور فيها بالتخصيص بمشاركة الأجرام السماوية فيكون إذا خصص هذا الشيء تأثير من التأثيرات السماوية بلا واسطة جسم عنصري أو بواسطة تجعله على إستعداد خاص بعد العام الذي كان في جوهره فاض عن هذا المفارق صورة خاصة وإرتسمت في تلك المادة وأن تعلم أن الواحد لا يخصص الواحد من حيث كل واحد منهما واحد بأمر دون أمر يكون له إلا أن يكون هناك مخصصات مختلفة وهي معدات المادة والمعد هو الذي يحدث منه في المستعد أمر ما تصير مناسبته لشيء بعينه أولى من مناسبته لشيء آخر ويكون هذا الإعداد مرجحا لوجود ما هو أولى منه من الأوائل الواهبة للصور

ولو كانت المادة على التهيؤ الأول تشابهت نسبتها إلى الضدين فلا يجب أن يختص بصورة دون صورة قال والاشبه أن يقال إن المادة التي تحدث بالشركة يفيض عليها من الأجرام السماوية إما عن أربعة أجرام أو عن عدة منحصرة في أربع أو عن جرم واحد تكون له نسب مختلفة إنقساما من السباب منحصرة في أربع فتحدث منها العناصر الأربعة وانقسمت بالخفة والثقل فما هو الخفيف المطلق فميله إلى الفوق وما هو الثقيل المطلق فميله إلى الأسفل وما هو الخفيف والثقيل بالإضافة فبينهما وأما وجود المركبات من العناصر فبتوسط الحركات السماوية وسنذكر أقسامها وتوابعها وأما وجود الأنفس الإنسانية التي تحدث مع حدوث الأبدان ولا تفسد فإنها كثير مع وحدة النوع والمعلول الأول الواحد بالذات فيه معان متكثرة بها تصدر عنه العقول والنفوس كما ذكرنا ولا يجوز أن تكون تلك المعاني كثيرة متفقة النوع والحقائق حتى تصدر عنها كثرة متفقة

النوع فإنه يلزم أن تكون فيه مادة يشترك فيها وصور تتخالف وتتكثر بل فيه معان مختلفة الحقائق يقتضي كل معنى شيئا غير ما يقتضيه الآخر في النوع فلم يلزم كل واحد منهما ما يلزم الآخر فالنفوس الأرضية كائنة عن المعلول الأول بتوسط علة أو علل أخرى وأسباب من الأمزجة والمواد وهي غاية ما ينتهي إليها في الإبداع

ونبتدى القول في الحركات وأسبابها ولوازمها

أعلم أن الحركة لا تكون طبيعية للجسم على حالته الطبيعية وكل حركة بالطبع فلحالة مفارقة للطبع غير طبيعية إذ لو كان شيء من الحركات مقتضى طبيعة الشيء لما كان باطل الذات مع بقاء الطبيعة بل الحركة إنما تقتضيها الطبيعة لوجود حال غير طبيعية إما في الكيف وإما في الكم وإما في المكان وإما في الوضع وإما في مقولة أخرى والعلة في تجدد حركة بعد حركة تجدد الحال الغير الطبيعية وتقدير البعد عن الغاية

فإذا كان الأمر كذلك لم تكن حركة مستديرة عن طبيعة وإلا كانت عن حال غير طبيعية إلى حال طبيعية إذا وصلت إليها سكنت ولم يجز أن يكون فيها بعينها قصد إلى تلك الحالة الغير الطبيعية لأن الطبيعية ليست تفعل بإختيار بل على سبيل التسخير فإن كانت الطبيعية تحرك على الإستدارة فهي تحرك لا محالة إما عن أين طبيعي أو وضع غير طبيعي هربا طبيعيا عنه وكل هرب طبيعي عن شيء فمحال أن يكون هو بعينه قصدا طبيعيا إليه

والحركة المستديرة ليست تهرب عن شي إلا وتقصده فليست إذن طبيعية إلا أنها قد تكون بالطبع وإن لم تكن قوة طبيعية كانت شيئا بالطبع وإنما تحرك بتوسط الميل الذي إليه ونقول إن الحركة معنى متجدد السبب وكل شطر منه مختص بسبب فإنه لإثبات له ولا يجوز أن يكون عن معنى ثابت البتة وحده ولو كان فيجب أن

يلحقه ضرب من تبدل الأحوال فالثابت من جهة ما هو ثابت يكون عنه إلا ثابت فالإرادة العقلية الواحدة لا توجب البتة حركة فإنها مجردة عن جميع أصناف التغير والقوة العقلية حاضرة المعقول دائما ولا يفرض فيها الإنتقال من معقول إلى معقول إلا مشاركا للتخيل والحس فلابد للحركة من مبدأ قريب والحركة المستديرة مبدؤها القريب نفس في الفلك تتجدد تصوراتها وإرادتها وهي كمال جسم الفلك وصورته ولو كانت قائمة بنفسها من كل وجه لكانت عقلا محضا لا يتغير ولا ينتقل ولا يخالط ما بالقوة بل نسبتها إلى الفلك نسبة النفس الحيوانية التي لنا إليها إلا أن لها أن تعقل بوجه ما تعقلا مشوبا بالمادة وبالجملة أوهامها أو ما يشبه الأوهام صادقة وتخيلاتها أو مايشبه التخيلات حقيقة كالفعل العقلي فينا والمحرك الأول لها غير مادي أصلا وإنما تتحرك عن قوة غير متناهية والقوة التي للنفس متناهية لكنها بما تعقل الأول فيسيح عليها نوره دائما صارت قوتها غير متناهية فكانت الحركات المستديرة أيضا غير متناهية

والأجرام السماوية لما لم يبق في جوهرها أمر ما بالقوة أعني في كمها وكيفها تركبت صورتها في مادتها على وجه لا يقبل التحليل ولكن عرض لها في وضعها وأينها ما بالقوة إذ ليس شيء من أجزاء مدار فلكي أو كوكب أولى بأن يكون ملاقيا له أو لجزئه من جزء آخر فمتى كان في جزء بالفعل فهو في جزء آخر بالقوة والتشبه بالخير الأقصى يوجب البقاء على أكمل كمال ولم يكن هذا ممكنا للجرم السماوي بالعدد فحفظ بالنوع والتعاقب فصارت الحركة حافظة لما يكون من هذا الكمال ومبدؤها الشوق إلى التشبه بالخير الأقصى في البقاء على الكمال ومبدأ الشوق هو ما يعقل منه فنفس الشوق إلى التشبه بالأول من حيث هو بالفعل تصدر عنه الحركات الفلكية صدور الشيء عن التصور الموجب له وإن كان غير مقصود في ذاته بالقصد الأول لأن ذلك تصور لما بالفعل فيحدث عنه طلب لما بالفعل ولا يمكن لما بالشخص فيكون بالتعاقب ثم يتبع ذلك التصور تصورات جزئية على سبيل الإنبعاث إلى المقصود الأول وتتبع تلك التصورات

الحركات المنتقل بها في الأوضاع وهي كأنها عبادة ملكية أو فلكية وليس من شرط الحركة الإرادية أن تكون مقصودة في نفسها بل إذا كانت القوة الشوقية تشتاق نحو أمر يسيح منها تأثير تتحرك له الأعضاء فتارة على النحو الذي يوصل به إلى الغرض وتارة على نحو آخر متشابه

وإذا بلغ الإلتذاذ بتعقل المبدأ الأول وبما يدرك منه على نحو عقلي أو نفساني شغل ذلك عن كل شيء ولكن ينبعث منه ما هو أدون منه في المرتبة وهو الشوق إلى الأشبه به بقدر الأمكان فقد عرفت أن الفلك متحرك بطبعه ومتحرك بالنفس ومتحرك بقوة عقلية غير متناهية وتميزت عندك كل حركة عن صاحبتها وعرفت أن المحرك الأول لجملة السماء واحد ولكل كرة من كرات السماء محرك قريب يخصه ومتشوق معشوق يخصه فأول المفارقات الخاصة محرك الكرة الأولى وهي على قول من تقدم بطليموس كرة الثوابت وعلى قول بطليموس كرة خارجة عنها محيطة بها غير مكوكبة وبعد ذلك محرك الكرة التي تلي الأولى ولكل واحدة مبدأ خاص وللكل مبدأ فلذلك تشترك الأفلاك في دوام الحركة وفي الإستدارة ولا يجوز أن يكون شيء منها لأجل الكائنات السافلة لا قصد حركة ولا قصد جهة حركة ولا تقدير سرعة وبطء بل ولا قصد فعل البتة لأجلها وذلك أن كل قصد فيكون من أجل المقصود ويكون أنقص وجودا من المقصود لأن كل ما لأجله شيء آخر فهو أتم وجودا من الآخر

ولا يجوز أن يستفاد الوجود الأكمل من الشيء الخس فلا يكون البتة إلى معلول قصد صادق وإلا كان القصد معطيا ومفيدا لوجود ماهو أكمل إنما يقصد بالواجب شيء يكون القصد مهيئا له ومفيد وجوده شيء آخر وكل قصد ليس عبثا فإنه يفيد كمالا ما لقاصد لو لم يقصد لم يكن ذلك الكمال ومحال أن يكون المعلول المستكمل وجوده بالعلة يفيد العلة كمالا لم يكن فالعالي إذن لا يريد أمرا لأجل السافل وإنما يريده لما هو أعلى منه وهو التشبه بالأول بقدر الإمكان ولا يجوز أن يكون الغرض تشبها بجسم من

الأجسام السماوية وإن كان تشبه السافل بالعالي إذ لو كان كذلك لكانت الحركة من نوع حركة ذلك الجسم ولم يكن مخالفا له وأسرع في كثير من المواضع ولا يجوز أن يكون الغرض شيئا يوصل إليه بالحركة بل شيئا مباينا غير جواهر الأفلاك من موادها وأنفسها وبقى أن يكون لكل واحد من الأفلاك شوق تشبه بجوهر عقلي مفارق يخصه وتختلف الحركات وأفعالها وأحوالها إختلافها الذي لها لأجل ذلك وإن كنا لا نعرف كيفيتها وكميتها وتكون العلة الأولى متشوق الجميع بالاشتراك وهذا معنى قول القدماء إن للكل محركا واحدا معشوقا ولكل كرة محركا يخصها ومعشوقا يخصها فيكون إذن لكل فلك نفس محركة تعقل الخير ولها بسبب الجسم تخيل أي تصور للجزئيات وإرادة لها ثم يلزمها حركات ما دونها لزوما بالقصد الأول حتى تنتهي إلى حركات الفلك الذي يلينا ومدبرها العقل الفعال ويلزم الحركات السماوية حركات العناصر على مثال تناسب حركات الأفلاك وتعد تلك الحركات موادها لقبول الفيض من العقل الفعال فيعطيها صورها على قدر إستعدادتها كما قررنا فقد تبين لك أسباب الحركات ولوازمها وستعلم بواقيها في الطبيعات

المسألة التاسعة في العناية الأزلية وبيان دخول الشر في القضاء

قال العناية هي كون الأول عالما لذاته بما عليه الوجود من نظام وعلة لذاته للخير والكمال بحسب الإمكان وراضيا به على النحو المذكور فيعقل نظام الخير على الوجه الأبلغ في الإمكان فيفيض منه ما يعقله نظاما وخيرا على الوجه الأبلغ الذي يعقله فيضانا على أتم تأدية إلى النظام بحسب الإمكان فهذا هو معنى العناية والخير يدخل في القضاء الإلهي دخولا بالذات لا بالعرض والشر بالعكس منه وهو على وجوه فيقال شر لمثل الألم والغم ويقال شر لمثل الشرك والظلم والرياء وبالجملة الشر بالذات هو العدم ولا كل عدم بل عدم مقتضي طباع الشيء من الكمالات الثابتة لنوعه وطبيعته والشر بالعرض هو المعدم والحابس للكمال عن مستحقه والشر بالذات ليس بأمر حاصل إلا أن

يخبر عن لفظه ولو كان له حصول ما لكان الشر العام وهذا الشر يقابله الوجود على كماله الأقصى بأن يكون بالفعل وليس فيه ما بالقوة أصلا فلا يلحقه شر وأما الشر بالعرض فله وجود ما وإنما يلحق ما في طباعه أمر ما بالقوة وذلك لأجل المادة فيلحقها لأمر يعرض لها في نفسها وأول وجودها هيئة من الهيئات المانعة لإستعدادها الخاص للكمال الذي توجهت إليه فتجعلها أردأ مزاجا وأعصى جوهرا لقبول التخطيط والتشكيل والتقويم فتشوهت الخلقة وإنقضت البينة لا لأن الفاعل قد حرم بل لأن المنفعل لم يقبل وأما الأمر الطارىء من خارج فأحد شيئين إما مانع للمكمل وإما مضاد ماحق للكمال مثال الأول وقوع سحب كثيرة وتراكمها وإظلال جبال شاهقة تمنع تأثير الشمس في الثمار على الكمال ومثال الثاني حبس البرد للنبات المصبب لكماله في وقته حتى يفسد الإستعداد الخاص ويقال شر لمبادئها من الأخلاق مثال الأول الظلم والرياء ومثال الثاني الحقد والحسد ويقال شر للآلام والغموم ويقال شر لنقصان كل شيء عن كماله والضابط لكله إما عدم وجود وإما عدم كمال فنقول الأمور إذا توهمت موجودة فإما تمتنع أن تكون إلا خيرا على الإطلاق أو شرا على الإطلاق أو خيرا من وجه وشرا من وجه وهذا القسم إما أن يتساوى فيه الخير والشر أو الغالب فيه احدهما أما الخير المطلق الذي لا شر فيه فقد وجد في الطباع والخلقة وأما الشر المطلق الذي لا خير فيه أو الغالب فيه أو المساوى فلا وجود له أصل فبقي ما الغالب في وجوده الخير وليس يخلو من الشر والأحرى به أن يوجد فإن لا كونه أعظم شرا من كونه فواجب أن يفيض وجوده من حيث يفيض منه الوجود لئلا يفوت الخير الكلي لوجود الشر الجزئي وأيضا فلو امتنع وجود ذلك القدر من الشر امتنع وجود أسبابه التي تأدي إلى الشر بالعرض وكان فيه أعظم خلل في نظام الخير الكلي بل وإن لم تلتفت إلى ذلك وصيرنا التفاتنا إلى ما ينقسم إليه الإمكان في الوجود من أصناف الموجودات المختلفة في أحوالها فكان الوجود المبرأ من الشر من كل وجه قد حصل وبقى نمط من الوجود إنما يكون على سبيل أن لا يوجد إلا ويتبعه ضرر وشر مثل النار فإن الكون إنما يتم بأن يكون فيه نار ولن يتصور

حصولها إلا على وجه تحرق وتسخن ولم يكن بد من المصادمات الحادثة أن تصادف النار ثوب فقير ناسك فيحترق والأمر الدائم والأكثري حصول الخير من النار فأما الدائم فلأن أنواعا كثيرة لا تستحفظ على الدوام إلا بوجود النار وأما الأكثر فلأن أكثر الأشخاص والأنواع في كنف السلامة من الإحتراق فما كان يحسن أن تترك المنافع الأكثرية والدائمة لأعراض شرية أقلية فأريدت الخيرات الكائنة عن مثل هذه الأشياء إرادة أولية على الوجه الذي يصلح أن يقال إن الله تعالى يريد الأشياء ويريد الشر أيضا على الوجه الذي بالعرض فالخير مقتضى بالذات والشر مقتضى بالعرض وكل بقدر والحاصل أن الكل إنما رتبت فيه القوى الفعالة والمنفعلة السماوية والأرضية الطبيعية والنفسانية بحيث يؤدي إلى النظام الكلي مع إستحالة أن تكون هي على ما هي عليه ولا تؤدي إلى شرور فيلزم من أحوال العالم بعضها بالقياس إلى بعض أن يحدث في نفس صورة إعتقاد ردىء أو كفر أو شر آخر ويحدث في بدن صورة قبيحة مشوهة ولو لم يكن كذلك بالضرورة وقيل خلقت هؤلاء خلقت للجنة ولا أبالي وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وكل ميسر لما خلق له

المسألة العاشرة في المعاد وإثبات سعادات دائمة للنفوس وإشارة إلى النبوة وكيفية الوحي والإلهام

ولنقدم على الخوض فيها أصولا ثابتة

الأصل الأول أن لكل قوة نفسانية لذة وخيرا يخصها وأذى وشرا يخصها وحيثما كان المدرك أشد إدراكا وأفضل ذاتا والمدرك أكمل وجودا وأشرف ذاتا وأدوم ثباتا فاللذة أبلغ وأوفر

الأصل الثاني أنه قد يكون الخروج إلى الفعل في كمال ما بحيث يعلم أن المدرك لذيذ ولكن لا يتصور كيفيته ولا يشعر به فلم يشتق إليه ولم يفزع نحوه فيكون حال المدرك حالالأصم والأعمى الملتذين برطوبة اللحن وملاحة الوجه من غير شعور وتصور ادراك

الأصل الثالث أن الكمال والأمر الملائم قد يتيسر للقوة الدراكة وهناك مانع أو شاغل للنفس فتكرهه وتؤثر ضده أو تكون القوة ممنوعة بضد ما هو كمالها فلا تحس به كالمريض والمحرور فإذا زال العائق عاد إلى واجبه في طبعه فصدقت شهوته واشتهت طبيعته وحصل له كمال اللذة

فنقول بعد تمهيد الأصول إن النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن تصير عالما عقليا مرتسما فيها صورة الكل والنظام المعقول في الكل والنظام المعقول في الكل والخير الفائض من واهب الصور على الكل مبتدئا من المبدأ وسالكا إلى الجواهر الشريفة الروحانية المطلقة ثم الروحانية المتعلقة نوعا ما بالأبدان ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها ثم تستمر كذلك حتى تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله فتصير عالما معقولا موازيا للعالم الموجود كله مشاهدا لما هو الحسن المطلق والخير والبهاء والحق ومتحدا به ومنتقشا بمثاله ومنخرطا في سلكه وصائرا من جوهره وهذا الكمال لا يقاس بسائر الكمالات وجودا ودواما ولذة وسعادة بل هذه اللذة أعلى من اللذات الحسية وأعلى من الكمالات الجسمانية

بل لا مناسبة بينهما في الشرف والكمال وهذه السعادة لا تتم له إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس وتهذيب الأخلاق والخلق ملكة تصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم روية وذلك باستعمال التوسط بين الخلقتين المتضادتين لا بأن يفعل أفعال التوسط بل بأن يحصل ملكة التوسط بين الخلقتين المتضادتين فيحصل في القوى الحيوانية هيئة الإذعان وفي القوى الناطقة هيئة الإستعلاء ومعلوم أن ملكتي الإفراط والتفريط هما من مقتضيات القوى الحيوانية فإذا قويت حدثت في النفس الناطقة هيئة إذعانية قد رسخت فيها من شأنها أن تجعلها قوية العلاقة مع البدن سديدة الإنصراف إليه وأما ملكه التوسط فهي من مقتضيات الناطقة فإذا قويت قطعت العلاقة من البدن فسعدت السعادة الكبرى ثم للنفوس مراتب في إكتساب هاتين القوتين أعني العلمية والعملية والتقصير فيهما فكم ينبغي أن يحصل عند نفس الإنسان من تصور

المعقولات والتخلق بالأخلاق الحسنة حتى يجاوز الحد الذي في مثله يقع في الشقاوة الأبدية وأي تصور وخلق يوجب له الشقاء المؤبد وأي تصور وخلق يوجب له الشقاء المؤقت قال فليس يمكنني أن أنص عليه إلا بالتقريب وليته سكت عنه وقد قيل

فدع عنك الكتابة لست منها ولو وسودت وجهك بالمداد

قال وأظن أن ذلك أن يتصور نفس الإنسان المبادىء المفارقة تصورا حقيقيا ويصدق بها تصديقا يقينيا لوجودها عنده بالبرهان ويعرف العلل الغائية للأمور الواقعة في الحركات الكلية دون الجزئية التي لا تتناهى ويتقرر عنده هيئة الكل ونسب أجزائه بعضها إلى بعض والنظام الآخذ من المبدأ الأول إلى أقصى الموجودات الواقعة في ترتيبه ويتصور العناية وكيفيتها ويتحقق أن الذات المتقدمة للكل أي وجود يخصها وأية وحدة تخصها وأنها كيف تعرف حتى لا يلحقها تكثر وتغير بوجه وكيف ترتيب نسب الموجودات إليها وكلما إزداد استبصار ازاداد للسعادة إستعدادا وكأنه ليس يتبرأ الإنسان عن هذا العالم وعلائقه إلا أن يكون قد أكد العلاقة مع ذلك العالم فصار له شوق وعشق إلى ما هناك يصده عن الالتفات إلى ما خلفه جملة ثم إن النفوس والقوى الساذجة التي لم تكتسب هذا الشوق ولا تصورت هذه التصورات فإن كانت بقيت على ساذجيتها واستقرت فيها هيئات صحيحة إقناعية وملكات حسنة خلقية سعدت بحسب ما اكتسبت

أما إذا كان الأمر بالضد من ذلك أو حصلت أوائل الملكية العلمية وحصل لها شوق قد تبع رأيا مكتسبا إلى كمال حالها فصدها عن ذلك عائق مضاد فقد يبقى الشقاء الأبدي وهؤلاء إما مقصرون في السعي لتحصيل الكمال الإنساني وأما معاندون متعصبون لآراء فاسدة مضادة للآراء الحقيقية والجاحدون أسوأ حالا والنفوس البله أدنى من الخلاص من فطانة بتراء لكن النفوس إذا فارقت وقد رسخ فيها نحو من الإعتقاد في العاقبة على مثل ما يخاطب به العامة ولم يكن لهم معنى جاذب إلى الجهة التي فوقهم لا كمال فتسعد تلك

السعادة ولا عدم كمال فتشقى تلك الشقاوة بل جميع هيئاتهم النفسانية متوجهة نحو الأسفل منجذبة إلى الأجسام ولا بد لها من تخيل ولا بد للتخيل من أجسام قال فلا بد لها من أجرام سماوية تقوم بها القوة المتخيلة فتشاهد ما قيل لها في لدنيا من أحوال القبر والبعث والخيرات الأخروية وتكون الأنفس الرديئة أيضا تشاهد العقاب المصور لهم في الدنيا وتقاسيه فإن الصورة الخيالية ليست تضعف عن الحسية بل تزداد تأثيرا كما تشاهد في المنام وهذه هي السعادة والشقاوة بالقياس إلى الأنفس الخسيسة وأنما الأنفس المقدسة فإنها تبعد عن مثل هذه الأحوال وتتصل لكمالها بالذت وتنغمس في اللذة الحقيقية ولو كان بقى فيها أثر من ذلك إعتقادي أو خلقي تأذب به وتخلفت عن درجة عليين إلى أن ينفسخ عنها قال والدرجة الأعلى فيما ذكرناه لمن له النبوة إذ في قواه النفسانية خصائص ثلاث نذكرها في الطبيعيات فبها يسمع كلام الله تعالى ويرى ملائكته المقربين وقد تحولت تعلى صور يراها وكما أن الكائنات إبتدأت من الأشرف فالأشرف حتى ترقت في الصعود إلى العقل الأول ونزلت في الإنحطاط إلى المادة وهي الأخس كذلك النفوس إبتدأت من الأخس حتى بلغت النفس الناطقة وترقت إلى درجة النبوة ومن المعلوم أن نوع الإنسان محتاج إلى إجتماع ومشاركة في ضروريات حاجاته مكتفيا بآخر من نوعه يكون ذلك الآخر أيضا مكتفيا به ولا تتم تلك الشركة إلا بمعاملة ومعاوضة يجريان بينهما يفرغ كل واحد منهما عن مهم لو تولاه بنفسه لاإزدحم على الواحد كثير ولا بد في المعاملة من سنة وعدل ولا بد من سان ومعدل ولا بد من أن يكون بحيث يخاطب الناس ويلزمهم السنة فلا بد من أن يكون إنسانا ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك فيختلفون ويرى كل واحد منهم ماله عدلا وما عليه ظلما فالحاجة إلى هذا الإنسان في أن يبقى نوع الإنسان أشد من الحاجات إلى إنبات الشعر على الأشفار والحاجبين فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضي أمثال تلك المنافع ولا تقتضي هذه التي هي أسها ولا يجوز أن يكون المبدأ الأول والملائكة بعده يعلم تلك ولا يعلم هذا

ولا أن يكون ما يعلمه في نظام الأمر الممكن وجوده الضروري حصوله لتمهيد نظام الخير لا يوجد بل كيف يجوز أن لا يوجد وما هو متعلق بوجوده ومبني على وجوده موجود فلابد إذن من نبي هو إنسان متميز من بين سائر الناس بآيات تدل على أنها من عند ربه تعالى يدعوهم إلى التوحيد ويمنعهم من الشرك ويسن لهم الشرائع والأحكام ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن التباغض والتحاسد ويرغبهم في الآخرة وثوابها ويضرب لهم للسعادة والشقاوة أمثالا تسكن إليها نفوسهم وأما الحق فلا يلوح لهم منه إلا أمرا مجملا وهو أن ذلك شيء لا عين رأته ولا أذن سمعته ثم تكريره عليهم العبادات ليحصل لهم بعده تذكر المعبود بالتكرير والمذكرات إما حركات وإما إعدام حركات تقضي إلى حركات فالحركات كالصلوات وما في معناها وإعدام الحركات كالصيام ونحوه وإن لم يكن لهم هذه المذكرات تناسوا جميع ما دعاهم إليه مع إنقراض قرن أو قرنين وينفعهم ذلك أيضا في المعاد منفعة عظيمة فإن السعادة في الآخرة بتنزيه النفس عن الأخلاق الرديئة والملكات الفاسدة فيتقرر لها بذلك هيئة الإنزعاج عن البدن وتحصل لها ملكة التسلط عليه فلا تنفعل عنه وتستفيد منه ملكة الإلتفات إلى جهة الحق والإعراض عن الباطل وتصير شديدة الإستعداد للتخلص إلى السعادة بعد المفارقة البدنية وهذه الأفعال لو فعلها فاعل ولم يعتقد أنها فريضة من عند الله تعالى وكان مع إعتقاده ذلك يلزمه في كل فعل أن يتذكر الله ويعرض عن غيره لكان جديرا بأن يفوز من هذا الذكاء بحظ فكيف إذا استعملها من يعلم أن النبي من عند الله تعالى وبإرسال الله تعالى وواجب في الحكمة الإلهية إرساله وأن جميع ما سنه فإنما هو ماوجب من عند الله أن يسنه وأنه متميز عن سائر الناس بخصائص بالغة وواجب الطاعة وبآيات ومعجزات دلت على صدقه

وسيأتي شرح ذلك في الطبيعيات لكنك تحدس مما سلف آنفا أن الله تعالى كيف رتب النظام في الموجودات وكيف سخر الهيولى مطيعة للنفوس بإزالة صورة وإثبات

صورة وحيثما كانت النفوس الإنسانية أشد مناسبة للنفوس الفلكية بل وللعقل الفعال كان تأثيرها في الهيولى أشد وأغرب وقد تصفو النفس صفاء شديدا لإستعداد ما للأتصال بالعقول المفارقة فيفيض عليها من العلوم مالا يصل إليه من هو في نوعه بالفكر والقياس

فبالقوة الأولى يتصرف في الأجرام بالتقليب والإحالة من حال إلى حال وبالقوة الثانية يخبر عن غيب ويكلمه ملك فيكون ما للإنبياء عليهم السلام وحيا وما للأولياء إلهاما وها نحن نبتدىء القول في الطبيعيات عن الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا

٣ – في الطبيعيات

قال أبو علي بن سينا إن للعلم الطبيعي موضوعا ينظر فيه وفي لواحقه كسائر العلوم وموضوعه الأجسام الموجودة بما هي واقعة في التغير وبما هي موصوفة بأنحاء الحركات والسكونات وأما مبادىء هذا العلم كمثل تركب الأجسام عن المادة والصورة والقول في حقيقتهما ونسبة كل واحد منهمات إلى الثاني فقد ذكرناها في العلم الإلهي والذي يختص من ذلك التركب بالعلم الطبيعي هو أن تعلم أن الأجسام الطبيعية منها أجسام مركبة من أجسام إما متشابهة الصور كالسرير وإما مختلفتها كبدن الإنسان ومنها أجسام مفردة والأجسام المركبة لها أجزاء موجودة بالفعل متناهية وهي تلك الأجسام المفردة التي منها تركبت وأما الأجسام المفردة فليس لها في الحال جزء بالفعل وفي قوتها أن تتجزأ أجزاء غير متناهية كل منها أصغر من الآخر والتجزؤ إما بتفريق الإتصال وإما بإختصاص العرض ببعض منه وإما بالتوهم وإذا لم يكن أحد هذه الثلاثة فالجسم المفرد لا جزء له بالفعل قال ومن أثبت الجسم مركبا من أجزاء لا تتجزأ بالفعل فبطلانه بأن كل جزء مس جزءا فقد شغله بالمس وكل ما شغل شيئا بالمس فإما أن يدع فراغا عن شغله لجهة

أو لا يدع فإن ترك فراغا فقد تجزأ المموس وإن لم يترك فراغا فلا يتأتى أن يماسه آخر غير المماس الأول وقد ماسه آخر هذا خلف وكذلك في كل جزء موضوع على جزءين متصل وغيره من تركيب المربعات منها لمساواة الأقطار والأضلاع ومن جهة مسامتات الظل والشمس دلائل على أن الجزء الذي لا يتجزأ البتة محال وجوده فنتكلم بعد هذه المقدمة في مسائل هذا العلم ونحصرها في ست مقالات

المقالة الأولى

في لواحق الأجسام الطبيعية

مثل الحركة والسكون والزمان والمكان والخلاء والتناهي والجهات والتماس والإلتحام والإتصال والتتالي

أما الحركة فتقال على تبدل حال قارة في الجسم يسيرا يسيرا على سبيل الإتجاه نحو شيء والوصول إليه هو بالقوة أو بالفعل فيجب أن تكون الحركة مفارقة الحال ويجب أن يقبل التنقص والتزيد ويكون باقيا غير متشابه الحال في نفسه وذلك مثل السواد والبياض والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والطول والقصر والقرب والبعد وكبر الحجم وصغره فالجسم إذا كان في مكان فتحرك فقد حصل فيه كمال وفعل أول يتوصل به إلى كمال وفعل ثان هو الوصول فهو في المكان الأول بالفعل وفي المكان الثاني بالقوة فالحركة كمال أول لما بالقوة من جهة ماهو بالقوة ولا يكون وجودها إلا في زمان بين القوة المحضة والفعل المحض وليست من الأمور التي تحصل بالفعل حصولا قارا مستكملا وقد ظهر أنها في كل أمر يقبل التنقص والتزيد وليس شيء من الجواهر كذلك فإذن لا شيء من الحركات في الجوهر وكون الجوهر وفساده ليس بحركة بل هو أمر يكون دفعة وأما الكمية فلأنها تقبل التزيد والتنقص فخليق أن

يكون فيها حركة كالنمو والذبول والتخلخل والتكاثف وأما الكيفية فما يقبل منها التنقص والتزيد والاشتداد كالتبيض والتسود فيوجد فيه الحركة وأما المضاف فأبدأ عارض لمقولة من البواقي في قبول التنقص والتزيد فإذا أضيفت إليه حركة فذلك بالحقيقة لتلك المقولة وأما الأين فإن وجود الحركة فيه ظاهر وهو النقلة وأما متى فإن وجوده للجسم بتوسق الحركة فكيف يكون فيه الحركة ولو كان ذلك لكان لمتى متى آخر

وأما الوضع فإن فيه حركة على رأينا خاصة كحركة الجسم المستدير على نفسه إذ لو توهم المكان المطيف به معدوما لما امتنع كونه متحركا ولو قدر ذلك في الحركة المكانية لامتنع ومثاله في الموجودات الجرم الأقصى الذي ليس وراءه جسم والوضع يقبل التنقص والاشتداد فيقال أنصب وأنكس وأما الملك فإن تبدل الحال فيه تبدل أولا في الأين فإذن الحركة فيه بالعرض وأما أن يفعل فتبدل الحال فيه بالقوة أو العزيمة أو الالة فكانت الحركة في قوة الفاعل أو عزيمته أو آلته اولا وفي الفعل بالعرض على أن الحركة إن كانت خروجا عن هيئة فهي عن هيئة قارة وليس شيء من الأفعال كذلك فإذن لا حركة بالذات إلا في الكم والكيف والأين والوضع وهو كون الشيء بحيث لا يجوز أن يكون على ماهو عليه من أينه وكمه وكيفه ووضعه قبل ذلك ولا بعده

والسكون هو عدم هذه الصورة في ما من شأنه أن توجد فيه وهذا العدم له معنى ما ويمكن أن يرسم وفرق بين عدم القرنين في الإنسان وهو السلب المطلق عقدا وقولا وبين عدم المشي له فهو في حالة مقابلة لمشي توجد عند إرتفاع علة المشي وله وجود ما بنحو من الأنحاء وله علة بنحو والمشي علة بالعرض لذلك العدم فالعدم معلول بالعرض موجود بالعرض

ثم اعلم أن كل حركة توجد في الجسم فإنما توجد لعلة محركة إذ لو تحرك بذاته وبما هو جسم لكان كل جسم متحركا فيجب أن يكون المحرك معنى زائدا على هيولى الجسمية

وصورتها ولا يخلو إما أن يكون ذلك المعنى في الجسم وإما أن لا يكون فإن كان المحرك مفارقا فلا بد لتحريكه من معنى في الجسم قابل لجهة التحريك والتغيير ثم المتحرك لمعنى في ذاته يسمى متحركا بذاته وذلك إما أن تكون العلة الموجودة فيه يصح عنها أن تحرك تارة ولا تحرك أخرى فيسمى متحركا بالاختيار وإما أن لا يصح فيسمى متحركا بالطبع والمتحرك بالطبع لا يجوز أن يتحرك وهو على حالته الطبيعية لأن كل ما اقتضاه طبيعة الشيء لذاته ليس يمكن أن يفارقه إلا والطبيعة قد فسدت وكل حركة تتعين في الجسم فإنها يمكن أن تفارق والطبيعة لم تبطل لكن الطبيعة إنما تقتضي الحركة للعود إلى حالتها الطبيعية فإذا عادت إرتفع الموجب للحركة وامتنع أن يتحرك فيكون مقدار الحركة على مقدار البعد من الحالة الطبيعية وهذه الحركة ينبغي أن تكون مستقيمة إن كانت في المكان لأنها لا تكون إلا لميل طبيعي وكل ميل طبيعي فعلى أقرب المسافة وكل ماهو على أقرب المسافة فهو على خط مستقيم فالحركة المكانية المستديرة ليست طبيعية ولا الحركة الوضعية فإن كل حركة طبيعية فإنها لهرب عن حالة غير طبيعية ولا يجوز أن يكون فيه قصد طبيعي بالعود إلى مافارقه بالهرب إلا إختيار لها وقد تحقق العود فهي إذن غير طبيعية فهي إذن عن إختيار وإرادة ولو كانت عن قسر فلا بد أن ترجع إلى الطبع والاختيار وأما الحركات في أنفسها فيتطرق إليها الشدة والضعف فيتطرق إليها السرعة والبطء لا بتخلل سكنات وهي قد تكون واحدة بالجنس إذا وقعت في مقولة واحدة أو في جنس واحد من الأجناس التي تحت تلك المقولة

وقد تكون واحدة بالنوع وذلك إذا كانت ذات جهة مفروضة عن جهة واحدة إلى جهة واحدة في نوع واحد وفي زمان مساو مثل تبييض ما يتبيض وقد تكون واحدة بالشخص وذلك إذا كانت عن متحرك واحد بالشخص في زمان واحد ووحدتها بوجود الإتصال فيها والحركات المتفقة في النوع لا تتضاد وأما تطابق الحركات فيعني بها التي يجوز أن يقال لبعضها أسرع من بعض أو أبطأ أو مساو والأسرع هو الذي يقطع شيئا مساويا لما يقطعه الآخر في زمان أقصر وضده الأبطأ والمساوي معلوم

وقد يكون التطابق بالقوة وقد يكون بالفعل وقد يكون بالتخيل وأما تضاد الحركات فإن الضدين هما اللذان موضوعهما واحد وهما ذاتان يستحيل أن يجتمعا فيه وبينهما غاية الإختلاف فتضاد الحركات ليس بتضاد المتحركين ولا بالزمان ولا بتضاد ما يتحرك فيه بل تضادهما هو بتضاد الأطراف والجهات فعلى هذا لا تضاد بين الحركة المستقيمة والحركة المستديرة المكانية لأنهما لا يتضادان في الجهات بل المستديرة لا جهة فيها بالفعل لأنها متصل واحد فالتضاد في الحركات المكانية المستقيمة يتصور فالهابطة ضد الصاعدة والمتيامنة ضد المتياسرة وأما التقابل بين الحركة والسكون فهو تقابل العدم والملكة وقد بينا أن ليس كل عدم هو السكون بل هو عدم ما من شأنه أن يتحرك ويختص ذلك بالمكان الذي تتأتى فيه الحركة والسكون في المكان المقابل إنما يقابل الحركة عنه لا الحركة إليه بل ربما كان هذا السكون إستكمالا لها

وإذا عرفت ما ذكرناه سهل عليك معرفة الزمان بأن تقول

كل حركة تفرض في مسافة على مقدار من السرعة وأخرى معها على مقدارها وابتدأنا معا فإنهما يقطعان المسافة معا وإن إبتدأت إحداهما ولم تتبتدىء الأخرى ولكن تركتا الحركة معا فإن إحداهما تقطع دون ما تقطعه الأولى وإن إبتدأ معه بطيء واتفقا في الأخذ والترك وجد البطيء قد قطع أقل والسريع أكثر وكان بين أخذ السريع الأول وتركه إمكان قطع مسافة معينة بسرعة معينة وأقل منها ببطء معين وبين أخذ السريع الثاني وتركه إمكان أقل من ذلك بتلك السرعة المعينة يكون هذا الإمكان طابق جزءا من الأول ولم يطابق جزءا مقتضيا وكان من شأن هذا الإمكان التقضي لأنه لو ثبت للحركات بحال واحدة لكانت تقطع المتفقات في السرعة أي وقت ابتدأت وتركت مسافة واحدة بعينها ولما كان إمكان أقل من إمكان فوجد في هذا الإمكان زيادة ونقصان يتعينان فكان ذا مقدار مطابق للحركة فإذن ههنا مقدار للحركات مطابق

لها وكل ما طابق الحركات فهو متصل ويقتضي الإتصال تجدده وهو الذي نسميه الزمان ثم هو لا بد وأن يكون في مادة ومادته الحركة فهو مقدار الحركة وإذا قدرت وقوع حركتين مختلفتين في العدم كان هناك إمكانان مختلفان بل مقداران مختلفان وقد سبق أن الإمكان والمقدار لا يتصور إلا في موضوع فليس الزمان محدثا حدوثا زمانيا بحيث يسبقه زمان لأن كلامنا في ذلك الزمان بعينه وإنما حدوثه حدوث إبداع لا يسبقه إلا مبدعه وكذلك ما يتعلق به الزمان ويطابقه فالزمان متصل يتهيأ أن ينقسم بالتوهم فإذا قسم ثبتت منه آنات وإنقسم إلى الماضي والمستقبل وكونهما فيه ككون أقسام العدد في العدد وكون الآن فيه كالوحدة في العدد وكون المتحركات فيه ككون المعدودات في العدد والدهر هو المحيط بالزمان وأقسام الزمان ما فصل منه بالتوهم كالساعات والأيام والشهور والأعوام

وأما المكان فيقال مكان لشيء يكون محيطا بالجسم ويقال لشيء عليه الجسم وألأول هو الذي يتكلم فيه الطبيعي وهو حاو للمتمكن مفارق له عند الحركة ومساو له وليس هو شيئا في المتمكن وكل هيولى وصورة فهو في المتمكن فليس المكان إذن بهيولى ولا صورة ولا الأبعاد التي يدعى أنها مجردة عن المادة قائمة بمكان الجسم المتمكن لا مع إمتناع خلوها كما يراه قوم ولا مع جواز خلوها كما يظنه مثبتو الخلاء ونقول في نفي الخلاء إن فرض خلاء خال فليس هو لا شيئا محضا بل هو ذات ماله كم لأن كل خلاء يفرض فقد يوجد خلاء آخر أقل منه أو أكثر ويقبل التجزؤ في ذاته والمعدوم واللاشيء ليس يوجد هكذا فليس إخلاء لا شيء فهو ذو كم وكل كم فإما متصل وإما منفصل والمنفصل لذاته عديم الحد المشترك بين أجزائه وقد تقرر في الخلاء حد مشترك فهو إذن متصل الأجزاء منحازها في جهات فهو إذن كم ذو وضع قابل للأبعاد الثلاثة كالجسم الذي يطابقه وكأنه جسم تعليمي مفارق للمادة فنقول الخلاء

بقدر إما أن يكون موضوعا لذلك المقدار أو يكون الوضع ومقدار جزءين من الخلاء والأول باطل فإنه إذا رقع المقدار في التوهم كان الخلاء وحده بلا مقدار وقد فرض أنه ذو مقدار فهو خلف وإن بقى متقدرا في نفسه فهو مقدار بنفسه لا لمقدار حله وأن كان الخلاء مجموع مادة ومقدار فالخلاء إذن جسم فهو ملاء

وأيضا فإن كان كل شيء يقبل الإتصال والإنفصال فهو ذو مادة مشتركة قابلة لها كما بينا والخلاء لا ماده له فلا يجوز عليه الانفصال والاتصال ونقول إن التمانع محسوس بين الجسمين وليس التمانع من حيث المادة لأن المادة من حيث إنها مادة لا انحياز لها عن الأجزاء وإنما ينحاز الجسم عن الجسم لأجل صورة البعد فطباع الأبعاد تأبى التداخل وتوجب المقاومة والتنحي وأيضا فإن بعدا لو دخل بعدا فإما أن يكونا جميعا موجودين أو معدومين أو أحدهما موجودا والآخر معدوما فإن وجدا جميعا فهما أزيد من الواحد وكل ما هو عظيم وهو أزيد فهو أعظم وإن عدما جميعا أو وجد أحدهما وعدم الآخر فليس مداخلة فإذا قيل جسم في خلاء فيكون بعدا في بعد وهو محال ونقول في نفي اللانهاية عن الجسم إن كل موجود الذات ذا وضع وترتيب فهو متناه إذ لو كان غير متناه من الأطراف كلها أو غير متناه من طرف فإن كان غير متناه من طرف أمكن أن يفصل منه من الطرف المتناهي جزء بالتوهم فيوجد ذلك المقدار مع ذلك الجزء شيئا على حدة وبانفراده شيئا على حده

ثم يطبق بين الطرفين المتناهيين في التوهم فلا يخلو إما أن يكون بحيث يمتدان معا متطابقين في الإمتداد فيكون الزائد والناقص متساويين وهذا محال وإما أن لا يمتدان معا متطابقين في الامتداد فيكون الزائد والناقص متساويين وهذا محال وإما أن لا يمتد بل يقصر عنه فيكون متناهيا والفصل أيضا كان متناهيا فيكون المجموع متناهيا فالأصل يقصر عنه فيكون متناهيا والفصل أيضا كان متناهيا فيكون المجموع متناهيا فالأصل يقصر عنه فيكون متناهيا والفصل أيضا كان متناهيا فيكون المجموع متناهيا فالأصل متناه وأما إذا كان غير متناه من جميع الأطراف فلا يبعد أن يفرض ذا مقطع تتلاقى عليه الأجزاء ويكون طرقا ونهاية ويكون الكلام في الأجزاء والجزأين كالكلام

في الأول وبهذا يتأتى البرهان على أن العدد المترتب الذات الموجود بالفعل متناه وأن مالا يتناهى بهذا الوجه هو الذي إذا وجد وفرض أنه يحتمل زيادة ونقصانا وجب أن يلزم ذلك محال وأما إذا كانت أجزاؤه لا تتناهى وليست معا وكانت في الماضي والمستقبل فغير ممتنع وجودها واحدا قبل آخر أو بعده لاحقا أو كانت ذات عدد غير مرتب في الوضع ولا الطبع فلا مانع عن وجوده معا وذلك أن مالا ترتيب له في الوضع أو الطبع فلن يحتمل الإنطباق ومالا وجود له معا فهو فيه أبعد ونقول في إثبات التناهي في القوى الجسمانية ونفي التناهي عن القوى غير الجسمانية قال الأشياء التي يمتنع فيها وجود غير المتناهي بالفعل فليس يمتنع فيها من جميع الوجوه فإن العدد لا يتناهى أي بالقوة وكذلك الحركات لا تتناهى بالقوة لا القوة التي تخرج إلى الفعل بل بمعنى أن الأعداد يتأتى أن تتزايد فلا تقف عند نهاية أخيرة واعلم أن القوى تختلف في الزيادة والنقصان بالنسبة إلى شدة ظهور الفعل عنها أو إلى عدة ما يظهر عنها أو إلى مدة بقاء الفعل وبينها فرقان بعيدان فإن جل ما يكون زائدا بنوع الشدة يكون ناقصا بنوع المادة وكل قوة حركت أشد فمدة حركتها أقصر وعدة حركتها أكثر ولا يجوز أن تكون قوة غير متناهية بحسب إعتبار الشدة لأن ما يظهر من الأحوال القابلة لها لا يخلو إما أن يقبل الزيادة على ما ظهر فيكون متناهيا يجوز عليه زيادة في آخره وإما أن لا يقبل فهو النهاية في الشدة فكل قوة جسمانية متجزئة ومتناهية

وأما الكلام في الجهات فمن المعلوم أنا لو فرضنا خلاء فقط أو أبعادا أو جسما غير متناه فلا يمكن للجهات المختلفة بالنوع وجود البتة فلا يكون فوق وسفل ويمين ويسار وقدام وخلف فالجهات إنما تتصور في أجسام متناهية فتكون الجهات أيضا متناهية ولذلك يتحقق إليها إشارة ولذاتها إختصاص وإنفراد من جهة أخرى

وإذا كانت الأجسام كرية فيكون تحدد الجهات على سبيل المحيط والمحاط والتضاد

فيها على سبيل المركز والمحيط وإذا كان الجسم المحدد محيطا كفى لتحديد الطرفين لأن الإحاطة تثبت المركز فتثبت غاية البعد منه وغاية القرب من غير حاجة إلى جسم آخر وأما إن فرض محاطا لم تتحدد به وحده الجهات لأن القرب يتحدد به والبعد منه يتحدد بجسم آخر إذ لا خلاء وذلك ينتهي لا محالة إلى محيط ويجب أن تكون الأجسام المستقيمة الحركة لا يتأخر عنها وجود الجهات لأمكنتها وحركاتها بل الجهات تحصل بحركاتها فيجب أن يكون الجسم الذي تتحدد الجهات إليه جسما متقدما عليه وتكون إحدى الجهات بالطبع غاية القرب منه وهو الفرق ويقابله غاية البعد منه وهو السفل وهذان بالطبع وسائر الجهات لا تكون واجبة في الأجسام بما هي أجسام بل بما هي حيوانات فتتميز فيها جهة القدام الذي إليه الحركة الإختيارية واليمين الذي منه مبدأ القوة والفوق إما بقياس فوق العالم وإما الذي إليه أول حركة النشوء ومقابلاتها الخلف واليسار والسفل محدودان بطرفي البعد الذي الأولى أن يسمى طولا واليمين واليسار بما الأولى أن يسمى عرضا والقدام والخلف بما الأولى أن يسمى عمقا

المقالة الثانية

في الأمور الطبيعية وغير الطبيعية للأجسام

من المعلوم أن الأجسام تنقسم إلى بسيطة ومركبة وأن لكل جسم حيزا ما ضرورة فلا يخلو إما أن يكون كل حيز له طبيعيا أو منافيا لطبيعته أو لا طبيعيا ولا منافيا أو بعضه طبيعيا وبعضه منافيا وبطل أن يكون كل حيز له طبيعيا لأنه يلزم منه أن يكون مفارقة كل مكان له خارجا عن طبعه أو التوجه إلى كل مكان له ملائما لطبعه وليس الأمر كذلك فهو خلف وبطل أن يكون كل حيز منافيا لطبعه لأنه يلزم منه أن لا يسكن جسم البتة بالطبع ولا يتحرك أيضا وكيف يسكن أو يتحرك بالطبع وكل مكان مناف

لطبعه وبطل أن يكون كل مكان لا طبيعيا ولا منافيا لأنا إذا اعتبرنا الجسم على حالته وقد إرتفع عنه القواسر والعوارض فحينئذ لا بد له من حيز يختص به ويتحيز إليه وذلك هو حيزه الطبيعي فلا يزول عنه إلا بقسر قاسر وتعين القسم الرابع أن بعض الأحياز له طبيعي وبعضها غير طبيعي وكذلك نقول في الشكل إن لكل جسم شكلا ما بالضرورة لتناهي حدوده وكل شكل فإما طبيعي له أو بقسر قاسر وإذا ارتفعت القواسر في التوهم واعتبرت الجسم من حيث هو جسم وكان في نفسه متشابه الأجزاء فلا بد أن يكون شكله كريا لأن فعل الطبيعة في المادة واحد متشابه فلا يمكن أن يفعل في جزء زاوية وفي جزء خطا مستقيما أو منحنيا فينبغي أن يتشابه الأجزاء فيجب أن يكون الشكل كريا وأما المركبات فقد تكون أشكالها غير كرية لإختلاف أجزائها

فالأجسام السماوية كلها كرية وإذا تشابهت أجزاؤها وقواها كان حيزها الطبيعي وجهتها واحدة فلا يتصور أرضان في وسطين في عالمين ولا ناران في أفقين بل لا يتصور عالمان لأنه قد ثبت أن العالم بأسره كرى الشكل فلو قدر كريان أحدهما بجنب الآخر كان بينهما خلاء ولا يتصلان إلا بجزء واحد لا ينقسم وقد تقدم إستحالة الخلاء وأما الحركة فمن المعلوم أن كل جسم اعتبر ذاته من غير عارض بل من حيث هو جسم في حيز فهو إما أن يكون متحركا وإما أن يكون ساكنا وذلك ما نعنيه بالحركة الطبيعية والسكون الطبيعي فنقول إن كان الجسم بسيطا كانت أجزاؤه متشابهة

وأجزاء ما يلاقيه وأجزاء مكانه كذلك فلم يكن بعض الأجزاء أولى بأن يختص ببعض أجزاء المكان من بعض فلم يجب أن يكون شيء منها له طبيعيا فلا يمتنع أن يكون على غير ذلك الوضع بل في طباعه أن يزول عن ذلك الوضع أو الأين بالقوة وكل جسم لا ميل له في طبعه فلا يقبل الحركة عن سبب خارج فالبضرورة في طباعه حركة ما إما لكله وإما لأجزائه حتى يكون متحركا في الوضع بحركة الأجزاء وإذن صح أن كل قابل تحريك فيه مبدأ ميل ثم لا يخلو إما أن يكون على الإستقامة أو على الإستدارة

والأجسام السماوية لا تقبل الحركة المستقيمة كما سبق فهي متحركة على الإستدارة وقد بينا إستناد حركاتها إلى مبادئها
وأما الكيف فنقول أولا إن الأجسام السماوية ليست موادها مشتركة بل هي مختلفة بالطبع كما أن صورها مختلفة ومادة الواحدة منها لا يصلح أن تتصور بصورة الأخرى ولو أمكن ذلك كذلك لقلبت الحركة المستقيمة وهو محال فلها طبيعة خامسة مختلفة بالنوع بخلاف طبائع العناصر فإن مادتها مشتركة وصورها مختلفة وهي تنقسم إلى حار يابس كالنار وإلى حار رطب كالهواء وإلى بارد رطب كالماء وإلى بارد يابس كالأرض وهذه أعراض فيها لا صور ويقبل الاستحالة بعضها إلى بعض ويقبل النمو والذبول ويقبل الآثار من الأجسام السماوية وأما الكيفيات فالحرارة والبرودة فاعلتان فالحار هو الذي يغير جسما آخر بالتحليل والخلخلة بحيث يألم الحاس منه والبارد هو الذي يغير جسما بالتعقيد والتكثيف بحيث يألم الحاس منه واما الرطوبة واليبوسة فمنفعلتان فالرطب هو سهل القبول للتفريق والجمع والتشكيل والدفع واليابس هو عسر القبول لذلك فبسائط الأجسام المركبة تختلف وتتمايز بهذه القوى الأربع ولا يوجد شيء منها عديما لواحدة من هذه وليست هذه صورا مقومة للأجسام لكنها إذا تركت وطباعها ولم يمنعها مانع من خارج ظهر منها في أجرامها حر أو برد ورطوبة أو يبس كما أنها تركت وطباعها ولم يمنعها مانع ظهر منها إما سكون أو ميل وحركة فلذلك قيل قوة طبيعية وقيل النار حارة بالطبع والسماء متحركة بالطبع فعرفت الأحياز الطبيعية والأشكال الطبيعية والحركات الطبيعية والكيفيات الطبيعية وعرفت أن إطلاق الطبيعية عليها بأي وجه فنقول بعد ذلك إن العناصر قابلة للإستحالة والتغير وبينها مادة مشتركة والاعتبار في ذلك بالمشاهدة فإنا نرى الماء العذب انعقد حجرا جلمدا والحجر يكلس فيعود رمادا ويرام بالحيلة حتى يصير ماء فالمادة مشتركة بين الماء والأرض ونشاهد هواء صحوا يغلظ دفعة فيستحيل أكثره أو كله ماء وبردا

وثلجا ونضع الجمد في كوز صفر فنجد من الماء المجتمع على سطحه كالقطر ولا يمكن أن يكون ذلك بالرشح لأنه ربما كان ذلك حيث يماسه الجمد وكان فوق مكانه ثم لا نجد مثله إذا كان حارا والكوز مملوءا ويجتمع مثل ذلك داخل الكوز حيث لا يماسه الجمد وقد يدفن القدح في جمد محفور صفرا مهندما ويسد رأسه عليه فيجتمع فيه ماء كثير وإن وضع في الماء الحار الذي يغلي مدة واستد رأسه لم يجتمع شيء وليس ذلك إلا لأن الهواء الخارج أو الداخل قد استحال ماء فبين الماء والهواء مادة مشتركة وقد يستحيل الهواء نارا وهو ما نشاهد من آلات حاقنة مع تحريك شديد على صورة المنافخ فيكون ذلك الهواء بحيث يشتعل في الخشب وغيره وليس ذلك على طريق الانجذاب لأن النار لا تتحرك إلا على سبيل الاستقامة إلى العلو ولا ولا على طريق الكمون إذ من المستحيل أن يكون في ذلك الخشب من النار الكامنة ماله ذلك القدر الذي في الجمرة ولا يحترق والكمون أجمع لها والمنتشر أضعف تأثيرا من المجتمع فتعين أنه هواء اشتعل نارا فبين النار والهواء مادة مشتركة ونقول إن العناصر قابلة للكبر والصغر والتكاثف والتخلخل فيصير جسم أكبر من جسم من غير زيادة من خارج ويصير أصغر من غير نقصان فبين الكبير والصغير مادة مشتركة إذ قد تحقق أن المقدار عرض في الهيولى والكبر والصغر أعراض في الكميات وقد نشاهد ذلك إذا أغلى الماء انتفخ وتخلخل والخمر ينتفخ في الدن حتى يتصعد عند الغليان وكذلك القمقمة الصياحة وهي إذا كانت مسدودة الرأس مملوءة بالماء وأوقدت النار تحتها انكسرت وتصدعت ولا سبب له إلا أن الماء صار أكثر مما كان ولا جائزا أن يقال إنه كبر بدخول أجزاء النار فيها فإنه كيف دخلت وما خرج جزء من الماء ولا خلاء فيه ولا جائز أن يقال إن النار طلبت جهة الفوق بطبعها فإنه كان ينبغي أن ترفع الإناء وتطيره لا أن تكسره وإذا كان الإناء صلبا خفيفا كان رفعه أسهل من كسره فتعين أن السبب انبساط الماء في جميع الجوانب ودفعه سطح الاناء إلى الجوانب فيتفتق الموضع الذي كان أضعف وله أمثلة أخرى

تدل على أن المقدار يزيد وينقص ونقول إن العناصر قابلة للتأثيرات السماوية إما آثار محسوسة مثل نضج الفواكه ومد البحار وأظهرها الضوء والحرارة بواسطة الضوء والتحريك إلى فوق بتوسط الحرارة والشمس ليست بحارة ولا متحركة إلى فوق وإنما تأثيراها معدات لعمادة في قبول الصورة من واجب الصورة وقد يكون للقوة الفلك تأثيرات خارجة من العنصريات وإلا فكيف يبرد الأفيون أقوى مما يبرد الماء والجزء البارد فيه مغلوب بالتركيب مع الأضداد وكيف يفعل ضوء الشمس في عيون العشى والنبات بأدنى تسخين مالا تفعله النار بتسخين يكون فوقه فتبين أن العناصر كيف قبلت الاستحالة والتغير والتأثير وتبين مالها بالعنصر والجوهر

المقالة الثالثة

في المركبات والآثار العلوية

قال ابن سينا إن العناصر الأربعة عساها أن لا توجد كلياتها صرفة بل يكون فيها إختلاط ويشبه أن تكون النار أبسطها في موضعها ثم الأرض اما النار فلأن ما يخالطها يستحيل إليها لقوتها وأما الأرض فلأن نفوذ قوى ما يحيط بها في كليتها بأسرها كالقليل وعسى أن يكون باطنها القريب من لامركز يقرب من البساطة

ثم الأرض على طبقات الطبقة الأولى القريبة من المركز والثانية الطين والثالثة بعضها ماء وبعضها طين جففته الشمس وهو البر والسبب في أن الماء غير محيط بالأرض أن الأرض تنقلب ماء فتحصل وهدة والماء يستحيل أرضا فتحصل ربوة والأرض صلب وليس بسيال كالماء والهواء حتى ينصب بعض أجزائه إلى بعض ويتشكل بالاستدارة وأما الهواء فهو أربع طبقات طبقة تلي الأرض فيها مائية من البخارات وحرارة لأن الأرض تقبل الضوء من الشمس فتحمي فتتعدى الحرارة إلى ما يجاورها وطبقة لا تخلو عن رطوبة بخارية ولكن أقل حرارة وطبقة هي هواء صرف صاف وطبقة دخانية

لأن الأدخنة ترتفع إلى الهواء وتقصد مركز النار فتكون كالمنتشر في السطح الأعلى من الهواء إلى أن تتصعد فتحترق وأما النار فإنها طبقة واحدة ولا ضوء لها بل هي كالهواء المشف الذي لا لون له وإن رئي لون للنار فهي بما يخالطها من الدخان صارت ذات لون ثم فوق النار الأجرام العالية الفلكية والعناصر بطبقاتها طوعها والكائنات الفاسدات تتولد من تأثيراتها والفلك وإن لم يكن حارا ولا باردا فإنه ينبعث منه في الأجرام السفلية حرارة وبرودة بقوى تفيض منه إليها ونشاهد هذا من إحراق شعاعه المنعكس على المرائي ولو كان سبب الإحراق حرارة الشمس دون شعاعه لكان كل ما هو أقرب إلى العلو أسخن بل سبب الإحراق التفاف الشعاع الشمس المسخن لما يلتف به فيسخن الهواء فالفلك أذا هيج بإسخانه الحرارة بخر من الأجسام المائية ودخن من الأجسام الأرضية وأثار شيئا بين الغبار والدخان من الأجسام المائية الأرضية
والبخار أقل مسافة في صعوده من الدخان لأن الماء إذا سخن كان حارا رطبا والأجزاء الأرضية إذا سخنت ولطفت كانت حارة يابسة والحار الرطب أقرب إلى طبيعة الهواء والحار اليابس أقرب إلى طبيعة النار والبخار لا يجاوز مركز الهواء بل إذا وافى منقطع تأثير الشعاع برد وكثف والدخان يتعدى حيز الهواء حتى يوافي تخوم النار احتبسا فيها حدثت كائنات أخر فالدخان إذا وافى حيز النار اشتعل وإذا اشتعل فربما سعى فيه الاشتعال فرئي كأنه كوكب يقذف به وربما احترق وثبت فيه الاحتراق فرئيت العلامات الهائلة الحمر والسود وربما كان غليظا ممتدا وثبت فيه الاشتعال ووقف تحت كوكب ودارت به النار بدوران الفلك وكان ذنبا له وربما كان عريضا فرئي كأنه لحية كوكب وربما حميت الأدخنة في برد الهواء للتعاقب فانضغطت مشتعلة وإن بقى شيء من الدخان في تضاعيف الغيم وبرد صار ريحا وسط الغيم يتحرك عنه بشدة يحصل منه صوت يسمى الرعد وإن قويت حركته وتحريكه اشتعل من حرارة الحركة والهواء والدخان فصار نارا مضيئة تسمى البرق وإن كان المشتعل كثيفا ثقيلا محرفا اندفع بمصادمات

الغيم إلى جهة الأرض فيسمى صاعقة ولكنها نار لطيفة تنفذ في الثياب والأشياء الرخوة وتنصدم بالأشياء الصلبة كالذهب والحديد فيذيبه حتى يذيب الذهب في الكيس ولا يحرق الكيس ويذيب ذهب المراكب ولا يحرق السير ولا يخلو برق عن رعد لأنهما جميعا عن الحركة ولكن البصر أحد فقد يرى البرق ولا ينتهي صوت الرعد إلى السمع وقد يرى متقدما ويسمع متأخرا

وأما البخار الصاعد فمنه ما يلطف ويرتفع جدا ويتراكم ويكثر مدده في أقصى الهواء عند منقطع الشعاع فيبرد فيكثف فيقطر فيكون المتكاثف منه سحابا والقاطر مطرا ومنه ما يقصر لثقله عن الارتفاع بل يبرد سريعا وينزل كما لو يوافيه برد الليل سريعا قبل أن يتراكم سحابا وهذا هو الطل وربما جمد البخار المتراكم في الأعالي أعين السحاب فنزل وكان ثلجا وربما جمد البخار غير المتراكم في الأعالي أعني مادة الطل فنزل وكان صقيعا وربما جمد البخار بعد ما استحال قطرات ماء فكان بردا وإنما يكون جموده في الشتاء وقد فارق السحاب وفي الربيع وهو داخل السحاب وذلك إذا سخن خارجه فيطنت البرودة إلى داخله فتكالف داخله واستحال ماء وأجمده شدة البرودة وربما تكاثف في الهواء نفسه لشدة البرد فاستحال سحابا واستحال مطرا ربما وقع على صقيل الظاهر من السحاب صور النيرات وأضواؤها كما يقع في المرائي والجدران الثقيلة فيرى ذلك على أحوال مختلفة بحسب اختلاف بعدها من النير وقربها وبعدها من المرئى وصفائها وكدورتها واستوائها ورعشتها وكثرتها وقلتها فيرى هالة وقوس قزح وشموس وشهب

فالحالة تحدث عن إنعكاس البصر عن الرش المطيف بالنير إلى النير حيث يكون الغمام المتوسط لا يخفى النير فيرى دائرة كأنها منطقة محورها الخط الواصل بين الناظر وبين النير وما في داخلها ينفذ عنه البصر إلى النير ونوره الغالب على أجزاء الرش يجعله كأنه غير موجود وكأن الغيم هناك هواء شفاف وأما القوس فإن الغمام يكون في خلاف جهة النير

فتنعكس الزوايا عن الرش إلى النير لا بين الناظر والنير بل الناظرأقرب إلى النير منه إلى المرآة فتقع الدائرة التي هي كالمنطقة أبعد من الناظر إلى النير فإن كانت الشمس على الأفق كان الخط المار بالناظر والنير على بسيط الأفق وهو المحور فيجب أن يكون سطح الأفق يقسم المنطقة بنصفين فيرى القوس نصف دائرة فإن ارتقت الشمس إنخفض الخط المذكور فصار الظاهر من المنطقة الموهومة أقل من نصف دائرة وأما تحصيل الألوان على الجهة الشافية فإنه لم يستبن بعد والسحب ربما تفرقت وذابت فصارت ضبابا وربما إندفعت بعد التلطف إلى أسفل فصارت رياحا وربما هاجت الرياح لإندفاع بعضها من جانب إلى جهة وربما هاجت لإنبساط الهواء بالتخلخل عند جهة وإندفاعه إلى أخرى

وأكثر ما يهيج لبرد الدخان المتصعد المجتمع الكثير ونزوله فإن مبادىء الرياح فوقانية وربما عطفها مقاومة الحركة الدورية التي تتبع الهواء العالي فانعطفت رياحا والسموم ما كان منها محترقا وأما الأبخرة داخل الأرض فتميل إلى جهة فتبرد فتستحيل ماء فيصعد بالمد فيخرج عيونا وإن لم تدعها السخونة تبرد وكثرت وغلظت فلم تنفذ في مجاري مستحصفة فاجتمعت واندفعت مرة فزلزلت الأرض فخسفت وقد تحدث الزلزلة من تساقط أعالي وهذة في باطن الأرض فيموج بها الهواء المحتقن وإذا إحتبست الأبخرة في باطن الجبال والكهوف فيتولد منها الجواهر إذا وصل إليها من سخونة الشمس وتأثير الكواكب خط وذلك بحسب إختلاف المواضع والأزمان والمواد فمن الجواهر ما هو قابل للإذابة والطرق كالذهب والفضة ويكون قبل أن يصلب زئبقا ونفطا وإنطراقها لحياة رطوبتها ولعصيانها الجمود التام ومنها والا يقبل ذلك وقد تتكون من العناصر أكوان بسبب القوى الفلكية إذا امتزجت العناصر إمتزاجا أكثر إعتدالا من المعادن فيحصل في المركب قوة غاذية وقوة نامية وقوة مولدة وهذه لقوى لا متمايزة بخصائصها

المقالة الرابعة
في النفوس وقواها
اعلم أن النفس كجنس واحد ينقسم إلى ثلاثة أقسام
أحدها النباتية وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويغتذي والغذاء جسم من شأنه أن يتشبه بطبيعة الجسم الذي قيل إنه غذاؤه ويزيد فيه مقدار ما يتحلل أو أكثر أو أقل
والثاني النفس الحيوانية وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة
والثالث النفس الإنسانية وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية
وللنفس النباتية قوى ثلاث وهي
١ القوى الغاذية وهي القوة التي تحيل جسما آخر إلى مشاكلة الجسم الذي هي فيه قتلصقه به بدل ما يتحلل عنه
٢ والقوة المنمية وهي قوة تزيد في الجسم الذي هي فيه بالجسم المتشبه به زيادة في أقطاره طولا وعرضا وعمقا بقدر الواجب ليبلغ به كماله في النشوء
٣ والقوة المولدة وهي التي تأخذ من الجسم الذي هي فيه جزءا هو شبيه له بالقوة فتفعل فيه باستمداد أجسام أخرى تتشابه به من التخليق والتمزيج ما يصير شبيها به بالفعل فللنفس النباتية ثلاث قوى
وللنفس الحيوانية قوتان محركة ومدركة والمحركة على قسمين إما محركة

بأنها باعثة وإما محركة بأنها فاعلة والباعثة هي القوة النزوعية الشوقية وهي القوة التي إذا إرتسمت في التخيل بعد صورة مطلوبة أو مهروب عنها حملت القوة التي تدركها على التحريك ولها شعبتان شعبة تسمى شهوانية وهي قوة تبعث على تحريك يقرب من الأشياء المتخيلة ضرورة أو نافعة طلبا للذة وشعبة تسمى غضبية وهي قوة تبعث على تحريك تدفع به الشيء المتخيل ضارا أو مفسدا طلبا للغلبة وأما القوة المحركة على أنها فاعلة فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات إلى جهة المبدأ أو ترخيها أو تمدها طولا فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ

واما القوة المدركة فتنقسم قسمين

أحدهما قوة تدرك من خارج وهي الحواس الخمس أو الثمانية فمنها البصر وهي قوة مرتبة في العصبة المجوفة تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل إلى سطوح الأجسام الصقيلة ومنها السمع وهي قوة مرتبة في العصب المتفرق في سطح الصماخ تدرك صورة مايتأدى إليه بتموج الهواء المنضغط بين قارع ومقروع مقاوم له إنضغاطا بعنف يحدث منه تموج فاعل للصوت يتأدى إلى الهواء المحصور الراكد في تجويف الصماخ ويموجه بشكل نفسه وتماس أمواج تلك الحركة العصبة فيسمع ومنها الشم وهي قوة مرتبة في زائدتي مقدم الدماغ الشبيهتين بحلمتي الثدي تدرك ما يؤدي إليه الهواء المستنشق من الرائحة المخالطة لبخار الريح والمنطبع بالاستحالة من جرم ذي رائحة منها الذوق وهي قوة رتبة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك الطعوم المتحللة من الأجسام المماسة المخالطة للرطوبة اللعابية التي فيه فتحيله ومنها اللمس وهي قوة منبثة في جلد البدن كله ولحمه فاشية فيه والأعصاب تدرك ما تماسه وتؤثر فيه بالمضادة وتغيره في المزاج أو الهيئة ويشبه أن تكون هذه القوة لا نوعا بل جنسا لأربع قوى منبثة معا في الجلد كله والواحدة حاكمة في التضاد الذي بين الحار

والبارد والثانية حاكمة في التضاد الذي بين الصلب واللين والثالثة حاكمة في التضاد الذي بين الرطب واليابس والرابعة حاكمه في التضاد الذي بين الخشن والأملس إلا أن إجتماعهما معا في آلة واحدة يوهم تأحدها في الذات والمحسوسات كلها تتأدى إلى آلات الحس فتنطبع فيها فتدركها القوة الحاسة

والقسم الثاني قوى تدرك من باطن فمنها ما يدرك صور المحسوسات ومنها ما يدرك معاني المحسوسات والفرق بين القسمين هو أن الصورة هو الشيء الذي تدركه النفس الناطقة والحس الظاهر معا ولكن الحس يدركه اولا ويوديه إلى النفس مثل إدراك الشاة صورة الذئب وأما المعنى المضاد الذي تدركه النفس من المحسوس من غير أن يدركه الحس أولا مثل إدراك الشاة المعنى المضاد في الذئب الموجب لخوفها إياه وهربها عنه ومن المدركات الباطنة ما يدرك ويفعل ومنها ما يدرك ولا يفعل والفرق بين القسمين أن الفعل فيها هو أن تركت الصور والمعاني المدركة بعضها مع بعض وتفصل بعضها عن بعض فيكون إدراك وفعل أيضا فيما أدرك والإدراك لا مع الفعل هو ان تكون الصورة أو المعنى ترتسم في القوة فقط من غير أن يكون لها فعل وتصرف فيه

ومن المدركات الباطنة مايدرك أولا ومنها ما يدرك ثانيا والفرق بين القسمين أن الإدراك الأول هو أن يكون حصول الصورة على نحو ما من الحصول قد وقع للشيء من نفسه والإدراك الثاني هو أن يكون حصولها من جهة شيء آخر أدى إليها

ثم من القوى الباطنة المدركة الحيوانية قوة بنطاسيا وهو الحس المشترك وهي قوة مرتبة في التجويف الأول من مقدم الدماغ تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس متأدية إليه ثم الخيال والمصورة وهو قوة مرتبة في آخر التجويف المقدم من الدماغ تحفظ ماقبله الحس المشترك من الحواس ويبقى فيها بعد غيبة المحسوسات والقوة التي تسمى متخيلة بالقياس إلى النفس الحيوانية وتسمى مفكرة بالقياس إلى النفس الإنسانية فهي قوة مرتبة في التجويف الأوسط من الدماغ عند الدودة من شأنها أن

تركب بعض مافي الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض بحسب الاختيار ثم القوة الوهمية وهي قوة مرتبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ تدرك المعاني غير المحسوسة الموجودة في المحسوسات الجزئية كالقوة الحاكمة بأن الذئب مهروب عنه وأن الولد معطوف عليه ثم القوة الحافظة الذاكرة وهي قوة مرتبة في التجويف المؤخر من الدماغ تحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني غير المحسوسة في المحسوسات ونسبة الحافظة إلى الوهمية كنسبة الخيال إلى الحس المشترك إلا أن ذلك في المعاني وهذا في الصورة فهذه خمس قوى حيوانية

وأما النفس الناطقة للإنسان فتنقسم قواها أيضا إلى قوة عالمة وقوة عاملة وكل واحد من القوتين يسمى عقلا باشتراك الاسم فالعاملة قوة هي مبدأ محرك لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالروية على مقتضى آراء تخصها إصلاحية ولا إعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية النزوعية وإعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة وإعتبار بالقياس إلى نفسها وقياسها إلى النزوعية أن تحدث عنها فيها هيئات تخص الإنسان تتهيأ بها لسرعة فعل وإنفعال مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء وقياسها إلى المتخيلة والمتوهمة هو أن تستعملها في إستنباط التدابير في الأمور الكائنة والفاسدة وإستنباط الصناعات الإنسانية وقياسها إلى نفسها أن فيما بينها وبين العقل النظري تتولد الآراء الذائعة المشهورة مثل إن الكذب قبيح والصدق حسن وهذه القوة التي يجب أن تتسلط على سائر قوى البدن على حسب ما توجبه أحكام القوة العاقلة حتى لا تنفعل عنه البتة بل ينفعل عنها فلا يحدث فيها عن البدن هيئات إنقيادية مستفادة من الأمور الطبيعية وهي التي تسمى أخلاقا رذيلة بل تحدث في القوى البدنية هيئات إنقيادية لها وتكون متسلطة عليها وأما القوة العالمة النظرية فهي قوة من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة فإن كانت مجردة بذاتها فذاك وإن لم تكن فإنها تصيرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء ثم لها إلى هذه الصورة نسب

وذلك أن الشيء الذي من شأنه أن يقبل شيئا قد يكون بالقوة قابلا له وقد يكون بالفعل والقوة على ثلاثة أوجه قوة مطلقة هيولانية وهو الاستعداد المطلق من غير فعل ما كقوة الطفل على الكتابة وقوة ممكنة وهو إستعداد مع فعل ما كقوة الطفل بعد ما تعلم بسائط الحروف وقوة تسمى ملكة وهو قوة لهذا الاستعداد إذا تم بالآلة ويكون له أن يفعل متى شاء بلا حاجة إلى إكتساب فالقوة النظرية قد تكون نسبتها إلى الصور نسبة الاستعداد المطلق وتسمى عقلا هيولانيا وإذا حصل فيها من المعقولات الأولى التي يتوصل بها إلى المعقولات الثانية تسمى عقلا بالفعل وإذا حصلت فيها المعقولات الثانية المكتسبة وصارت مخزونة له بالفعل متى شاء طالعها فإن كانت حاضرة عنده بالفعل تسمى عقلا مستفادا وإذا كانت مخزونة تسمى عقلا بالملكة وههنا ينتهي النوع الإنساني ويتشبه بالمبادىء الأولى للوجود كله وللناس مراتب في هذا الاستعداد فقد يكون عقل شديد الاستعداد حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال إلى كثير شيء من تخريج وتعليم حتى كأنه يعرف كل شيء من نفسه لا تقليدا بل بترتيب يشتمل على حدود وسطى فيه إما دفعة في زمان واحد وإما دفعات في أزمنة شتى وهي القوة القدسية التي تناسب روح القدس فيفيض عليها منه جميع المعقولات أو ما يحتاج إليه في تكميل القوة العملية فالدرجة العليا منها النبوة فربما يفيض عليها وعلى المتخيلة من روح القدس معقول تحاكيه المتخيلة بأمثلة محسوسة أو كلمات مسموعة فيعبر عن الصورة بملك في صورة رجل وعن الكلام بوحي في صورة عبارة

المقالة الخامسة
في أن النفس الإنسانية جوهر ليس بجسم ولا قائم بجسم وأن إدراكها قد يكون بآلات وقد يكون بذاتها بغير آلات وأنها واحدة وقواها كثير وانها حادثة مع حدوث البدن وباقية بعد فناء البدن
أما البرهان علة أن النفس ليست بجسم هو أنا نحس من ذواتنا إدراكا معقولا مجردا عن المواد وعوارضها أعني الكم والأين والوضع إما لأن المدرك لذاته مجرد كالعلم بالوحدة والعلم بالوجود مطلقا وإما لأن العقل جرده عن العوارض كالإنسان مطلقا فيجب أن ينظر في ذات هذه الصورة المجردة كيف هي في تجردها أبا لقياس إلى الشيء المأخوذ عنه أم بالقياس الى مجرد الآخذ ولا يشك أنها بالقياس الى المأخوذ عنه ليست مجردة فيقى أنها مجردة من الوضع والاين عند وجودها في العقل والجسم ذو وضع وأين ومالا وضع له لا يحل ماله وضع وأين وهذه الطريقة أقوى الطرق فإن الشيء المعقول الواحد الذات المتجرد عن المادة لا يخلو إما أن يكون له نسبة إلى بعض الأجزاء دون البعض فيحل في جهة دون جهة حتى يكون متيامنا أو متياسرا بالنسبة إلى المحل
أو تكون نسبته إلى الكل نسبة واحدة أو لا يكون لها نسبة إليه ولا له إلى جميع الأجزاء فإن ارتفعت النسبة من كل وجهة ارتفع الحلول في جملة الجسم أو في جزء من أجزائه وإن تحققت النسبة من كل وجه ارتفع الحلول في جملة الجسم أو في جزء من أجزائه وإن تحققت النسبة صار الشيء المعقول ذا وضع غير ذي وضع هذا خلف وبه يتبين أن الصورة المنطبعة في المادة لا تكون إلا أشباحا لأمور جزئية منقسمة ولكل جزء منها نسبة بالفعل أو بالقوة إلى جزء منها وأيضا فإن الشيء المتكثر في أجزاء الحد له من جهة التمام وحدة هو بها لا ينقسم فتلك الوحدة بما هي وحدة كيف ترتسم في منقسم وأيضا من شأن القوة الناطقة أن تعقل بالفعل واحدا واحدا من المعقولات

غير متناهية وليس واحد أولى من الاخر وقد صح لنا ان الشيء الذي يقوى على أمور غير متناهية بالقوة لا يجوز أن يكون محله جسما ولا قوة في جسم

ومن الدليل القاطع على أن محل المعقولات ليس بجسم أن الجسم منقسم بالقوة بالضرورة ومالا ينقسم لا يحل المنقسم والمعقول غير منقسم فلا يحل المنقسم اما أن الجسم منقسم فقد دللنا عليه وأما أن المعقول المجرد لا ينقسم فقد فرغنا عنه وأما أن مالا ينقسم لا يحل منقسما فإنا لو قسمنا المحل فلا يخلو إما أن يبطل الحال فيه وهذا كذب أو لا يبطل ولا يخلو إما أن يبقى حالا في بعضه كما كان حالا في كله وهذا محال فإنه يجب أن يكون حكم البعض حكم الكل وإما أن ينقسم بانقسام محله وقد فرض غير منقسم ثم فرض انقسام الحال فيه فلا يخلو إما أن يبطل الحال فيه وهذا كذب أو لا يبطل ولا يخلو إما أن يبقى حالا في بعضه كما كان حالا في كله وهذا محال فإنه يجب أن يكون حكم البعض حكم الكل وإما ان ينقسم بإنقسام محله وقد فرض غير منقسم ثم فرض إنقسام الحال فيه فلا يخلو إما أن تكون أجزاؤه متشابهة كالشكل المعقول أو العدد وليس كل صورة معقولة بشكل أو تكون الصورة المعقولة خيالية لا عقلية صرفة وأظهر من ذلك أنه ليس يمكن أن يقال إن كل واحد من الجزءين هو بعينه الكل في المعنى وإن كانا غير متشابهين مثل أجزاء الحد من الجنس والفصل فيلزم منه محالات منها أن كل جزء من الجسم يقبل القسمة أيضا فيجب أن تكون الأجناس والفصول غير متناهية وهذا باطل وأيضا فإنه إن وقع الجنس في جانب والفصل في جانب ثم لو قسمنا الجسم لكان يجب أن يقع نصف الجنس في جانب ونصف الفصل في جانب ثم لو قسمنا الجسم لكان يجب أن يقع نصف الجنس في جانب ونصف الفصل في جانب وهو محال ثم ليس أحد الجزءين أولى بقبول الجنس منه بقبول الفصل

وأيضا ليس كل معقول يمكن أن يقسم إلى معقولات أبسط فإن ههنا معقولات هي أبسط المعقولات ومبادىء للتركيب في سائر المعقولات وليس لها أجناس ولا فصول ولا إنقسام في الكم ولا في المعنى فلا يتوهم فيها أجزاء متشابهة

فتبين بهذه الجملة أن محل المعقولات ليس بجسم ولا قوة في جسم فهو إذن جوهر معقول علاقته مع البدن لا علاقة حلول ولا علاقة إنطباع بل علاقة التدبير والتصرف وعلاقته من جهة العلم الحواس الباطنة المذكورة وعلاقته من جهة العمل القوى الحيوانية

المذكورة فيتصرف في البدن وله فعل خاص يستغني به عن البدن وقواه فإن من شأن هذا الجوهر أن يعقل ذاته ويعقل أنه عقل ذاته وليس بينه وبين ذاته آلة ولا بينه وبين آلته آلة فإن إدراك الشيء لا يكون إلا بحصول صورته فيه وما يقدر آلة من قلب أو دماغ لا يخلو إما أن تكون صورته بعينها حاصلة للعقل حاضرة

وإما أن تكون صورة غيرها بالعدد حاصلة وباطل أن تكون صورة الآلة حاضرة بعينها فإنها في نفسها حاصلة أبدا فيجب أن يكون إدراك النقل لها حاصلا أبدا وليس الأمر كذلك فإنه تارة يعقل وتارة يعرض عن الإدراك والإعراض عن الحاضر محال وباطل أن تكون الصور غير الالة بالعدد فإنها إما أن تحل في نفس القوة من غير مشاركة الجسم فيدل على أنها قائمة بنفسها وليست في الجسم

وإما بمشاركة الجسم حتى لا تكون هذه الصورة المغايرة في نفس القوة العقلية وفي الجسم الذي هو الآلة فيؤدي إلى إجتماع صورتين متماثلتين في جسم واحد وهو محال والمغايرة بين أشياء تدخل في حد واحد إما لإختلاف ما بين الكلي والجزئي وليس هذان الوجهان فثبت أنه لا يحرز أن يدرك المدرك آلة هي آلته في الإدراك

ولا يختص ذلك بالعقل فإن الحس إنما يحس شيئا خارجا ولا يحس ذاته ولا آلته ولا إحساسه وكذلك الخيال لا يتخيل ذاته ولا فعله ولا آلته ولهذا فإن القوى الدراكة بإنطباع الصور في الآت يعرض لها الكلال من إدامة العمل والأمور القوية والشاقة الإدراك توهنا وربما تفسدها كالضوء الشديد للبصر والرعد القوي للسمع وكذلك عند إدراكها القوى لا يقوى على إدراك الضعيف والأمر في القوة العقلية بالعكس فإن إدامتها للتعقل وتصورها الأمور الأقوى يكسبها قوة وسهولة قبول وإن عرض لها كلال وملال فلاستعانة العقل بالخيال

على أن القوى الحيوانية ربما تعين النفس الناطقة في أشياء منها ان يورد عليها الحس جزئيات الأمور فيحدث لها أمور أربعة

أحدها انتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزئيات على سبيل تجريد لمعانيها عن المادة وعلائقها ولواحقها ومراعاة المشترك فيه والمتباين به والذاتي وجوده والعرضي فيحدث للنفس من ذلك مبادىء التصور وذلك بمعاونة إستعمال الخيال والوهم
والثاني إيقاع النفس مناسبات بين هذه الكليات المفردة على مثل سلب وإيجاب فما كان التأليف منها بسلب وإيجاب بينا بنفسه أخذته وما كان ليس كذلك تركته إلى أن يصادف الواسطة
والثالث تحصيل المقدمات التجريبية بأن يوجد بالحس محمول لازم الحكم لموضوع او تال لازم لمقدم فيحصل له إعتقاد مستفاد من حس وقياس ما
والرابع الأخبار التي يقع بها التصديق لشدة التواتر فالنفس افنسانية تستعين بالبدن لتحصيل هذه المبادىء للتصور والتصديق وأما إذا استكملت النفس وقويت فإنها تنفرد بأفاعيلها على الإطلاق وتكون القوى الحسية والخيالية وغيرها صارفة لها عن فعلها وربما تصير الوسائط والأسباب عوائق
قال والدليل على أن النفس الإنسانية حادثة مع حدوث البدن أنها متفقة في النوع والمعنى فإن وجدت قبل البدن فإما أن تكون متكثرة الذوات أو تكون ذاتا واحدة ومحال أن تكون متكثرة الذوات فإن تكثرها اما أن يكون من جهة الماهية والصورة وإما أن يكون من جهة النسبة إلى العنصر والمادة وبطل الأول لأن صورتها واحدة وهي متفقة في النوع والماهية لا تقبل إختلافا ذاتيا وبطل الثاني لأن البدن والعنصر فرض غير موجود قال ومحال أن تكون واحدة بالذات لأنه إذا حصل بدنان حصلت فيهما نفسان فإما أن يكونا قسمي تلك النفس الواحدة وهو محال لأن ما ليس له عظم وحجم لا يكون منقسما وإما أن تكون النفس الواحدة بالعدد في بدنين وهذا لا يحتاج إلى كثير تكلف في إبطاله فقد صح أن النفس تحدث كلما حدث البدن الصالح لإستعمالها إياه ويكون البدن الحادث مملكتها وآلتها ويكون في هيئة جوهر النفس الحادثة مع

بدن ما ذلك البدن الذي استحقه نزاع طبيعي إلى الإشتغال به وإستعماله والإهتمام بأحواله والإنجذاب إليه يخصها ويصرفها عن كل الأجسام غيره بالطبع إلا بواسطته وأما بعد مفارقة البدن فإن الأنفس قد وجد كل واحد منها ذاتا منفردة باختلاف موادها التي كانت وباختلاف أزمنة حدوثها وإختلاف هيئاتها التي بحسب أبدانها المختلفة لا محالة بأحوالها وأنها لا تموت بموت البدن لأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعا من التعلق فإما أن يكون تعلقه به تعلق المكافيء في الوجود وكل واحد منهما جوهر قائم بنفسه فلا تؤثر المكافأة في الوجود في فساد أحدهما بفساد الثاني لأنه أمر إضافي وفساد أحدهما يبطل افضافة لا الذات وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتأخر في الوجود فالبدن علة للنفس والعلل أربع فلا يجوز أن يكون علة فاعلية فإن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئا إلا بقواه والقوى الجسمانية إما أعراض أو صور مادية فمحال أن يفيد أمر قائم بالمادة وجود ذات قائمة بنفسها لا في مادة ولا يجوز أن تكون علة قابلية فقد بينا ان النفس ليست منطبعة في البدن ولا يجوز أن يكون علة صورية أو كمالية فإن الأولى أن يكون الأمر بالعكس فإذن تعلق النفس بالبدن ليس تعلقا على أنه علة ذاتية لها

نعم البدن والمزاج علة بالعرض للنفس فإنه إذا حدث بدن يصلح أن يكون آلة للنفس ومملكة لها احدثت العلل المفارقة النفس الجزئية فإن إحداثها بلا سبب يخصص إحداث واحد دون واحد يمنع عم وقوع الكثرة فيها بالعدد ولأن كل كائن بعد مالم يكن يستدعي أن يتقدمه مادة يكون فيها تهيؤ قبوله أو تهيؤ نسبته إليه كما تبين ولأنه لو كان يجوز أن تكون النفس الجزئية تحدث ولم تحدث لها آلة بها تستكمل وتفعل لكانت معطلة الوجود ولا شيء معطل في الطبيعة ولكن إذا حدث التهيؤ والاستعداد في الآلة حدث من العلل المفارقة شيء هو النفس وليس إذا وجب حدوث شيء من حدوث شيء وجب أن يبطل مع بطلانه

وأما القسم الثالث مما ذكرناه وهو أن تعلق النفس بالجسم تعلق المتقدم فالمتقدم إن كان بالزمان فيستحيل أن يتعلق وجوده به وقد تقدمه في الزمان وإن كان بالذات فليس فرض عدم المتأخر يوجب عدم المتقدم على أن فساد البدن بامر يخصه من تغير المزاج والتركيب وليس ذلك مما يتعلق بالنفس فبطلان البدن لا يقتضي بطلان النفس ويقول إن سببا آخر لا يفسد النفس أيضا بل هي في ذاتها لا تقبل الفساد لأن كل شيء من شأنه أن يفسد بأمر ما ففيه قوة أن يفسد وقبل الفساد فيه فعل أن يبقى ومحال أن يكون من جهة واحدة في شيء واحد قوة أن يفسد وفعل أن يبقى فإن تهيؤه للفساد شيء وفعله للبقاء شيء آخر فالأشياء المركبة يجوز ان يجتمع فيها الأمران لوجهين أما البسيطة فلا يجوز أن يجتمعا فيها ومن الدليل على ذلك أيضا أن كل شيء يبقى وله قوة ان يفسد فله قوة أن يبقى أيضا لأن بقاءه ليس بواجب ضروري وإذا لم يكن واجبا كان ممكنا والإمكان هو طبيعة القوة فإذن يكون له في جوهره قوة أن يبقى وفعل أن يبقى فيكون فعل أن يبقى منه أمرا يعرض للشيء الذي له قوة ان يبقى وفعل أن يبقى فيكون فعل أن يبقى منه امرا يعرض للشيء الذي له قوة ان يبقى فلذلك الشيء الذي له القوة على البقاء وفعل البقاء أمر مشترك البقاء له كالصورة وقوة البقاء له كالمادة فيكون مركبا من مادة وصورة وقد فرضناه واحدا فردا هذا خلف فقد بان أن كل أمر بسيط فغير مركب فيه قوة أن يبقى وفعل أن يبقى بل ليس فيه قوة أن يعدم باعتبار ذاته والفساد لا يتطرق إلا إلى المركبات وإذا تقرر أن البدن إذا تهيأ واستعد استحق من واهب الصور نفسا تدبره ولا يختص هذا ببدن دون بدن بل كل بدن حكمه كذلك فإذا استحق النفس وقارنته في الوجود فلا يجوز أن تتعلق به نفس أخرى لأنه يؤدي إلى أن يكون لبدن واحد نفسان وهو محال فالتناسخ إذن بطل

المقالة السادسة
في وجه خروج العقل النظري من القوة إلى الفعل وأحوال خاصة بالنفس الإنسانية من الرؤيا الصادقة والكاذبة وأدراكهما علم الغيب ومشاهدتها صورا لا وجود لها من خارج تلك الوجوه ومعنى النبوة والمعجزات وخصائصها التي تتميز بها عن المخاريق
اما الأول فقد بينا ان النفس الإنسانية لها قوة هيولانية أي استعداد لقبول المعقولات بالفعل وكل ما خرج من القوة إلى الفعل فلا بد له من سبب يخرجه إلى الفعل وذلك السبب يجب أن يكون موجودا بالفعل فإنه لو كان موجودا بالقوة لاحتاج إلى مخرج آخر فإما أن يتسلسل أو ينتهي إلى مخرج هو موجود بالفعل لا قوة فيه فلا يجوز أن يكون ذلك جسما لأن الجسم مركب من مادة وصورة والمادة أمر بالقوة فهو إذن جوهر مجرد من المادة وهو العقل الفعال وإنما سمي فعالا بإزاء كون العقول الهيولانية منفعلة وقد سبق إثباته في الإلهيات من وجه آخر وليس يختص فعله بالعقول والنفوس بل وكل صورة تحدث في العالم فإنما هي فيضة العام فيعطي كل قابل ما استعد له من الصور واعلم أن الجسم وقوة في جسم لا يوجد شيئا فإن الجسم مركب من مادة وصورة والمادة طبيعتها عدمية فلو أثر الجسم لأثر بمشاركة المادة وهي عدم والعدم لا يؤثر في الوجود فالعقل الفعال هو المجرد عن المادة وعن كل قوة فهو بالفعل من كل وجه
وأما الثاني من الأحوال الخاصة بالنفس فالنوم والرؤيا والنوم غؤور القوى الظاهرة في أعماق البدن وإنخناس الأرواح من الظاهر إلى الباطن ونعني بالأرواح ههنا أجساما لطيفة مركبة من بخار الأخلاط التي منبعها القلب وهي مراكب القوى النفسيانية والحيوانية ولهذا إذا وقعت سدة في مجاريها من الأعصاب المؤدية للحس بطل الحس وحصل الصرع

والسكتة فإذا ركدت الحواس ورفدت بسبب من الأسباب بقيت النفس فارغة عن شغل الحواس لأنها لا تزال مشغولة بالفكر فيما تورد الحواس عليها فإذا وجدت فرصة الفراغ وارتفع عنها المانع واستعدت للإتصال بالجواهر الروحانية الشريفة العقلية التي فيها تفشت الموجودات كلها فانطبع في النفس مافي تلك الجواهر من صور الأشياء لا سيما ما يناسب أغراض الرائي ويكون إنطباع تلك الصور في النفس كانطباع صورة مرآة من مرآة فإن كانت الصورة جزئين ووقفت من النفس في المصورة وحفظتها الحافظة على وجهها من غير تصرف المتخيلة صدقت الرؤيا ولا تحتاج إلى تعبير وإن وقعت في المتخيلة حاكت ما يناسبها من الصور المحسوسة وهذه تحتاج إلى تعبير وتأويل ولما لم تكن تصرفات الخيال مضبوطة واختلفت باختلاف الأشخاص والأحوال اختلف التعبير وإذا تحركت المتخيلة منصرفة عن عالم العقل إلى عالم الحس واختلطت تصرفاتها كانت الرؤيا أضغاث أحلام لا تعبير لها وكذلك لو غلبت على المزاج إحدى الكيفيات الأربع رأى في المنام أحوالا مختلطة

وأما الثالث في إدراك علم الغيب في اليقظة إن بعض النفوس يقوى قوة لا تشتغله الحواس ولا تمنعه بل يتسع بقوته للنظر إلى عالم العقل والحس جميعا فيطلع إلى عالم الغيب فيظهر له بعض الأمور مثل البرق الخاطف وبقى المتصور المدرك في الحافظة بعينه وكان ذلك وحيا صريحا وإن وقع في المخيلة واشتغلت بطبيعة المحاكاة كان ذلك مفتقرا إلى التأويل

وأما الرابع في مشاهدة النفس صورا محسوسة لا وجود لها وذلك أن النفس تدرك الأمور الغائبة إدراكا قويا فيبقى عين ما أدركته في الحفظ وقد تقبله قبولا ضعيفا فتستولي عليه المتخيلة وتحاكيه بصورة محسوسة واستتبعت الحس المشترك وانطبعت الصورة في الحس المشترك سراية إليه من المتصورة والمتخيلة والإبصار هو وقوع صورة في الحس المشترك فسواء وقع فيه من خارج بواسطة البصر أو وقع فيه أمر من داخل

بواسطة الخيال كان ذلك محسوسا فمنه ما يكون من قوة النفس وقوة آلات الإدراك ومنه ما يكون من ضعف النفس والآلات
وأما الخامس فالمعجزات والكرامات
قال خصائص المعجزات والكرامات ثلاثة
خاصية في قوة النفس وجوهرها ليؤثر في هيولى العالم بإزالة صورة وإبعاد صورة وذلك أن الهيولى منقادة لتأثير النفوس الشريفة المفارقة مطيعة لقواها السارية في العلم وقد تبلغ نفس إنسانية في الشرف الى حد يناسب تلك النفوس فتفعل فعلها وتقوى على ما قويت هي فتزيل جبلا عن مكانه وتذيب جوهرا فيستحيل ماء وتجمد جسما سائلا فيستحيل حجرا ونسبة هذه النفس إلى تلك النفوس كنسبة السراج إلى الشمس فكما أن الشمس تؤثر في الأشياء تسخينا بالاضاءة كذلك السراج يؤثر بقدره وأنت تعلم أن
للنفس تأثيرات جزئية في البدن فإنه إذا حدث في النفس صورة الغلبة والغضب حمى المزاج واحمر الوجه وإذا حدثت صورة مشتهاة فيها حدثت في أوعية المنى حرارة مبخرة مهيجة للريح حتى تمتلىء به عروق آلة الوقاع فتستعد له والمؤثر ههنا مجرد التصور لا غير
والخاصية الثانية أن تصفو النفس صفاء يكون شديد الاستعداد للإتصال بالعقل الفعال حتى يفيض عليها العلوم فإنا قد ذكرنا حال القوة القدسية التي تحصل لبعض النفوس حتى تستغني في أكثر أحوالها عن التفكر والتعلم فالشريف البالغ منها * (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور) *
والخاصية الثالثة للقوة المتخيلة بأن تقوى النفس وتتصل في اليقظة بعالم الغيب كما سبق وتحاكي المتخيلة ما أدركته النفس بصورة جميلة وأصوات منظومة فترى في اليقظة وتسمع فتكون الصورة المحاكية للجوهر الشريف صورة عجيبة في غاية الحسن وهو الملك الذي يراه النبي وتكون المعارف التي تتصل بالنفس من إتصالها بالجواهر الشريفة تتمثل بالكلام الحسن المنظم الواقع في الحس المشترك فيكون مسموعا

قال والنفوس وإن اتفقت في النوع إلا أنها تتمايز بخواص وتختلف أفاعيلها إختلافات عجيبة
وفي الطبيعة أسرار ولاتصالات العلويات بالسفليات عجائب
وجل جناب الحق عن ان يكون شريعة لكل وارد وأن يرد عليه إى واحد بعد واحد
وبعد فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل عبرة للمحصل فمن سمعه فاشمأز عنه فليتهم نفسه فإنها لا تنسبه وكل ميسر لما خلق له
تمت الطبيعيات بحمد الله

الباب الثالث
آراء العرب في الجاهلية
قد ذكرنا في صدر هذا الكتاب أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد وأجملنا القول فيه حيث كانت المقارنة بين الفريقين والمقاربة بين الأمتين مقصورة على إعتبار خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والغالب عليهم الفطرة والطبع وأن الروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد حيث كانت المقاربة مقصورة على إعتبار كيفيات الأشياء والحكم بأحكام الطبائع والغالب عليهم الإكتساب والجهد
والآن نذكر أقاويل العرب في الجاهلية ونعقبها بذكر أقاويل الهند وبها نختم الكتاب
حكم البيت العتيق
وقبل أن نشرع في ذكر مذاهبهم نريد أن نذكر حكم البيت العتيق حرسه الله ونصل بذلك حكم البيوت في العالم فإن منها ما بنى على الدين الحق قبلة للناس ومنها ما بنى على الرأي الباطل فتنة للناس وقد ورد في التنزيل * (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) *
وقد اختلفت الروايات في أول من بناه

قيل إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وقع إلى سرنديب من أرض الهند وكان يتردد في الأرض متحيرا بين فقدان زوجته ووجدان توبته حتى وافى حواء بجبل الرحمة من عرفات وعرفها وصار إلى أرض مكة ودعا وتضرع إلى الله تعالى حتى يأذن له في بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور الذي ههو مطاف الملائكة ومزار الروحانيين فأنزل الله تعالى عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور فوضعه مكان البيت فكان يتوجه إليه ويطوف به ثم لما توفى وصيه شيث عليه السلام بناء البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور حذو القذة بالقذة ثم لما خرب ذلك بطوقان نوح عليه السلام وامتد الزمان حتى غيض الماء وقضى الأمر وانتهت النبوة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحمله هاجر أم إسماعيل إبنه إلى الموضع المبارك وولادة إسماعيل عليه السلام هناك ونشؤه وتربيته ثمة وعود إبراهيم إليه وإجتماعه به في بناء البيت وذلك قوله تعالى * (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) * فرفعا قواعد البيت على مقتضى إشارة الوحي مرعيا فيه جميع المناسبات التي بينها وبين البيت المعمور وشرعا المناسك والمشاعر محفوظا فيا جميع المناسبات التي بينها وبين الشرع الأخير وتقبل الله تعالى ذلك منهما وبقى الشرف والتعظيم إلى زماننا وإلى يوم القيامة دلالة على حسن القبول فاختلفت آراء العرب في ذلك

واول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي بن غالوثة بن عمرو بن عامر لما سار قومه إلى مكة وإستولى على أمر البيت ثم صار إلى مدينة البلقاء بالشام فرأى هناك قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب إتخذناها على شكل إلهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستقي بها فنسقي ونستشفى بها فنشفى فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إليه هبل فسار به إلى مكة ووضعه في الكعبة وكان معه إساف ونائلة على شكل زوجين فدعا الناس إلى تعظيمها والتقرب إليها والتوسل بها إلى الله تعالى وكان ذلك في أول ملك شابور ذي الأكتاف إلى أن أظهر

الله تعالى افسلام فأخرجت وأبطلت وبهذا يعرف كذب من قال إن بيت الله الحرام إنما هو بيت زحل بناه الباني الأول على طوالع معلومة وإتصالات مقبولة وسماه بيت زحل ولهذا المعنى إقترن الدوام به بقاء والتعظيم له لقاء لأن زحل يدل على البقاء وطول العمر أكثر مما يدل عليه سائر الكواكب وهذا خطأ لأن الباني الأول كان مستندا إلى الوحي على يدي أصحاب الوحي

البيوت المتخذة للعبادة

ثم أعلم أن البيوت تنقسم إلى بيوت الأصنام وإلى بيوت النيران وقد ذكرنا المواضع التي كانت بيوت النيران ثم في مقالات المجوس فأما بيوت الأصنام التي كانت للعرب والهند فهي البيوت السبعة المعروفة المشهورة المبنية على السبع الكواكب فمنهاما كانت فيه أصنام فحولت إلى النيران ومنها مالم تحول ولقد كان بين أصحاب الأصنام وبين أصحاب النيران مخالفات كثيرة والأمر دول فيما بينهم وكان كل من استولى وقهر غير البيت إلى مشاعر مذهبه ودينه فمنها بيت فارس على رأس جبل بأصفهان على ثلاثة فراسخ كانت فيه أصنام إلى أن أخرجها كشتاسب الملك لما تمجس وجعله بيت نار

ومنها البيت الذي بمولتان من ارض الهند فيه أصنام لم تغير ولم تبدل ومنها بيت سدوسان من أرض الهند فيه أصنام لم تغير ولم تبدل ومنها بيت سدوسان من أرض الهند أيضا وفيه أصنام كبيرة كثيرة العجب والهند يأتون البيتين في أوقات من السنة حجا وقصدا إليهما ومنها النوبهار الذي بناه منوهجر بمدينة بلخ على اسم القمر فلما ظهر الإسلام خربه أهل بلخ ومنها بيت غمدان الذي بمدينة صنعاء اليمن بناه الضحاك على اسم الزهرة وخربه عثمان بن عفان رضي الله عنه ومنها بيت كاوسان بناه كاووس الملك بناء عجيبا على اسم الشمس بمدينة فرعانة وخربه المعتصم

واعلم أن العرب أصناف شتى فمنهم معطلة ومنهم محصلة نوع تحصيل

الفصل الأول
معطلة العرب
وهو أصناف
١ منكرو الخالق والبعث والإعادة
فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحي والدهر المفني والذين أخبر عنهم القرآن المجيد * (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) * إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي وقصرا للحياة والموت على تركبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر * (وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) * فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية في كم آية وكم سورة فقال تعالى * (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض) * وقال * (أو لم يروا إلى ما خلق الله) * وقال * (أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) * وقال * (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) * فأثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق وانه قادر على الكمال إبتداء وإعادة
٢ منكرو البعث وافعادة
وصنف منهم أقروا بالخالق وإبتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة وهم الذين أخبر عنهم القرآن * (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) *

فاستدل عليهم بالنشأة إذا اعترفوا بالخلق الأول فقال عزوجل * (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) * وقال * (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) *

٣ منكرو الرسل عباد الأصنام

وصنف منهم اقروا بالخالق وإبتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا وهم الدهماء من العرب إلا شرذمة منهم نذكرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل * (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) * إلى قوله * (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) * فاستدل عليهم بأن المرسلين كلهم كانوا كذلك قال الله تعالى * (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) *

شبهات العرب

وشبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين

إحداهما إنكار البعث بعث الأجسام

والثانية جحد البعث بعث الرسل

فعلى الأولى قالوا * (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) * إلى أمثالها من الآيات وعبروا عن ذلك في أشعارهم فقال بعضهم

حياة ثم موت ثم نشر * حديث خرافة ياأم عمرو

ولبعضم في مرثية أهل بدر من المشركين

فماذا بالقليب قليب بدر * من الشيزى تكلل بالسنام

يخبرنا الرسول بأن سنحيا * وكيف حياة أصداء وهام

ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول إذا مات الإنسان أو قتل إجتمع ع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرا هامة فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة وعن هذا أنكر عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام فقال لا هامة ولا عدوى ولا صفر

وإما على الشبهة الثانية فكان إنكارهم لبعث الرسول صلى الله عليه وسلم في الصورة البشرية أشد وإصرارهم على ذلك أبلغ وأخبر التنزيل عنهم بقوله تعالى * (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) * * (أبشر يهدوننا) * فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتي ملك من السماء * (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) * ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة لنا إلى الله تعالى هم الأصنام المنصوبة أما الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المنكر

أصنام العرب وميولهم

فيعبدون الأصنام التي هي الوسائل ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا وكان ود لكلب وهو بدومة الجندل وسواع لهذيل وكانوا يحجون إليه وينحرون له ويغوث لمذحج ولقبائل من اليمن ويعوق لهمذان ونسر لذي الكلاع بأرض حمير وكانت اللات لثقيف بالطائف والغرى لقريش وجميع بني كنانة وقوم من بني سليم ومناة للأوس والخزرج وغسان وهبل أعظم الأصنام عندهم وكان على ظهر الكعبة وإساف ونائلة على الصفا والمروة وضعهما عمرو بن لحي وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة وزعموا أنهما كان من جرهم إساف بن عمرو ونائلة بنت سهل تعاشقا ففجرا

في الكعبة فمسخا حجرين وقيل لا بل كانا صنمين جاء بهما عمرو بن لحى وفوضعهما على الصفا
وكان لبني ملكان من كنانة ضم يقال له سعد وهو الذي يقول فيه قائلهم
أتينا إلى سعد ليجمع شملنا * فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة * من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد
وكانت العرب إذا لبت وهللت قالت
لبيك اللهم لبيك * لبيك لا شريك لك
إلا شريك هو لك * تملكه وما ملك
ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ويقول مطرنا بنوء كذا ومنهم من طان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله تعالى تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

الفصل الثاني

المحاصلة من العرب

١ - علومهم

أعلم أن العرب في الجاهلية كانت على ثلاثة أنواع من العلوم أحدهما علم الأنساب والتواريخ والأديان ويعدونه نوعا شريفا خصوصا معرفة

أنساب أجداد النبي عليه الصلاة والسلام والاطلاع على ذلك النور الوارد من صلب إبراهيم إلى إسماعليل عليهم السلام وتواصله في ذريته إلى أن ظهر بعض الظهور في أسارير عبد المطلب سيد الوادى شيبة الحمد وسجد له الفيل الأعظم وعليه قصة أصحاب الفيل وببركة ذلك النور دفع الله تعالى شر أبرهة وأرسل عليهم طيرا أبابيل وببركة ذلك النور رأى تلك الرؤيا في تعريف موضع زمزم ووجدان الغزالة والسيوف التى دفنتها جرهم

وببركة ذلك النور ألهم عبد المطلب النذر الذي نذر في ذبح العاشر من أولاده وبه افتخر النبي عليه الصلاة والسلام حين قال أنا ابن الذبيحين أراد بالذبيح الأول إسماعيل عليه السلام وهو أول من انحدر إليه النور فاختفى وبلاذبيح الثاني عبد الله ابن عبد المطلب وهو آخر من انحدر إليه النور فظهر كل الظهور

وببركة ذلك النور كان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيات الأمور

وببركة ذلك النور كان قد سلم إليه النظر في حكومات العرب ة الحكم بين المتخاصمين فكان بوضع له وسادة عند الملتزم فيستند إلى الكعبة وينظر في حكومات القوم

وبركة ذلك النور قال لأبرهة إن لهذا البيت ربا يحفظه ويذب عنه وفيه قال وقد صعد الى جبل أبي قبيس

لا هم إن المرء * يمنع حله فامنع حلالك

لا يغلبن صليهم * ومحالهم غدرا محالك

إن كنت تاركهم وكم * بتنا فأمر ما بذا لك

وببركة ذلك النور كا ن يقول في وصاياه إنه يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم

الله منه وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب ذلك ففكر وقال والله إن وراء هذا دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بإساءته

ومما يدل على إثباته المبدإ والمعاد أنه كان يضرب بالقداح على ابنه عبد الله ويقول

* يا رب أنت المليك المحمود
* وأنت ربي المبدىء والمعيد
* من عندك الطارف والتليد

ومما يدل على معرفته بحال الرسالة وشرف النبوة أن أهل مكة لما أصابهم ذلك الجذب العظيم وأمسك السحاب عنهم سنتين أمر أبا طالب ابنه أن يحضر المصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم فأحضره وهو رضيع في قماط فوضعه في يديه واستقبل الكعبة ورماه إلى السماء وقال يا رب بحق هذا الغلام ورماه ثانيا وثالثا وكان يقول بحق هذا الغلام أسقنا غيثا مغيثا دائما هطلا فلم يلبث ساعة أن طبق السحاب وجه السماء وأمطر حتى خافوا على المسجد وأنشد أبو طالب ذلك الشعر اللامي منه

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل
بطيف به الهلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة وفواصل
كذبتم ورب البيت نبزى محمدا * ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال العباس بن عبد المطلب في النبي عليه الصلاة ووالسلام قصيدة منها

من قبلها طبت في الظلال وفي * مستودع حين يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر * أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد * ألجم نسرا وأهله الغرق

تنقل من صلب إلى رحم * إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن في * خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ظهرت أشرقت * الأرض وضاء بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النور * وسبل الرشاد نخترق

وأما النوع الثاني من العلوم فهو علم الرؤيا وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ممن يعبر الرؤيا في الجاهلية ويصيب فيرجعون إليه ويستخبرون عنه

وأما النوع الثالث فهو علم الأنواء وذلك مما يتولاه الكهنة والقافة منهم وعن هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من قال مطرنا بنوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمد

٢ – معتقداتهم

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها لأنها نوع تحصيل

فمن كان يعرف النور الظاهر والنسب الطاهر ويعتقد الدين الحنيفي وينتظر المقدم النبوي زيد بن عمرو بن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول أيها الناس هلموا إلى فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري وسمع أمية بن أبي الصلت يوما ينشد

كل دين يوم القيامة عند * الله إلا دين الحنيفة زور

فقال له صدقت وقال زيد أيضا

فلن تكون لنفس منك واقية * يوم الحساب إذا ما يجمع البشر

وممن كان يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب قس بن ساعدة الإيادي قال في مواعظه
كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ولئن ذهب ليعودن يوما وقال أيضا
كلا بل هو الله إله واحد * ليس بمولود ولا والد
أعاد وأبدى * وإليه المآب غدا
وأنشد في معنى الإعادة
يا باكي الموت والأموات في جدث * عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم * كما ينبه من نوماته الصعق
حتى يجيئوا بحال غير حالهم * خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم * منها الجديد ومنها الأزرق الخلق
ومنهم عامر بن الظرب العدوانى وكان من شعراء العرب وخطبائهم وله وصية طويلة
يقول في اخرها إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ولا
جائيا إلا ذاهبا ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ثم قال إنى أرى أمورا شتى
وحتى قيل له وما حتى قال حتى يرجع الميت حيا ويعود لا شيء شيئا ولذلك خلقت
السموات زالأرض فتولوا عنه ذاهبين وقال ويل إنها نصيحة لو كان من يقبلها
وكان عامر قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها وقال فيها
إن أشرب الخمر أشربها للذتها * وإن أدعها فإنى ماقت قال
لولا اللذاذة والقينات لم أرها * ولا رأتني إلا من مدى عالى
سألة للفتى ما ليس في يده * ذهابه بعقول القوم والمال

نورث القوم أضغانا بلا إجن * مزرية بالفتى ذي النجدة الحالى
أقسمت بالله أشقيها وأشربها * حتى يفرق ترب الأرض أوصالي
وممن كان قد حرم الخمر في الجاهلية قيس بن عاصم التميمي وصفوان بن أمية بن محرث الكناني وعفيف بن معدى كرب الكندى قالوا فيها أشعاراوقال الأسلوم اليالى وقد حرم الخمر والزنا على نفسه
سالمت قومي بعد طول مضاضة * والسلم أبقى في الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهي أثيرة * والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما * وكذاك يفعل ذو الحجى المتعفف
وممن كان يؤمن بالخالق تعالى وبخلق ادم عليه السلام عبد لطابخة بن ثعلب بن وبرة من قضاعة وقال فيه
وأدعوك يا ربي بما أنت أهله * دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمد والخير كله * وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذي لم يحيه الدهر ثانيا * ولم ير عبد منك في صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذي * تبدأت خلق الناس في أكثم العدم
وأنت الذي أحللتني غيب ظلمة * إلى ظلمة من صلب ادم في ظلم
ومن هؤلاء النابغة الذيباني آمن بيوم الحساب فقال
فعلتهم ذات الإله ودينهم * قويم فما يرجون غير العواقب
وأراد بذلك الجزاء بالأعمال
ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى المزنى وكان يمر بالعضاة وقد أورقت بعد يبس

فيقول لولا أن تسبنى العرب لامنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيى العظام وهي رميم
ثم امن بعد ذلك وقال في قصيدته التى أولها
أمن أم أوفى دمنه لم تكلم * وهي من السبعينات
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر * ليوم حساب أو يعجل فينتقم
ومنهم علاف بن شهاب التميمي كان يؤمن بالله وبيوم الحساب وفيه قال
ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة * فأخذت منه خطة المقتال
وعلمت أن الله جاز عبده * يوم الحساب بأحسن الأعمال
وكان بعض العرب إذا حضره الموت يقول لولده ادفنوا معى راحلتى حتى أحشر عليها فإن لم تفعلوا حشرت على رجلى قال جريبة بن الأشيم الأسدى في الجاهلية وقد حضره الموت يوصى ابنه سعدا
يا سعد إما أهلكن فإننى * أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلا * فى الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح * وابغ المطية إنه هو أصوب
ولعل لى مما تركت مطية * فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا
وقال عمرو بن زيد بن المتمنى يوصى ابنه عند موته
أبنى زودنى إذا فارقتني * في القبر زاحلة برحل قاتر
للبعث أركبها إذا قيل اظعنوا * متساوقين معا لحشر الحاشر
من لا يوافيه على على عشرائه * فألخلق بين مدفع أو عاثر
وكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي ظهرها أو مما يلي كلكلها وبطنها ويأخذون ولية فيشدون وسطها يقل ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها حتى تموت عند

القبر ويسمون الناقة بلية والخيط الذي تشد به ولية وقال بعضهم يشبه رجالا في بلية كالبلايا في أعناقها الولايا

٣ – تقاليد العرب التى أقرها الاسلام وبعض عاداتهم

قال محمد بن السائب الكلبي كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القران بتحريمها كانوا لا ينكحون الامهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات

وكان أقبح ما يصنعون أن يجمع الرجل بين الأختين أو يختلف على امرأة أبيه وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن قال أوس بن حجر التميمي يعير قوما من بنى قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم ثلاثة واحدا بعد الاخر

والفارسية فيكم غير منكرة * وكلكم لأبيه ضيزن سلف

نيكوا فكيهة وامشوا حول قبتها * مشى الزرافة في اباطها الحجف

وكان أول من جمع بين الأختين من قريش أبو أحيحة سعد بن العاص جمع بين هند وصفية ابنتي المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم

قال وكان الرجل إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له فيها حاجة طرح ثوبه عليها وإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد

قال وكانوا يخطبون المرأة الى أبيها أو الى أخيها أو عمها أو بعض بنى عمها وكان يخطب الكفء إلى الكفء فإن كان أحدهما أشرف من الاخر في النسب رغب له في المال وإن كان هجينا خطب إلى هجين فزوجه هجينة مثله ويقول الخاطب إذا أتاهم أنعموا صباحا ثم يقول نحن أكفاوكم ونظراؤكم فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة

وأصبتمونا وكنا لصهركم حامدين وإن رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين فإن كان قريب القرابة من قومه قال أبوها أو أخوها إذا حملت إليه أيسرت وأذكرت ولا أنثت جعل الله منك عددا وعزا وحلبا أحسنى خلقك وأكرمي زوجك وليكن طيبك الماء وإذا تزوجت في غربة قال لها لا أيسرت ولا أذكرت فإنك تدنين البعداء وتلدين الأعداء أحسني خلقك وتحببى الى أحمائك فإن لهم عينا ناظرة إليك وأذنا سامعة وليكن طيبك الماء

وكانوا يطلقون ثلاثا على التفرقة قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أول من طلق ثلاثا على التفرقة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وكان العرب يفعلون ذلك فتطلقها واحدة وهو أحق الناس بها حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس حين تزوج امرأة فرغب قومها عنه فأتاه قومها فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يطلقها

أيا جارتي بيني فإنك طالقة * كذاك أمور الناس غاد وطارقة

قالوا ثنه فقال

وبينى فإن البين خير من العصا * وأن لا ترى لى فوق رأسك بارقة

قالوا ثلث فقال

وبينى حصان الفرج غير ذميمة * وموموقة قد كنت فينا ووامقة

قال وكان أمر الجاهلية في نكاح النساء على أربع رجل يخطب فيتزوج وامرأة يكون لها خليل يختلف اليها فإن ولدت قالت هو لفلان فيتزوجها بعد هذا وامرأة يختلف اليها النفر وكلهم يواقعها في طهر واحد فإذا ولدت ألزمت الولد أحدهم وهذه تدعى المقسمة وامرأة ذات راية يختلف إليها الكثير وكلهم يواقعها فإذا ولدت جمعوا لها القافة فيلحقون الولد بشبيهه

قال وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون قال زهير
وكم بالقيان من محل ومحرم
ويطوفون بالبيت سبعا ويمسحون بالحجر ويسعون بين الصفا والمروة قال أبو طالب
وأشواط بين المروتين إلى الصفا وما فيهما من صور وتخايل
وكانوا يلبون الا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته في قوله
إلا شريك هو لك * تملكه وما ملك
ويقفون المواقف كلها قال العدوى
فأقسم بالذي حجت قريش * وموقف ذي الحجيج على اللالى
وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويحرمون الأشهر الحرم فلا يغزون ولا يقاتلون فيها إلا طى وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب فإنهم كانوا لا يحجون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام
وإنما سمت قريش الحرب التى كانت بينها وبين غيرها عام الفجار لأنها كانت في أشهر الحرم حيث لا تقاتل فلما قاتلوا فيها قد فجرنا فلذلك سموها حرب الفجار
وكانوا يكرهون الظلم في الحرم وقالت امرأة منهم تنهى ابنها عن الظلم
أبني لا تظلم بمسك * ة لا الصغير ولا الكبير
أبنى من بظلم بمك * ة يلق أطراف الشرور
أبنى قد جربتها * فوجدت ظالمها يبور
أبنى أمن طيرها * والوحش تأمن في ثبير

ومنهم من كان ينسىء الشهور وكانوا يكسبوا في كل عامين شهرا وفي كل ثلاثة أعوام شهرا وكانوا إذا حجوا في شهر من السنة لم يخطئوا أن يجعلوا يوم التروية ويوم عرفة النحر كهيئه ذلك في شهر ذي الحجة حتى يكون يوم النحر اليوم العاشر من ذلك الشهر ويقيمون بمنى فلا يبيعون في يوم عرفة ولا في أيام منى وفيهم أنزلت * (إنما النسيء زيادة في الكفر) *

وكانوا إذا ذبحوا للأصنام لطخوها بدماء الهدايا يلتمسون بذلك الزيادة في أموالهم

وكان قصى بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله من الأصنام وهو القائل

أربا واحدا أم ألف رب * أدين إذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل البصير

فلا العزى أدين ولا ابنتيها * ولا صنمى بنى غنم أزور

وقيل هي لزيد بن عمرو بن نفيل فلقى فى ذلك من قريش شرا حتى أخرجوه عن الحرم فكان لا يدخله إلا ليلا

وقال القلمس بن أمية الكناني يخطب للعرب بفناء مكة أطيعوني ترشدوا قالوا وما ذاك قال إنكم قد تفرقتم بالهة شتى وإنى لأعلم ما الله راض به وإن الله رب هذه الالهة وإنه ليجب أن يعبد وحده

قال فتفرقت عنه العرب حين قال ذلك وتجنبت عنه طائفة أخرى وزعمت أنه هذه الالهة وإنه ليجب أن يعبد وحده

قال فتفرقت عنه العرب حين قال ذلك وتجنبت عنه طائفة أخرى وزعمت أنه على دين بنى تميم

قال وكانوا بغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم قال الأفوه الأودي

ألا عللاني واعلما أنني غرر * فما قلت ينجينى الشقاق ولا الحذر

وما قلت يجدينى ثيابي إذا بدت * مفاصل أوصالي وقد شخص البصر

وجاءوا بماء بارد يغسلونى * فيالك من غسل سيتبعه كبر
قال وكانوا يكفنون موتاهم ويصلون عليهم وكانت صلاتهم إذا مات الرجل حمل على سريره ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثنى عليه ثم يدفن ثم يقول عليك رحمة الله وبركاته
وقال رجل من كلب في الجاهلية لابن ابن له
أعمرو إن هلكت وكنت حيا * فإنى مكثر لك في صلاتي
وأجعل نصف مالى لابن سام * حياتي إن حييت وفي مماتي
قال وكانوا يداومون على طهارات الفطرة التى ابتلى بها ابراهيم عليه السلام وهي الكلمات العشر فإنهن خمس في الرأس وخمس في الجسد فأما اللواتى في الرأس فالمضمضة والاستنشاقي وقص الشارب الفرق والسواك وأما اللواتي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان فلما جاء الإسلام قررها سنة من السنن
وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى إذا سرق
وكان مملوك اليمن وملوك الحيرة يصلبون الرجل إذا قطع الطريق
وكانوا يوفون بالعهود ويكرمون الجار ويكرمون الضيف قال حاتم الطائي
إلهم ربي وربي إلهم * فأقسمت لا أرسو ولا أتعذر
وقال ايضا
لقد كان في البرايا الناس أسوة * كأن لم يسبق جحش بغير ولا حمر
وكانوا أناسا موقنين بربهم * بكل مكان فيهم عابد بكر

الباب الرابع
أراء الهند
قد ذكرنا أن الهند أمة كبيرة وملة عظيمة واراؤهم مختلفة فمنهم البراهمة وهم المنكرون للنبوات أصلا ومنهم من يميل الى الدهر ومنهم من يميل الى مذهب الثنوية ويقول بملة ابراهيم عليه السلام وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها فمن قائل بالروحانيات ومن قائل بالهيا كل ومن قائل بالأصنام إلا أنهم مختلفون في شكل الهيا كل التى أبتدعوها وكيفية أشكال وضعوها ومنهم حكماء على طريق اليونانيين علما وعملا
فمن كانت طريقته على منهاج الدهرية والثنوية والصابئة فقد أغنانا حكاية مذاهبهم قبل عن حكاية مذهبه ومن انفرد عنهم بمقالة ورأى فهم خمس فرق البراهمة وأصحاب الروحانيات وأصحاب الهيا كل وعبدة الأصنام والحكماء ونحن نذكر مقالات هؤلاء كما قد وجدنا في كتبهم المشهورة
الفصل الأول
البراهمة
من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى ابراهيم عليه السلام وذلك خطأ فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفي النبوات أصلا ورأسا فكيف يقولون بابراهيم عليه السلام والقوم الذين اعتقدوا نبوة ابراهيم عليه السلام من أهل الهند فهم الثنوية

منهم القائلون بالنور والظلمة على رأس أصحاب الاثنين وقد ذكرنا مذاهبهم وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال به براهم وقد مهد لهم نفى النبوات أصلا وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه

منها أن قال إن الذى يأتى به الرسول لم يخل من أحد أمرين إما أن يكون معقولا وإما أن لا يكون معقولا فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه فأي حاجة لنا إلى الرسول وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانسة ودخول في حريم البهيمية

ومنها أن قال قد دل العقل على أن الله تعالى حكيم والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعا عالما قادرا حكيما وأنه أنعم على عباده نعما توجب الشكر فننظر في ايات خلقه بعقولنا ونشكره بالائه علينا وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه فما بالنا نتبع شرا مثلنا فإنه إن كان يأمرنا بما يخالف بما يخالف ذلك كان قوله دليلا ظاهرا على كذبه

ومنها أن قال قد دل العقل على أن العالم صانعا حكيما والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقل من التوجه الى بيت مخصوص في العبادة والطواف حوله والسعي ورمي الجمار والإحرام والتلبية وتقبيل الحجر الأصم وكذلك ذبح الحيوان وتحريم ما يمكن أن يكون غذاء للإنسان وتحليل ما ينقص من بنيته وغير ذلك وكل هذه الأمور مخالفة لقضايا العقول

ومنها أنه قال إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعا ووضعا أو كحيوان يصرفك أماما وخلفا أو كعبد يتقدم إليك أمرا ونهيا

فأي تميز له عليك وأية فضيلة أوجبت اسخدامك وما دليله على صدق دعواه فإن اغتررتم بمجرد قوله فلا تميز لقول على قول وإن انحسرتم بحجته ومعجزته فعندما فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يحصى كثرة ومن المخبرين عن مغيبات الأمور من ساوى خبره * (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) * فإذا اعترفتم بأن للعالم صانعا وخالقا وحكيما فاعترفوا بأنه امر وناه حاكم على خلقه وله في جميع ما نأتى ونذر ونعمل ونفكر جكم وأمر وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره ولا كل نفس بشرى بمثابة من يقبل عنه حكمه بل أوجبت منته ترتيبا في العقول والنفوس واقتضت قسمته أن يرفع * (بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) * فرحمة الله الكبرى هى النبوة والرسالة وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة

ثم أن البراهمة تفرقوا أصنافا فمنهم أصحاب البددة ومنهم أصحاب الفكرة ومنهم أصحاب التناسخ

١ – أصحاب البددة

ومعنى البد عندهم شخص في هذا العالم لا يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت وأول بد ظهر فى العالم اسمه شاكمين وتفسيره السيد الشريف ومن وقت ظهوره إلى وقت الهجرة خمسة الاف سنة قالوا ودون مرتبة البدر مرتبة البوديسعية ومعناه الإنسان الطالب سبيل الحق وإنما يصل إلى تلك المرتبة بالصبر والعطية وبالرغبة فيما يجب أن يرغب فيه وبالامتناع والتخلى عن الدنيا والعزوف عن شهواتها ولذاتها والعزة عن محارمها والرحمة على جميع الخلق

وبالاجتناب عن الذنوب العشرة قتل كل ذي روح واستحلال أموال الناس والزنا والكذب والنميمة والبذاء والشتم وشناعة الألقاب والسفه والجحد لجزاء الاخرة وباستكمال عشرة خصال إحداها الجود والكرم والثانية العفو عن المسيء ودفع الغضب بالحلم والثالثة التعفف عن الشهوات الدنيوية والرابعة الفكرة في التخلص إلى ذلك العالم الدائم الوجود من هذا العالم الفاني والخامسة رياضة العقل بالعلم والأدب وكثرة النظر إلى عواقب الأمور والسادسة القوة على تصريف النفس في طلب العليات والسابعة لين القلب وطيب الكلام مع كل أحد والثامنة حسن المعاشرة مع الإخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه والتاسعة الإعراض عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق بالكلية والعاشرة بذل الروح شوقا إلى الحق ووصولا إلى جناب الحق

وزعموا أن البددة أتوهم على عدد الهيا كل من نهر الكنك وأعطوهم العلوم وظهروا لهم في اجناس وأشخاص شتى ولم يكونوا يظهرون إلا في بيوت الملوك لشرف جواهرهم قالوا ولم يكن بينهم اختلاف فيما ذكر عنهم من أزلية العالم وقولهم في الجزاء على ما ذكرنا وإنما اختص ظهور البددة بأرض الهند لكثرة ما فيها من خصائص التربة والإقليم ومن فيها من أهل الرياضة والاجتهاد وليس يشبه البد على ما وصفوه إن صدقوا في ذلك إلا بالخضر الذي يثبته أهل الإسلام

٢ – أصحاب الفكرة والوهم

وهؤلاء أعلم منهم بالفلك والنجوم وأحكامها المنسوبة إليهم وللهند طريقة تخالف طريقة منجمي الروم والعجم وذلك أنهم يحكمون أكثر الأحكام باتصالات الثوابت دون السيارات وينشئون الأحكام عن خصائص الكواكب دون طبائعها ويعدون زحل السعد الأكبر وذلك لرفعة مكانه وعظم جرمه وهو الذي يعطي العطايا الكلية من

السعادة والجزئية من النحوسة وكذلك سائر الكواكب لها طبائع وخواص فالروم يحكمون من الطبائع والهند يحكمون من الخواص وكذلك طبهم فإنهم يعتبرون خواص الأدوية دون طبائعها والروم تحالفهم في ذلك
وهؤلاء أصحاب الفكرة يعظمون الفكر ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمعقول فالصور من المحسوسات ترد عليه والحقائق من المعقولات ترد عليه أيضا فهو مورد العلمين من العالمين فيجتهدون كل الجهد حتى يصرفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضيات البليغة والاجتهادات المجهدة حتى إذا تجرد الفكر هن هذا العالم تجلى له ذلك العالم فربما يخبر عن مغيبات الأحوال وربما يقوى على حبس الأمطار وربما يوقع الوهم على رجل حي فيقتله في الحال ولا يستعبد ذلك فإن للوهم أثرا عجيبا في تصريف الأجسام والتصرف في النفوس أليس الاحتلام في النوم تصرف الوهم في الجسم أليست إصابة العين تصرف الوهم في الشخص أليس الرجل يمشي على جدار مرتفع فيسقط في الحال ولا يأخذ من عرض المسافة فى خطواته سوى ما أخذه على الأرض المستوية والوهم إذا تجرد عمل أعمالا عجيبة ولهذا كانت الهند تغمض عينها أياما لئلا يشتغل الفكر والوهم بالمحسوسات ومع التجرد إذا اقترن به وهم اخر اشتركا في العمل خصوصا إذا كانا متفقين غاية الاتفاق ولهذا كانت عادتهم إذا دهمهم أمر أن يجتمع أربعون رجلا من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد في الإصابة فيتجلى لهم المهم الذي يهضمهم حمله ويندفع عنهم البلاء الملم الذي يكاد ثقله ومنهم البكر نتينية يعنى المصفدين بالحديد وسنتهم حلق الرءوس واللحى وتعرية الأجسام ما خلا العورة وتصفيد البدن من أوساطهم إلى صدورهم لئلا تنشق بطونهم من كثرة العلم وشدة الوهم وغلبة الفكر ولعلهم رأوا في الحديد خاصية تناسب الأوهام وإلا فالحديد كيف يمنع انشقاق البطن وكثرة العلم كيف توجب ذلك

٣ – أصحاب التناسخ
وقد ذكرنا مذاهب التناسخية وما من ملة من الملل وإلا وللتناسخ فيها قدم راسخ وإنما تختلف طرقهم في تقرير ذلك فأما تناسخية الهند فأشد اعتقادا لذلك لما عاينوا من طير يظهر في وقت معلوم فيقع على شجرة معلومة فيبيض ويفرخ ثم إذا تم نوعه بفراخه حك بمنقاره ومخالبه فتبرق منه نار تلتهب فيحترق الطير ويسيل منه دهن يجتمع في أصل الشجرة في مغارة ثم إذا حال الحول وحان وقت ظهوره انخلق من هذا الدهن مثله طير فيطير ويقع على الشجرة وهو أبدا كذلك قالوا فما مثل الدنيا وأهلها في الأدوار والأكوار إلا كذلك
قالوا وإذا كانت حركات الأفلاك دروية فلا محالة يصل رأس الفرجار إلى ما بدأ ودار دورة ثانية على الخط الأول أفاد لا محالة ما أفاد الدور الأول إذ لا اختلاف بين الدورين حتى يتصور اختلاف بين الأثرين فإن المؤثرات عادت كما بدأت والنجوم والأفلاك دارت على المركز الأول وما اختلفت أبعادها واتصالاتها ومناظراتها ومناسباتها بوجه فيجب أن لا تختلف المتأثرات الباديات منها بوجه وهذا هو تناسخ الأدوار والأكوار ولهم اختلافات في الدورة الكبرى كم هي من السنين وأكثرهم على أنها ثلاثون ألف سنة وبعضهم على أنها ثلاثمائة ألف سنة وستين ألف سنة وإنما يعتبرون في تلك الأدوار سير الثوابت لا السيارات وعند الهند أكثرهم أن الفلك مركب من الماء والنار والريح وأن الكواكب فيه نارية هوائية فلم تعدم الموجودات العلوية إلا العنصر الأرضي فحسب

الفصل الثاني
أصحاب الروجانيات
ومن أهل الهند جماعة أثبتوا متوسطات روحانية يأتونهم بالرسالة من عند الله عز وجل في صورة البشر من غير كتاب فيأمرهم بأشياء وينهاهم عن أشياء ويسن لهم الشرائع ويبين لهم الحدود
وإنما يعرفون صدقة بتنزهه عن حطام الدنيا واستغنائه عن الأكل والشرب والبعال
١ – الباسنوية
زعموا أن رسولهم ملك روحاني نزل من السماء على صورة بشر فأمرهم بتعظيم النار وأن يتقربوا إليها بالعطر والطيب والأدهان والذبائح ونهاهم عن القتل والذبح إلا ما كان للنار وسن لهم أن يتوشحوا بخيط يعقدونه من مناكبهم الأيامن إلى تحت شمائلهم ونهاهم أيضا عن الكذب وشرب الخمر وأن لا يأكلوا من أطعمة غير ملتهم ولا من ذبائحهم وأباح لهم الزنا لئلا ينقطع النسل
وأمرهم أن يتخذوا على مثاله ضما يتقربون إليه ويعبدونه ويطوفون حوله كل يوم ثلاث مرات بالمعازف والتبخير والغناء والرقص وأمرهم بتعظيم البقرة والسجود لها حيث رأوها وأن يفزعوا في التوبة إلى التمسح بها وأمرهم أن لا يجوزوا نهر كنك
٢ – الباهودية
زعموا أن رسولهم ملك روحاني على صورة بشر اسمه باهود أتاهم وهو راكب على ثور على رأسه إكليل مكلل بعظام الموتى من عظام الرءوس ومتقلد من ذلك بقلادة وبإحدى يديه قحف إنسان وبالأخرى مرزاق ذو ثلاث شعب

يأمرهم بعبادة الخالق عز وجل وبعبادته معه وأن يتخذوا على مثاله ضما يعبدونه وأن لا يعافوا شيئا وأن تكون الأشياء كلها في طريقة واحدة لأنها جميعا صنع الخالق عز وجل وأن يتخذوا من عظام الناس قلائد يتقلدونها وأكاليل يضعونها على رءوسهم وأن يمسحوا أجسادهم ورءوسهم بالرماد وحرم عليهم الذبائح والنكاح وجمع الأموال وأمرهم برفض الدنيا ولا معاش لهم فيها إلا من الصدقة

٣ – الكابلية

زعموا أن رسولهم ملك روحاني يقال له شب أتاهم في صورة بشر متمسح بالرماد على رأسه قلنسوة من لبود أحمر طولها ثلاثة أشبار مخيط عليها صفائح من قحف الناس متقلد قلادة من أعظم ما يكون متمنطق من ذلك بمنطقة متسور منها بسوار متخلخل منها بخلخال وهو عريان فأمرهم أن يتزينوا بزينته ويتزيوا بزيه وسن لهم شرائع وحدودا

٤ – البهادونية

قالوا إن بهادون كان ملكا عظيما أتانا في صورة إنسان عظيم وكان له أخوان قتلاه وعملا من جلدته الأرض ومن عظامه الجبال ومن دمه البحار وقيل هذا رمز وإلا فحال صورة الإنسان لا تبلغ إلى هذه الدرجة وصورة بهادون راكب على دابة كثير شعر الرأس قد أسبله على وجهه وقد قسم الشعر على جوانب رأسه قسمه مستوية وأسبله كذلك على نواحى الرأس قفا ووجها وأمرهم أن يفعلوا كذلك وسن لهم أن لا يشربون الخمر وإذا رأوا امرأة هربوا منها وأن يحجوا إلى جبل يدعى جورعن وعليه بيت عظيم فيه صورة بهادون ولذلك البيت سدنه لا يكون المفتاح بأيديهم فلا يدخلون الا بإذنهم وإذا فتحوا الباب سدوا أفواههم حتى لا تصل أنفاسهم إلى الصم

ويذبحون له الذبائح ويقربون له القرابين ويهدون له الهدايا وإذا انصرفوا من حجهم لم يدخلوا العمران في طريقهم ولم ينظروا إلى محرم ولم يصلوا إلى أحد بسوء وضرر من قول وفعل

الفصل الثالث

عبدة الكواكب

ولم ينقل للهند مذهب في عبادة الكواكب إلا فرقتان توجهتا إلى النيرين الشمس والقمر ومذهبهم في ذلك مذهب الصابئة في توجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الربوبية والإلهية عليها

١ – عبدة الشمس

زعموا أن الشمس ملك من الملائكة ولها نفس وعقل ومنها نور الكواكب وضياء العالم وتكون الموجودات السفلية وهى ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والتبخير والدعاء وهؤلاء يسمون الدينيكيتية أى عباد الشمس ومن سنتهم أن اتخذوا لها صنما بيده جوهر على لون النار وله بيت خاص بنوه باسمه ووقفوا عليه ضياعا وقربانا وله سدنة وقوام فيأتون البيت ويصلون ثلاث كرات ويأتيه أصحاب العلل والأمراض فيصومون له ويصلون ويدعون ويستشفون به

٢ – عبدة القمر

زعموا أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلى والأمور الجزئية فيه ومنه نضج الأشياء المكتوبة وإيصالها إلى كمالها وبزيادته

ونقصانه تعرف الأزمان والساعات وهو تلو الشمس وقرينها ومنها نوره وبالنظر إليها تكون زيادته ونقصانه وهؤلاء يسمون الجندريكينية أي عباد القمر ومن سنتهم أن أتخذوا له صنما على شكل عجل يجره أربعة وبيد الصم جوهر ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه وأن يصوموا النصف من كل شهر لا يفطروا حتى يطلع القمر ثم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم فإذا استهل الشهر علوا السطوح وأوقدوا الدخن ودعوا عند رؤيته ورغبوا إليه ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصم والقمر

الفصل الرابع

عبدة الأصنام

اعلم أن الأصناف التى ذكرنا مذاهبهم يرجعون اخر الأمر إلى عبادة الأصنام إذ كان لا يستمر لهم طريقة إلا بشخص حاضر ينظرون إليه ويعكفون عليه وعن هذا اتخذت أصحاب الروحانيات والكواكب أصناما زعموا أنها على صورتها وبالجملة وضع الأصنام حيث ما قدروه إنما هو على معبود غائب حتى يكون الصم المعمول على صورته وشكله وهيأته نائبا منابا وقائما مقامه وإلا فنعلم قطعا أن عاقلا ما لا ينحت جسما بيده ويصور صورة ثم يعتقد أنه إلهة وخالقه وإله الكل وخالق الكل إذ كان وجوده مسبوقا بوجوده صانعه وشكله يحدث بصنعته ناحته

لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها كان عكوفهم ذلك عبادة وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها وعن هذا كانوا يقولون * (ما نعبدهم إلا ليقربونا

إلى الله زلفى) * فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية والإلهية لما تعدوا عنها الى رب الأرباب

١ – المهاكالية

لهم ضم يدعى مهاكال له أربع أيد كثير شعر الرأس سبطها وبإحدى يديه ثعبان عظيم فاغرفاه وبالأخرى عصا وبالثالثة رأس إنسان وباليد الرابعة قد دفعها وفي أذنية حيتان كالقرطين وعلى جسده ثعبانان عظيمان قد التفاعلية وعلى رأسه إكليل من عظام القحف وعليه من ذلك قلادة يزعمون أنه عفريت يستحق العبادة لعظمة قدره واستجماعه الخصال المحمودة المحبوبة والمذمومة من الإعطاء والمنع والإحسان والإساءة وأنه المفزع لهم في حاجاتهم وله بيوت عظام بأرض الهند ينتابها اهل ملته في كل يوم ثلاث مرات يسجدون له ويطوفون به ولهم موضع يقال له اختر فيه ضم عظيم على صورة هذا الضم يأتونه من كل موضع ويسجدون له هناك ويطلبون حاجات الدنيا حتى إن الرجل يقول له فيما يسأل زوجني فلانة وأعطني كذا ومنهم من يأتيه فيقيم عنده الأيام والليالي لا يذوق شيئا يتضرع إليه ويسأله الحاجة حتى إنه ربما ينفق

٢ – البركسهيكية

ومن ذلك البركسهيكية من سننهم أن يتخذوا لأنفسهم صنما يعبدونه ويقربون له الهدايا وموضع متعبدهم له أن ينظروا إلى باسق الشجر وملتفه مثل الشجر الذي يكون في الجبال فيلتمسون منها أحسنها وأطولها فيجعلون ذلك الموضع موضع متعيدهم ثم يأخذون ذلك الصنم فيأتون شجرة عظيمة من ذلك الشجر فينقبون فيها موضعا فيركبونه فيها فيكون سجودهم وطوافهم نحو تلك الشجرة

٣ – الدهكينية
ومن ذلك الدهكينية من سننهم أن يتخذوا صنما على صورة امرأة وفوق رأسه تاج وله أيد كثيرة ولهم عيد في يوم من أيام السنة عند استواء الليل والنهار ودخول الشمس الميزان فيتخذونه في ذلك اليوم عريشا عظيما بين يدي ذلك الصنم ويقربون اليه القرابين من الغنم وغيرها ولا يذبحونها ولكن يضربون أعناقهم بين يديه بالسيوف ويقتلون من أصابوا من الناس قربانا بالغيلة حتى ينقضي عيدهم وهم مسيئون عند عامة الهند بسبب الغيلة
٤ – الجلهكية أي عباد الماء
ومن ذلك الجلهكية أى عباد الماء يزعمون أن الماء ملك ومعه ملائكة وأنه أصل كل شيء وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة وما من عمل في الدنيا إلا وهو محتاج إلى الماء
فإذا أراد الرجل عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل الماء إلى وسطه فيقيم ساعة أو ساعتين أو أكثر ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغارا ويلقى فيه بعضها بعد بعض وهو يسبح ويقرأ وإذا أراد الإنصراف حرك الماء بيده ثم أخذ منه فنقط به رأسه ووجهه وسائر جسده خارجا ثم سجد وانصرف
٥ – الأكنواطرية أي عباد النار
ومن ذلك الأكنواطرية أي عباد النار زعموا أن النار أعظم العناصر جرما وأوسعها حيزا وأعلاها مكانا وأشرفها جوهرا وأنورها ضياء وإشراقا وألطفها جسما وكيانا والإحتياج إليها من الإحتياج إلى سائر الطبائع ولا كون في العالم إلا بها ولا حياة ولا نمو ولا إنعقاد إلا بممازجتها

وإنما عبادتهم لها أن يحفروا أخدودها مربعا في الأرض ويؤججوا النار فيه ثم لا يدعون طعاما لذيذا ولا شرابا لطيفا ولا ثوبا فاخرا ولا عطرا فائحا ولا جوهرا نقيا إلا طرحوه فيها تقربا إليها وتبركا بها وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها خلافا لجماعة اخرى من زهاد الهند

وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها يعظمون النار لجوهرها تعظيما بالغا ويقدمونها على الموجودات كلها

ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين يسدون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم صدر عن صدر محرم

وسنتهم الحث على الأخلاق الحسنة والمنع من أضدادها وهي الكذب والحسد والحقد واللجاج والبغي والحرص والبطر فإذا تجرد الإنسان عنها قرب من النار وتقرب إليها

الفصل الخامس

حكماء الهند

كان لفيثاغورس الحكيم اليوناني تلميذ قلانوس قد تلقى الحكمة منه وتلمذ له ثم صار إلى مدينة من مدائن الهند وأشاع فيها مذهب فيثاغورس

وكان برخمنين رجلا جيد الذهن نافذ البصيرة صائب الفكر راغبا في معرفة العوالم العلوية قد أخذ من قلانوس الحكيم حكمته واستفاد منه علمه وصنعته

فلما توفى قلانوس ترأس برخمنين على الهند كلهم فرغب الناس في تلطيف الأبدان وتهذيب الأنفس وكان يقول أي أمرىء هذب نفسه وأسرع الخروج عن هذا العالم الدنس وظهر بدنه من أوساخه ظهر له كل شيء وعاين كل غائب وقدر على كل

متعذر وكان محبورا مسرورا ملتذا عاشقا لا يمل ولا يكل ولا يمسه نصب ولا لغوب فلما نهج لهم الطريق واحتج عليهم بالحجج المقنعة إجتهدوا إجتهادا شديدا وكان بقول أيضا إن ترك لذات هذا العالم هو الذي يلحقكم بذلك العالم حتى تتصلوا به وتنخرطوا في سلكه وتخلدوا في لذاته ونعيمه فدرس أهل الهند هذا القول ورسخ في عقولهم

٢ – اختلاف الهنود بعد وفاة برخمنين

ثم توفى عنهم برخمنين وقد تجسم القول في عقولهم لشدة الحرص والعجلة في اللحاق بذلك العالم فافترقوا فرقتين

فرقة قالت إن التناسل في هذا العالم هو الخطأ الذي لا خطأ أبين منه إذ هو نتيجة اللذة الجسدانية وثمرة النطفة الشهوانية فهو حرام وما يؤدي إليه من الطعام اللذيذ والشراب الصافي وكل ما يهيج الشهوة واللذة الحيوانية وينشط القوة البهيمية فهو حرام أيضا فاكتفوا بالقليل من الغذاء على قدر ما تثبت به أبدانهم ومنهم من كان لا يرى ذلك القليل أيضا ليكون لحاقه بالعالم الأعلى أسرع ومنهم من إذا رأى عمره قد تنفس ألقى بنفسه في النار تزكية لنفسه وتطهيرا لبدنه وتخليصا لروحه ومنهم من يجمع ملاذ الدنيا من الطعام والشراب والكسوة فيمثلها نصب عينيه لكي يراها البصر وتتحرك نفسه البهيمية إليها فتشتاقها وتشتهيها فيمنع نفسه عنها بقوة النفس المنطقية حتى يذبل البدن وتضعف النفس وتفارق البدن لضعف الرباط الذي كان يربطها به

واما الفريق الآخر فإنهم كانوا يرون التناسل والطعام والشراب وسائر اللذات بالقدر الذي هو طريق الحق حلالا

وقليل منهم من يتعدى عن الطريق ويطلب الزيادة

وكان قوم من الفريقين سلكوا مذهب فيثاغورس من الحكمة والعلم فتلطفوا حتى صاروا يظهرون على ما في أنفس أصحابهم من الخير والشر ويحبرون بذلك فيزيدهم ذلك حرصا على رياضة الفكر وقهر النفس الأمارة بالسوء واللحوق بما لحق به أصحابهم ومذهبهم في الباري تعالى أنه نور محض إلا أنه لابس جسدا ما يستتر به لئلا يراه إلا من استأهل رؤيته واستحقها كالذي يلبس في هذا العالم جلد حيوان فإذا خلعه نظر إليه من وقع بصره عليه وإذا لم يلبسه لم يقدر أحد من النظر إليه ويزعمون أنهم كالسبايا في هذا العالم فإن من حارب النفس الشهوية حتى منعها عن ملاذها فهو الناجي من دنيات العالم السفلى ومن لم يمنعها بقى أسيرا في بدنها والذي يريد أن يحارب هذا أجمع فإنما يقدر على محاربتها بنفي التجبر والعجب وتسكين الشهوة والحرص والبعد عما يدل عليها ويوصل إليها

الإسكندر في الهند

ولما وصل الاسكندر إلى تلك الديار وأراد محاربتهم صعب عليه إفتتاح مدينة احد الفريقين وهم الذين كانوا يرون إستعمال اللذات في هذا العالم بقدر القصد الذي لا يخرج إلى فساد البدن فجهد حتى فتحها وقتل منهم جماعة من أهل الحكمة فكانوا يرون جثث قتلاهم مطروحة كأنها جثث السمك الصافية النقية التي في الماء الصافي فلما رأوا ذلك ندموا على فعلهم ذلك بهم وأمسكوا عن الباقين

والفريق الثاني وهم الذين زعموا أن لا خير في إتخاذ النساء والرغبة في النسل ولا في شيء من الشهوات الجسدانية كتبوا إلى الإسكندر كتابا مدحوه فيه على حب الحكمة وملابسة العلم وتعظيم أهل الرأي والعقل والتمسوا منه حكيما يناظرهم فنفذ إليهم واحدا من الحكماء فنضلوه بالنظر وفضلوه بالعمل فانصرف الإسكندر عنهم ووصلهم بجوائز سنية وهدايا كريمة فقالوا إذا كانت الحكمة تفعل بالملوك هذا الفعل في هذا العالم

كرم الله وجهه الله تبارك وتعالى الرب عز وجل فكيف إذا لبسناها على ما يجب لباسها وإتصلت بنا غاية الإتصال ومناظراتهم مذكورة في كتب أرسطو طاليس
ومن سنتهم إذا نظروا إلى الشمس قد أشرقت سجدوا لها وقالوا ما احسنك من نور وما أبهاك وما أنورك لا تقدر الأبصار أن تلتذ بالنظر إليك فإن كنت أنت النور الأول الذي لا نور فوقك فلك المجد والتسبيح وإياك نطلب وإليك نسعى لندرك السكن بقربك وننظر إلى إبداعك الأعلى وإن كان فوقك وأعلى منك نور آخر أنت معلول له فهذا التسبيح وهذا المجد له وإنما سعينا وتركنا جميع لذات هذا العالم لنصير مثلك ونلحق بعالمك ونتصل بساكنك وإذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكمالها فحق لكل طالب أن يهجر جميع فيظفر بالجوار بقربه ويدخل في غمار جنده وحزبه
هذا ماوجدته من مقالات أهل العلم ونقلته على ما وجدته فمن صادف فيه خللا في النقل فأصلحه أصلح الله عز وجل بفضله حاله وسدد أقواله وأفعاله وهو حسبنا ونعم الوكيل
والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيد المرسلين محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين وصحابته الأكرمين وسلم تسليما كثيرا